



جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان الجزائر





قــــــسم: اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب المغرب الإسلامي والحضارة المتوسطية

رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه بعنوان:

أثر الأدب الزّياني على حضارة المغرب الإسلامي في القرنين السّابع والثّامن الهجريين

إعداد الطالبة: إشراف الأستاذ:



طهراوي نعيمة أ. د عبد العالي بشير

أعضاء لجنة المناقشة:

- أ. **د**. محمد مرتاض	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
- أ. د. عبد العالي بشير	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا
- أ. د. دكار أحمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا
- أ. د. قيطون أحمد	أستاذ التعليم العالي	المركز الجامعي النعامة	عضوا
- د. علا عبد الرزاق	أستاذ محاضر " أ "	المركز الجامعي عين تموشنت	عضوا

السنة الدراسية: 1439 -1440 هـ/2018 -2019 م


بسم الله الرحمن الرحيم



إهـــــــداء

إلى مدرستي الأولى في الحياة..." أمّي"

إلى من علمني الصمود مهما تبدلت الظروف ..." أبي"

إلى من كان يساندني ويتنازل عن حقه لإرضائي والعيش في هناء

..."أخي":محمد

إلى أساتذتي وزملائي...

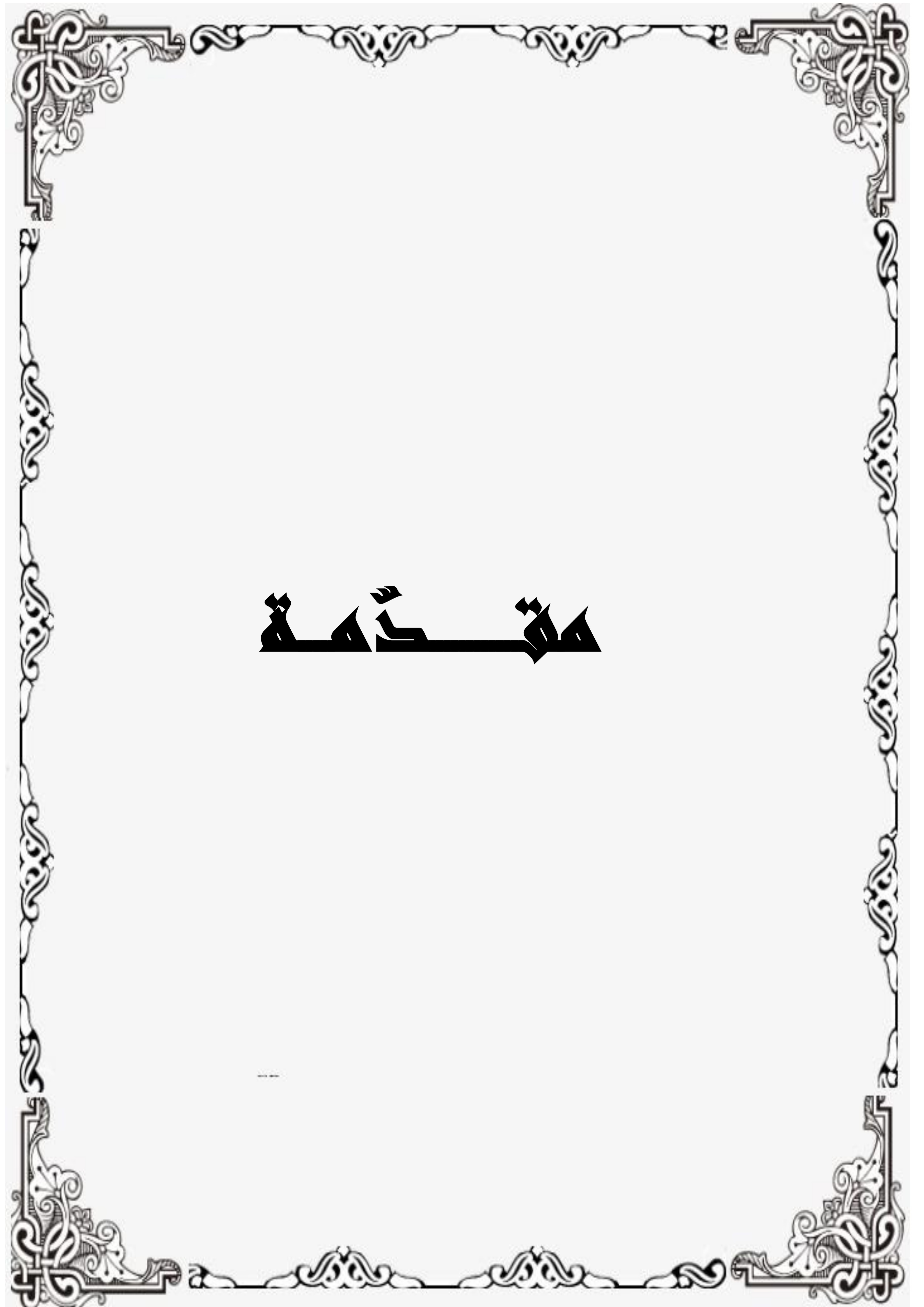
أهدي هذا البحث راجية من المولى عز وجل أن أجد القبول والنجاح.



شكر و عرفان

الحمد لله الذي أنار لي درب العلم والمعرفة وأعانني على أداء هذا الواجب ووفقني إلى إنجاز هذا العمل ،أتوجه بجزيل الشكر والامتنان إلى كل من ساعدني من قريب وبعيد على إنجاز هذا العمل وفي تذليل ما واجهني من صعوبات، ونخص بالذكر الأستاذ المشرف **الدكتور عبد العالي بشير** الذي لم يبخل عليّ بتوجيهاته ونصائحه القيّمة التي كانت عونا لي في اتمام هذا البحث.

كما أتقدم بكل الشكر والامتنان إلى كل أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم مناقشة هذه الرسالة فجزاهم الله خيرا.



مقـــدّمة

مقدّمة

يحاول الإنسان بسليقته معرفة الماضي واسترجاعه بآليات مختلفة للسّير إلى الأمام والتّطلع لمستقبل أفضل ، فصدق من قال الأمة التي ليس لها تاريخ ليس لها مستقبل. وتمتلك مدينة تلمسان تاريخا عريقا نفتخر به، و نسعى جميعا إلى إعادة قراءته ،وبناء صرح الحضارة العربية الإسلامية من جديد .

أبرز المحطات الزمنية لتاريخ مدينة تلمسان وجود حضارة برزت في بلاد المغرب الإسلامي ،وبالضبط خلال القرنين السّابع والثّامن الهجريين، وهي الحضارة الزّيانية .

وقد ساعد الأدب الزّياني في بلوغه لتلك المرتبة وجود أرضية خصبة صالحة لنموه ونضوج ثماره ، وهذا ما اصطلح عليه باسم الحركة الأدبية.

حاولت في هذا البحث الإجابة عن الإشكالية التالية: **ما الأثر الذي أحدثه الأدب الزياني على حضارة المغرب الإسلامي** ؟ ومنها تفرعت عدة تساؤلات كان أبرزها: كيف أسهم الأدب الزّياني في تقدم حضارة المغرب الإسلامي ؟ وما نوع الحركة الأدبية في عهد الدولة الزّيانية ؟هل عكس الأدب الزّياني صورة حضارة المغرب الإسلامي في جميع نواحيها أم اقتصر على جانب واحد ؟ وما هي مظاهر الحضارة الزّيانية من خلال النصوص الأدبية لتلك الفترة؟

ومن أهم الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع دون غيره ، اطلاعي على كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك لأبي حمو موسى الزّياني ، وما وجدته فيه من كنوز قد سبقني إليها بعض الباحثين فأماطوا على بعضها الغبار فكان أبرزها : من أعلام تلمسان – مقاربة تاريخية – فنية – للدكتور محمد مرتاض ، وتلمسان في العهد الزّياني لعبد العزيز فيلالي دافعا موضوعيا لأكون من بينهم أتبع خطاهم، متخذة جانبا آخر من الدراسة تمثل في توضيح نوع العلاقة التي تربط الأدب الزّياني بحضارة المغرب الإسلامي، ومبرزة في الوقت نفسه ملامح هذه الحضارة من خلال نتاجهم الأدبي. قابله شغفي الكبير لمعرفة حضارة مديني تلمسان من خلال أدب الفترة الزّيانية.



وقد اعترت سبيلي أثناء إعداد هذه الأطروحة جملة من الصعوبات لعل أبرزها صعوبة تحديد أدباء الدولة الزيانية ، واختيار النصوص الشعرية والنثرية التي تجلت فيها مظاهر الحضارة . لأن من هؤلاء الشعراء من ولد في مدينة تلمسان ثم اضرته الظروف لمغادرتها ، ومنهم من قدم إليها إما زائرا- من البلدان الاسلامية المجاورة – أو من أجل مهمة أوكلت له . فاضطررت إلى تصنيف هؤلاء الذين أقاموا فيها من ضمن أدباء الدولة الزيانية لإسهاماتهم الفكرية داخل البلاط الزياني فكانوا من خيرة أبنائها .

أما بالنسبة للمنهج الذي اعتمدته في هذا البحث فقد تمثل في المنهج الاستنتاجي الاستقرائي بتتبعي للحركة الأدبية وتطورها من خلال الأغراض والأجناس الأدبية ،وذكري لأبرز الظواهر الأدبية كظاهرة المديح النبوي والسلطاني، واستحضاري لمختلف المظاهر الحضارية من خلال النصوص الشعرية والنثرية وتحديد العلاقة بينهما .

إلى أن اعتمدت على مجموعة من المصادر والمراجع ، التي كانت معيني في توظيف كلا الخطابين الشعري والنثري على شكل نماذج قابلة للتحليل والمناقشة ومن بينها:

1. واسطة السلوك في سياسة الملوك لابي حمو موسى الزّياني.
2. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وأزهار الرياض في أخبار عياض لمحمد المقري التلمساني .

3- تلمسان عبر العصور – محمد بن عمرو الطمار

4- أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره لعبد الحميد حاجيات.

وعلى هذا الأساس فقد اشتمل البحث على مقدّمة ، ومدخل وثلاثة فصول، وخاتمة وملحق.

تطرقت في المدخل إلى الحديث عن تاريخ الدولة الزيانية من خلال ذكر أصل تسميتها ، ودور القبائل في قيامها ، وأهم مراحلها التاريخية التي مرت بها من مرحلة نشأتها إلى مرحلة تدهورها.



تحدثت في الفصل الأول عن الأدب والحضارة العربية الإسلامية وقد تضمن ثلاثة مباحث ،خصصت المبحث الأول لماهية الأدب ، والمبحث الثاني لأنواعه ، و المبحث الثالث لمفهوم الحضارة وعوامل قيامها ثم تحدثت عن أهم الحضارات ألا وهي الحضارة العربية الإسلامية، وأفردت المبحث الرابع للحديث عن العلاقة بين الأدب والحضارة.

تناولت في الفصل الثاني الحركة الأدبية في عهد الدولة الزّيانية في القرنين السّابع والثّامن الهجريين ، وقد تضمن مبحثين، خصصت المبحث الأول للأغراض الشعرية ، والمبحث الثاني للأجناس النثرية.

تطرقت في الفصل الثالث إلى الحديث عن أهم المظاهر الحضارية في الأدب الزّياني ،وقد ارتأيت تقسيم هذا الفصل إلى ستة مباحث ،خصصت المبحث الأول للمظهر العمراني ،والثاني للمظهر الاجتماعي ،والثالث للمظهر الاقتصادي ،والرابع المظهر السياسي، والخامس للمظهر العلمي ،و السادس للمظهر الطبيعي.

إل أن أنهيت البحث بخاتمة سجلت فيها أهم الملاحظات والنتائج التي توصلت إليها في هذه الدّراسة ، ثم ذيلته بملحق وفهرس للمصادر والمراجع ، وآخر للموضوعات.

ويعود الفضل في كل ذلك إلى سندي الأستاذ الدكتور عبد العالي بشير ، والتي لا تكفي أسطر لشكره لما بذله من جهود لإتمام هذا البحث متفحصا خطواته من بدايتها إلى نهايتها ، وقد تجلى ذلك في خضم ما قدمه لي من الملاحظات اللازمة ، والتوجيهات السديدة وكان هذا دأبه مع طلبته ،كما لا يفوتني أن أشكر مسبقا كل أعضاء لجنة المناقشة الذين سيقوّمون هذه الأطروحة. وأرجو من الله التوفيق والسداد.

طهراوي نعيمة

تلمسان يوم: 17-05-2018 م





لمحة تاريخية عن الدّولة الزّيانية

1- قيام دولة بني زيان وأصل تسميتها

2- دور القبائل في بناء الدّولة الزّيانية

3- مراحلها التاريخية (633-962 هـ) (1235- 1555 م)

مدخل:

لمحة تاريخية عن الدولة الزّيانية

إنّ الدولة كالأشخاص لها فترات عمرية متباينة، ودولة الموحدين(*) لم تفلت من هذه القاعدة ، فكانت في طور شبابها قوية مترامية الأطراف ، ولكن مع توالي الأيام أخذ الضعف يدب في مفاصلها وذلك بضعف روح العصبية في صفوفها وتوزيع قواتها على شتى الأقطار وانغماس قوادها ورؤسائها في أنواع الترف فكانت **هزيمة وقعة العقاب** بالأندلس سنة 609 هـ (1212 م)، وتلتها **ثورة بني غانية** ، ثم **وقعة بين الموحدين وبني مريين** سنة 612هـ (1216 م) ، دون أن ننسى تنافس الولاة والأمراء على الرئاسة (1)، حيث أنّ بني عبد الواد الذين كانوا يحكمون تلمسان وولايتها شقوا عصا الطاعة ونبذوا دعوة الموحدين معلنين استقلالهم بالمغرب الأوسط متخذين من تلمسان عاصمة لمملكتهم ،وقد توارث بني عبد الواد عرشها أزيد من ثلاثة قرون إلا أن مملكتهم هذه كانت معرضة دائما للغارات والغزو من طرف جيرانها الحفصيين (**) ملوك افريقية من الناحية الشرقية ، والمرنيين(***)، ملوك المغرب الأقصى من الناحية الغربية.(2)

---

* – دولة الموحدين : قامت على أنقاض دولة المرابطين (454-543 هـ/ 1063-1148 م)،ويعتبر المهدي محمد تومرت الزعيم الروحي والمؤسس لهذه الدولة ، ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي، تح : محمد سعيد العريان،(د، ط)، ص:245،والأنيس المطرب بروض القرطاس – إبن أبي زرع القاسي ،(دار المنصور، الرباط 1972)، ص: 172

1 – تلمسان عبر العصور – محمد بن عمرو الطمار ،(المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984)، ص: 79

** – قامت دولة الحفصيين بتونس خلال الفترة (982 هـ - 1574 م)وهم سلالة من البربر المغاربة من قبيلة هنتانة من مصمودة ،ويرجع نسبهم إلى أبي حفص يحي بن عمر .

*** – ترجع أصول دولة المرينيين التاريخية إلى الطبقة الثانية من جيل قبائل زناتة البربرية فكانوا جماعات واحياء متنقلة بين سلجامة إلى ملوية، ينظر الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية –ابن أبي زرع الفاسي (د ط) ،ص:14.

2 – باقة السوسان في تعريف حاضرة تلمسان – الحاج محمد بن رمضان شاوش ، (ج1 ، ديوان المطبوعات الجامعية)،ص:6

أولا/ قيام دولة بني زيان وأصل تسميتها:

أ–قيام دولة بني زيان :

قبل الحديث عن بدايات ظهور دولة بني **عبد الواد أو بني زيان** وقيامها لا بد لنا من الوقوف عند أبرز سمات الدولة الموحدية ،وبالضبط أهم العوامل التي ساعدت على قيامها ثم سقوطها واضمحلالها.

لقد حافظت الدولة الموحدية على استمرارية وحدتها الترابية الممتدة من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، ومن البحر المتوسط والأندلس شمالا إلى الصحراء جنوبا تحت نظامي إداري مركزي موحدي. [1]

كان الموحدون آنذاك حماة دار السلام في بلاد المغرب والأندلس ، ساهموا في رد العدوان الصليبي على بيت المقدس إلى جانب إخوانهم في الدين من أهل المشرق بجيوشهم البرية وأساطيلهم البحرية إلا انّه في مطلع القرن السّابع الهجري الموافق للثالث عشر ميلادي بدأت الأوضاع داخل الدولة الموحدية تتغير والأمور تتبدل على الساحة المغربية والأندلسية ، بسبب عوامل الضعف والتفكك الذي أصاب الموحدين ،ولاسيما بعد معركة "**العقاب**" المشئومة في الأندلس سنة 609 هـ/1210 م[2].

ثم تلتها أزمة أخرى وهي التي قام بها بنو غانية [*]، فضلا عن الحروب التي كانت تنشب بين بني مرين والموحدين ،وخاصة منها هزيمة سنة 612 هـ/1216 م أي بعد ثلاث سنوات فقط من هزيمة معركة العقاب المشهورة عند الإسبان باسم vas mavas de tolosa (وقعت المعركة في واد يسميه الإسبان **نافاس** قرب **بلدة تولوسا**)، فكانت هذه الهزائم المتتالية للموحدين سببا في ضعفهم وضياع هيبتهم أمام تطلعات القبائل الكبرى وطموحاتها ،فلم تلبث أن ظهرت خلال هذه الظروف الصعبة

[1]– تلمسان في العهد الزياني– عبد العزيز فيلالي ، (ج1، موفم للنشر ، الجزائر 2002)، ص:13

[2]– المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

[*]– بنو غانية ينتمون إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية التي تنحدر منها بنو تاشفين أمراء المربطيين كانوا ولاة على دانية فامتلكوا جزر ، ينظر :السلطة الحفصية– محمد العروسي المطوى،(دار الغربي الإسلامي ، بيروت ، لبنان1986 م–1406 هـ)،ص:17

مواقف جديدة للخليفة المأمون الموحدي (629- 630 هـ/ 1215 – 1221 م)، أذكت نار الأزمة في القصر الموحدي بتجرئه على الإساءة إلى مبادئ المذهب الموحدي ، فتحدى بذلك الشعور شيوخهم وأعيانهم ،ولم تنته هذه المشكلة إلا بخلعه ووفاته سنة 630 هـ /1221 م[1].

وقد ساعد أيضا على انهيار مملكة الموحدين ما انتهت إليه من اضطرابات نتيجة صغر سن السلاطين وانصرافهم عن تطبيق الشريعة الإسلامية، واستئثار ذوي قرباهم بالنفوذ واستقلالهم من أجل مصالحهم الخاصة [2] .

فكل تلك العوامل ساهمت في تأزم أوضاع الدولة الموحدية وانتشار ثورات داخلية ، زادت من ضعف جسم المملكة التي لطالما كانت تتربع على السواحل الشمالية للقارة الإفريقية موحدة ترابا وشعبا.

وقد ظهرت على أنقاض دولة الموحدين – والتي دامت قرن ونصف من الزمن ابتداء من استقرار المهدي بن تومرت ،وحتى مقتل آخر خلفائها أبي دبوس[3] - ثلاث دول مستقلة هي الدولة الحفصية في تونس عام1230م ،وهي فرع للدولة الموحدية وامتداد لها، ثم دولة بني **زيان بني عبد الواد بتلمسان** ونواحيها بالمغرب الأوسط عام 623 هـ/ 1235 م) ،ودولة بني **مرين أو بني عبد الحق في فاس** ،وهي الدولة التي استقلت بالمغرب بعد أن قضت على خلافة الموحدين عام 668 هـ/ 1269 م، ومملكة غرناطة هي آخر ما بقى للمسلمين من ممتلكات في إسبانيا.[4]·والذي نريد إثباته هنا هو أن بني زيان وقعوا بين فكي الرحى ،أي بين بني حفص وبين بني مرين وكلاهما يطلب السلطة الكاملة على الشمال الإفريقي[5].

1- ينظر، تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق ، ص: 10-13-14

2- موسوعة تاريخ المغرب العربي- عبد الفتاح مقلد الغنيمي(ج5،ط1، مكتبة مدبولي ، القاهرة ،1994) ، ص:16

3 - ينظر دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي – عبد الواحد ذنون طه ،(المدار الاسلامي، ط1 2004 م،) ص:324

4- موسوعة تاريخ المغرب العربي ، عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، المرجع السابق، ،ص:15

5- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية –أحمد الشلبي(ط1 ، مكتبة النهضة المصرية) ، ص:199-200

وفي هذا الصدد نتحدث عن أهم دولة من هذه الدويلات التي أعلنت انفصالها عن الدولة الموحدية ،وهي الدولة العبد **الوادية أو الزيانية** حيث كانت محط تنافس وأطماع الدول المجاورة لما تتميز به من موقع استراتيجي خلاب وفي كونها أيضا معبرا للقوافل التجارية .

ب–أصل الدولة الزيانية:

تنتسب الدولة **الزيانية** إلى بني عبد الواد وهم فرع من فروع الطبقة الثانية من زناتة[*]، وأصل تسميتهم عائد إلى جدهم **عابد الوادي** ، رهبانية عرف بها جدهم من ولد شجيح بن واسين بنت يصليتن بن مسرى بن زكريا بن ورسيجبن مادغيس الأبتر ابن بر بن فيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[1]، وكانوا عدة بطون بنو يتكتين ، بنو والو بنو تومرت بنو ورسطف وبنو مسوجا، يضاف إليهم بنو القاسم الذين ينتسب إليهم بنو زيان حاكم الدولة الزيانية. وقيل إنّهم من البربر ومن أبناء زناتة فمن ولد زناتة بنو عبد الواد ،وبنو مرين ، ومغراوة، وغيرهم ولكن منهم من قسمهم إلى أفخاذ أولهما إلى البربر وينسب ثانيها إلى إدريس بن عبد الله بن محمد بن أبي الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ،وقد افتخر يغمراسن بن زيان عندما رفع نسبه إلى إدريس وقد عمل بنوا عبد الواد على تأكيد هذا النسب [2].

ثانيا/ دور القبائل في بناء الدولة الدولة الزيانية :

أ- **دور القبائل البربرية :**

بدأ أبو يحي يغمراسن مهامه كحاكم لإقليم تلمسان ، وجعل قاعدته مدينة تلمسان ومقر إدارته سنة 633 هـ /1236 م، في عهد الخليفة الموحدي عبد الواحد الراشد بن المأمون 630-640 هـ /1232- 1242 ،أرسل إلى هذا الأخير بعثة دبلوماسية تحمل له الطاعة والولاء ،ويذكر يغمراسن بأنه

---

[*] – زناتة من قبائل البتر البربرية ويرجع اصلها إلى شانة أو جانة بن يحي بن صولان بن ورماك بن دره بن زميك بن مادغيس بن بر وكانوا عدو فروع منهم بني مرين بني يفرن بني عبد الواد بطن منهم

[1] – بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد– يحي بن خلدون – (مج 1 ، بير فونطانا الشرقية في الجزائر) ، ص:95

[2]- موسوعة تاريخ المغرب العربي – عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق ، ص:109

سيسا لم من سالمه ويعادي من يعاديه فرد عليه الخليفة بالقبول والرضا ، فوضع بذلك حدا لأطماع القبائل المنافسة له من **زناتة** وأبناء عمومته في المنطقة ،وإذا كان كل من عبد الله بن ياسين المرابطي والمهدي بن تومرت الموحدي قد اعتمدا في قيام دولتها على حركة دينية مذهبية ،فإنّ **يغمراسن** قد اعتمد في بناء دولته على **قبيلة بني عبد الواد بالدرجة الأولى** ، ثم استعان ببعض القبائل المغربية والعربية[1].

فكان منها من كانت تكن الود لبني عبد الواد ، وتؤدي الولاء والطاعة لهم ، وتشارك في تأسيس مجدهم وتوسيع رقعة دولتهم ،وكان بعضها يناصبهم العداء ، ويتآمر ضدهم على الرغم من الروابط الدموية وصلة القرابة التي تربطهم ببعضهم[2].

ومن بين القبائل البربرية عامة والزيانية على وجه الخصوص التي ناصبت العداء وخرجت ضد بني زيان وتحالفت مع أعدائهم بالإطاحة بعرشهم في كثير من الأحيان وخاصة في أوقات الحرج التي أصاب فيها عرش تلمسان بعض الضعف والوهن نذكر:

قبائل مغراوة(*)، وتوجين وصنهاجة (**)،ومن الذين تذبذبوا في مواقعهم بين مؤيد ومناصر وبين مخاذل ومعادي ، بني يفرن(***).

[1]- تلمسان في العهد الزياني- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق ص:16-17

[2]- المرجع نفسه، ص:17.

* -يمتد موطن مغراوة من تلمسان غربا ألى شلف شرقا ،ظهرت منها امارة بني حزر ثم امارة زيري بن عطية وأولاده في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي طلت مغراوة تتميز بالطابع البدوي الريفي وقلة النفوذ والقوة مما جعلها تتعرض لضربات بني عبد الواد من حين لآخر وعلى الرغم من ضعفها وقلة عددها إلا أنّها كانت تناصهم العداء.

**- كانت لهذه القبيلة أراضي بنواحي المدية ،وحول الونشريس وفي فرع آخر يعرف باسم مليكش يستقر بنواحي متيجة وكانت صنهاجة تناو بني عبد الواد وتناصيهم العداء ،وكثيرا ماكانت تخرج ضدهم .

***- بنو يفرن ، وكان موطنها في عهد بني عبد الواد بنواحي تلمسان وتيهرتن تخضع علاقتها بالزيانيين للقوة والضعف .

والظاهر أنّ المصلحة الذاتية لكل قبيلة كانت تطغى على روابط الدّم والعقيدة فالخلاف كان مستمرا ينشب من حين لآخر ، باستثناء بعض المراحل والفترات التي كان فيها بنو عبد الواد أقوياء حينذاك ، تخضع القبائل المنافسة إلى نفوذهم مضطرة ،وتدخل في طاعتهم [1].

أما القبائل التي ناصرت بني عبد الواد ،وآزرتهم ،ووقفت إلى جانبهم سواء أكان هذا التأييد ،عن ولاء خالص ،أم نتيجة ضعفها فهي كثيرة نذكر منها ، بني واسين ، أولاد منديل ،كومية ، بني يلومي ، بني مانو ، بني تغرين ، وهوارة ، وازداجة ، وبني ورنيد ووجديجن ، وغيرها من القبائل التي كان يتشكل منها مجتمع المغرب الأوسط في عهد الدولة العبد الوادية[2].

وكان دور القبائل البربرية يشبه الميزان ذو الكفتين يتأرجح حيثما وجد القوة ،وعندما تفطن بنو زيان لهذا الأمر لم يجدوا سبيلا آخر غير ضمهم للقبائل العربية ، وتقريبهم للبلاط الملكي عن طريق نشر فكرة أنهم من أصل عربي.

ب - **دور القبائل العربية:**

استقرت القبائل العربية مع استقرار الفتح الإسلامي ، في بلاد المغرب ولاسيما منها القبائل اليمنية والمرية (عرب الجنوب وعرب الشمال)، التي كانت تتشكل منها الجيوش الفاتحة في عهد الدولة الأموية بدمشق ، ثم مع الجيوش العباسية التي قدمت لإخماد الثورات وإخضاع الخارجين والمناوئين والحفاظ على نفوذ الخلافة ، كما استقرت قبائل أخرى ببلاد المغرب جاءت من العراق والشام والحجاز ومصر وبلاد فارس، ولقد سكنت هذه القبائل حواضر وبوادي وقرى مختلفة من بلاد المغرب وافريقية ،بعد أن تحصلت على أراضي واقتطاعات إلى جانب اخوانهم في الدين من أهل المنطقة وقدمت طلائع أخرى من قبائل

[1]- تلمسان في العهد الزياني– محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق ،ص:118

[2]- المرجع نفسه ، ص: 18 2

بني هلال، التي اجتاحت ربوع المغرب الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ،واستولت على كثير من الأراضي بالقوة ، وكانت تتعاون مع الدول المتعاقبة حينا وتخرج ضدها أحينا.[1].

وسنحاول التطرق إلى الدّور الذي لعبته بعض هذه القبائل ، في ترسيخ أقدام الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط ،وتوسيع رقعتها واستمرار هيبتها ودورها الإيجابي والسلبي ، في استقرار أوضاعها السياسية والاقتصادية.

لقد لعبت القبائل العربية دورا هاما وبالغا في مساعدة الدولة الزيانية منذ عهد مؤسسها الأول يغمراسن بن زيان ،وكان لها دور لا ينكر منذ الوهلة الأولى لقيام الدولة لاسيما قبائل بني عامر للدولة في مهدها واتخاذ يغمراسن لها كحائط بشري وسد منيع للدفاع عن تلمسان العاصمة وسكانهم بأطرافها وبجوارها ليكونوا عونا لها عند ساعة الخطر وذلك لبسط ونشر اللسان والثقافة العربية بين جموع السكان[2].

فرغم سيطرة الدولة الزيانية على معظم القبائل إلا أنها لم تسلم من انياب جيرانها وهذا ما تحدث عنه الكاتب محمد الطمار قائلا:" وقد تعدد الحروب بينها وبين جيرانها ، فكم من مرة تحالفوا ضدها ! وكم من مرة تحالفت مرين مع القبائل العربية والزناتية لتقضي عليها ، ولكنها عرفت كيف تواجه هذه الأحلاف وهذه المكايد ، فقد تمكن الزيانيون من أن يقاوموا الهجومات الآتية شرقا وغربا..."[3].

ومن هنا يتراء لنا أنّ زمن العصبية القبلية عاد وبثوب جديد – بعدما كان سائدا في العصر الجاهلي — ترتديه قبائل بربرية عربية هدفها الأساسي هو السيطرة على المغرب العربي ككل ، وبناء حضارة تحمل اسمهم ، تاركين بصماتهم في مختلف مجالات الحياة.

ثالثا/مراحلها التاريخية (633–962 هـ) (1235– 1555 م):

[1]– تلمسان في العهد الزياني– محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق، ص: 19

[2]– موسوعة تاريخ المغرب الإسلامي– المرجع السابق ص: 145

[3]– تاريخ الادب الجزائري — محمد الطمار ،(ديوان المطبوعات الجامعية ،ط 2006) ،ص:207،

1- **مرحلة النشأة:** تمتد من سنة 633- 706هـ /1235- 1306 م)، وفيها نشأت الدولة الزيانية في تلمسان[1]، وامتدت على مساحة كبيرة من المغرب الأوسط ، وتبدأ من استسلام يغمراسن[2] الحكم إلى نهاية الحصار المريني الطويل على المدينة 706هـ/1306، وتناوب على حكم تلمسان في هذه المرحلة ثلاث سلاطين أولهم يغمراسن(معناه في اللهجة الزيانية رئيس القوم)[3] مؤسس الدولة الزيانية ومنظما لشؤونها[4]، فقد كان زعيم أل زيان تولى رئاسة القبيلة سنة 633هـ ، وكان أشد أبطالها بأسا وأعظمهم مكانة وانظم إليه " بنو مظهر " ، وبنو راشد " الخارجون من قبل على أخيه فجعل من تلمسان قاعدة إمارة ، وأخذ يوسع رقعتها على حساب الحامية الموحدية الضعيفة ، فطار صيته ووفد عليه من الأندلس جماعة من الأعيان وعلى رأسهم " ابن وضاح " ، فأكرم وفادتهم ، وقرب ابن وضاح وقدمه للشورى ، ووفد عليه أيضا " أبو بكر بن خطاب "،وكان كاتبا بليغا فعينه لكتابته ولاسيما في مخاطبته للخليفة الموحدي وأمراء افريقية[5].

تحدث عنه يحي بن خلدون قائلا: " كان كريما شجاعا فاضلا حليما متواضعا ذا سداد وعفاف ومجد وعلاء ،يؤثر العلماء والصالحيين ويجالسهم كثيرا[6]

2- مرحلة التوسع :

تبدأ من نهاية الحصار المريني لتلمسان سنة 706 هـ /1307م إلى سقوط الدولة الزيانية على يد المرينيين 737هـ/1338 م، وخلال هذه المرحلة حكم تلمسان ثلاث سلاطين هم السلطان محمد أبو زيان الذي استلم الحكم ، بعد وفاة والده ، والسلطان عثمان سنة 1304/703م، واستمر حتى سنة

[1]-تلمسان هي من أشهر المدن الجزائرية ، شيدت في العهد الإسلامي لتكون مقرا للعرب في بلاد المغرب.

[2]- يغمراسن : أول أمير أعلن استقلاله بتلمسان ،وهي بداية لدولة بنو عبد الواد أو الدولة الزيانية ،ونهاية عهد الموحدين بالمغرب الأوسط ،ينظر التاريخ السياسي لدول المغرب الإسلامي –لخضر سيفر،(ج1، الأمل للدراسات)،ص:304

[3]- باقة السوسان في تعريف حاضرة تلمسان- محمد برمضان شاوش ،المرجع السابق ،ص:65

[4]- ينظر تلمسان في العهد الزياني962/233هـ، باسم كامل عبد الرزاق شقدان، (رسالة ماجستير جامعة فلسطين)ص:64

[5]- ينظر ، تلمسان عبر العصور –محمد عمرو الطمار، المرجع السابق ،ص:80

[6]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - يحي بن خلدون، المصدر السابق ص:112

708 / 1308م ،وجاء بعده شقيقه السلطان أبو حمو موسى الأول حتى سنة718 هـ/1318م ،وخلفه ابنه السلطان أبو تشفين عبد الرحمن الأول حتى سنة 737هـ/1337م[1]،الذي اعتبر من أقوى أمراء الدولة ، بعد يغمراسن بن زيان فقد استطاع أن يقمع الثورات التي عرفتها الدولة ،على الخصوص المغراويين الذين كانوا يطمحون في اقامة دولة لهم ،فاستولى على مضاربهم ومد نفوذه على حساب الدولة الحفصية[2].

لم تكن الدولة الزيانية منذ نشأتها مستقرة وثابتة بل كانت تتغير وتتبدل ، بحيث تتقلص حينا وتتسع أحيانا حسب استعداد بني زيان ،وقوتهم العسكرية والاقتصادية واستقرارهم وأمنهم ، ووحدة أمرائهم وانسجام قبائلهم وولائها الصادق ، وقد حاولوا أن يجعلوا من الحدود العربية حدودا ثابتة منذ عميدهم يغمراسن الذي أوصى بذلك. وقد حاول أغلب خلفائها تطبيق الوصية، بينما جعلوا من المنطقة الشرقية وحدودها المتاخمة للدولة الحفصية مجالا للتوسع ،عندما تتيح لهم الفرصة لذلك لا سيما في عهد كل من يغمراسن وأبي حمو الأول وابنه أبي تاشفين الأول فقد توغلت الجيوش الزيانية في عهد هذين العاهلين الأخيرين في الأراضي الحفصية، وضايقت مدن بجاية وقسنطينة وعنابة ، وخنقتها عدة سنوات ،حتى وصلت إلى مدينة تونس عاصمة بني حفص في عهد ؟ أبي تشفين ،ولكنها تراجعت إلى أطراف بجاية وهو أقصى اتساع لها في المنطقة الشرقية[3].

ورغم صعوبة تحديد الحدود الإدارية والسياسية للدولة الزيانية واعتمادا على ما ذكره لنا بعض المؤرخين وما وصفه لنا بعض الجغرافيين ، نستنتج أن حدود الدولة الزيانية بلغت نواحي بجاية وبلاد الزاب من الشرق ، ومن نهر ملوية وتاوريرت ووجدة وتامزيزدكت وفجيج من الغرب والجنوب الغربي، ومن مصب نهر ملوية وهنين ،ودلس وحصن "**بكر**" وتامزيزدكت عند مصب وادي بجاية (وادي الصومام) على ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى ورجلان وغرادية وإقليم توات جنوبا وهي الحدود التي

[1]- تلمسان في العهد الزياني 233 /962 هـ، المرجع السابق ص: 69

[2]- تاريخ الدولة الزيانية ، محمد مختار حساني، (ج1، دار الحضارة ،ط1 ، 2007 م) ، ص:12

[3]- تلمسان في العهد الزياني– عبد الغزيز فيلالي . المرجع السابق، ص:43-44

استمرت عليها الدولة الزيانية في أغلب الأحيان طوال وجودها بالرغم من الغزوات والهجمات التي قامت بها من الدولة المرينية والدولة الحفصية ،مرات عديدة على الأراضي الزيانية وعلى عاصمتها مدينة تلمسان[1].

3– مرحلة النهضة : تنقسم هذه المرحلة إلى قسمين هما :

الفترة الأولى: احياء الدولة الزيانية 749هـ/1348م ،على يد الأميرين الشقيقين أبي سعيد وأبي ثابت بعد هزيمة السلطان أبي الحسن المريني [2]، وتقسيم الحكم بينهما فكانت الخطبة والسكة توحيد القبائل ،وجعلها خاضعة للدولة.[3]يقول ابن خلدون :" وساهم السلطان أبو سعيد عثمان أخاه أبا ثابت الزعيم في سلطانه وشركه في أمره ، وأردفه في ملكه ، وجعل إليه أمر الحرب والضواحي كلها "[4].

إن الهدف الرئيسي للأخوين أبي سعيد وأبي ثابت ،هو المحافظة على النجاح الذي حققه أجدادهم من خلال التوسع في بلاد المغرب الإسلامي ، وصد هجمات الجارتان الحفصية والمرينية اللتان حاولتا زرع نار الحقد ، والكره في نفوس القبائل، وخاصة القبائل البربرية .

الفترة الثانية : وفيه تم إحياء الدولة الزيانية 760هـ/1359م، على يد الأمير أبو حمو موسى الثاني بمساعدة الدولة الحفصية والقبائل العربية والبربرية في المغرب الأدنى وشرق المغرب الأوسط[5]، حيث استطاع هذا السلطان أن يغتنم فرصة الاضطرابات ، التي عرفتها الدولة المرينية في عهد سلطانها أبي عنان ، فعاد من منفاه إلى تلمسان ، بمساعدة بني هلال الذين زودوه بقوة عسكرية مكنته من الدخول إلى تلمسان بعد القضاء على الحامية المرينية ، وبذلك أعاد مجد الدولة ،[6] فدام ملكه إحدى وثلاثين سنة ،

---

[1]–. تلمسان في العهد الزياني– عبد الغزيز فيلالي . المرجع السابق، ص:43-44

[2]– تلمسان في العهد الزياني 233 -962 – باسم كامل عبد الرزاق شقدان ، المرجع السابق ص:72.

[3] – تاريخ الدولة الزيانية– محمد مختار حساني ، المرجع السابق ص:13.

[4]– تاريخ ابن خلدون (العبر) – ابن خلدون ، (ج2 ، بيت الأفكار الدولية)، ص:1977

[5]– تلمسان في العهد الزياني 233-962هـ- باسم كامل عبد الرزاق شقدان ، المرجع السابق ، ص:73.

[6]– تاريخ الدولة الزيانية – محمد مختار حساني، المرجع السابق ، ص:14.

وقد عمل أثناء تلك المدة على توطيد الملك لأبنائه وسلك مع بني مرين مسلكا غير الذي سلكه أسلافه معه فإنه كان إذا حوصر أجفل أمامهم إلى الصحراء وتحصن بها ثم شاغبهم في عقر ديارهم ،إلى أن رحلوا لأن بني مرين لم ينقطع لهم أمل في الاستيلاء على تلمسان [1].

وقد تميز هذا العصر بما يلي:

أولا : استمرار ثورات القبائل البربرية ، على الدولة الزيانية ،وزيادة نفوذ القبائل العربية التي حصلت منه على اقطاعيات كبيرة مكنتها من السيطرة على أجزاء كبيرة من أراضي التُلُولِ ،ومن أبرز هذه القبائل بنو عامر، وسويد ، وحصين وبنو يزيد وحميان وغيرهم ولكنها لم تستمر في مولاتهم له بل انظموا إلى أعدائه من المرينيين والحفصيين وأمراء الدولة الثائرين عليه[2].

ثانيا: القيام بحركة توسعية على حساب الدولة الحفصية أبو حمو موسى الثاني الاستيلاء على بجاية ،إلا أنّ كثرة الثوار وضعف القيادة العسكرية ،أدى إلى هزيمته ببجاية[3].

ثالثا: كثرة الخطر المريني على دولة أبي حمو موسى الثاني،مما دفعه إلى ترك تلمسان والتوجه نحو الواحات الصحراوية، فرارا من الجيش المريني.[4] فكانت الغزوة الأولى سنة760هـ/1359م،غادر خلالها السلطان عاصمته لمدة خمسة وعشرين يوما،وكانت الثانية في سنة761هـ/1360م،أخرجه فيها السلطان المريني أبو سالم 760-762هـ/1359-1361م لمدة أربعين يوما، وكانت الثالثة وهي أطولها زمنا بين سنتين772هـ/1371م،774-1373م في عهد عبد العزيز المريني 768/774هـ-1366/1372، الذي تمكن من احتلال مدينة تلمسان أكثر من سنتين والهيمنة على المغرب الأوسط،وقد أصاب أبو حمو موسى ضيق شديد أثناء اقامته في الصحراء بين أحلافه بعيدا عن رعيته وعاصمته،أما الغزوة الرابعة

[1]- ينظر ، باقة السوسان في تعريف حاضرة تلمسان- المرجع السابق ، ص:88

[2]- تاريخ الدولة الزيانية – محمد مختار حساني ، المرجع السابق، ص:14

[3]- ينظر ، المرجع نفسه ، ص:14- 15

[4]- المرجع نفسه ، ص: 15

فكانت سنة 784هـ/1383م ،خرج فيها السلطان أبو حمو موسى الثاني ،وحاشيته ، وأهله ، لاجئا إلى الصحراء والاحتماء بفيافيها إلى سنة786هـ/1385 م[1].

رابعا: خروج امراء الدولة عليه ،ومن هؤلاء أبو زيان القبي ،وأبو تاشفين الثاني ، الذي تعاون مع القبائل العربية ثم تدخلت القوات المرينية ،بقيادة زيان الوطاسي ،فسقط في المعركة عند مواجهته للجيوش المرينية[2].

5- مرحلة التدهور: في الوقت الذي استطاع أبو حمو موسى الثاني ، أن يصمد أمام الخصوم والأعداء وأن يبني حضارة ومدنية رفيعة المستوى لمدينة تلمسان فشل في تربية ابنه وولي عهده أبي تاشفين الذي ولد" **بندرومه**" [3] أيام كان أبوه وجده بها عام (752 هـ/1351 م)[4]. فقد سقط في كمين أو مؤامرة دبرها له أعداءه من بني مرين وحاكوا خيوطها في تلمسان ، بل في بلاطه أكثر تدقيقا ، فقد قاموا بتوسيع الخلاف القائم بينه وبين ولي عهده أبي تشفين الثاني ،وبعض مساعديه وأخوته، وغذوا هذا الخلاف بتشجيع أبي تانشفين والنهوض ضد والده وعندما تطور الخلاف واشتد سارع إلى اعداء والده يحتمي بهم ،ويطلب المساعدة منهم ، فوجد عندهم التعضيد الكافي والمساعدة القوية ، لأنها فرصة ثمينة طالما انتظروها للإحاطة بعرش أبي حمو الثاني ودولته القوية وتحقيق الهيمنة المرينية على المغرب الأوسط بساعد زيانية بعد أن عجز المرينيون الاستلاء عليها بقوتهم[5].

كان الصراع على أشده بين الزيانين والمرينين خاصة، لجوارها في الموطن والملك، ومنافستهما على الاستقلال برئاسة زناتة. ولتحقيق ذلك راحت كل واحدة منهما تبذل جهودها في مختلف المجالات، مستغلة كل الطرق والوسائل، فكان بذلك تاريخهما السياسي منذ نشأتهما إلى غاية سقوطهما حافل

---

[1]- ينظر تلمسان في العهد الزياني - عبد الغزيز فيلالي، المرجع السابق ص:56

[2]- تاريخ الدولة الزيانية- محمد مختار حساني، المرجع السابق ص: 15

[3]- تلمسان في العهد الزياني- عبد العزيز فيلالي – المرجع السابق ،ص:59

[4]- تلمسان عبر العصور – محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق ،ص209

[5]- تلمسان في العهد الزياني- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص:59

بالأحداث التاريخية التي تراوحت بين الحرب والسلم، والمعاهدات ونقضها والمؤامرات والخيانات والصراعات الداخلية في الأسرة المالكة حول العرش، والحصارات وغيرهما.

كل هذا يجعلنا نعترف بأن الدولة الزيانية وقَعت في سجلها التاريخي انتصارات عديدة لم تحققها أي دولة من دول المغرب الإسلامي من قبل ، وهذا كله راجع لعاملين هامين هما :

العامل الأول: خبرة السلاطين بأمور السياسة والحكم .

العامل الثاني: الدور الكبير الذي لعبته القبائل العربية والبربرية عن طريق اتحادها تحت حكم واحد.

ولهذا نقول إنّ الحالة التي آلت إليها هذه الدولة كان نتيجة كسر قوانين الحكم ،الذي كان جدارا منيعا في وجه الأعداء بظهور حكام لهم نفس شغوفة بحب السلطة فقط ، غير مباليين بأمور رعياها ، تاركين حكم البلاد تحت أياد خفية .

وكل تلك الخلافات والصراعات السياسية أثرت ايجابا على الملامح الحضارية في عهد هؤلاء الحكام ،عن طريق بنائهم للأسوار والحصون لصد هجمات أعدائهم وتنافسهم في بناء دور العلم وتنظيم المدن وزخرفتها.،وخير مثال على ذلك المنشآت الدينية والتعليمية والمدنية والعسكرية التي خلفها بنو مرين في تلمسان والتي خلدت وجودهم فيها ـحيث كانت شواهد على اهتمام أمراء مرين بالعمارة والإنشاء من مساجد وقصور وغيرها ، كلها تحمل معاني الإبداع وروح الابتكار الموجودة لدى الفنان المريني ،لما نلمسه في العمائر من إحساس مرهف ورقة في العمل ، كما يعطينا فكرة واضحة عن تلك المنافسة الفكرية والثقافية التي لازمت الجارتين ،والتي كانت الوجه الآخر لذلك الصراع السياسي الذي كان دائرا بينهما ،والذي لم يكن أمرا سلبيا كله بل يحمل في طياته الكثير من المنافع ،ولعلها تلك الآثار الخالدة التي حظيت بها مدينة تلمسان، والتي تلتها حركة علمية وثقافية مشهورة لذلك العهد والتي مهدت لها الدولة الزيانية من قبل وساهمت بشكل كبير في تقوية الروابط والعلاقات الثقافية بين الزيانين والمريين ،حيث أن هذه المؤسسات الدينية والتعليمية احتوت كبار العلماء والفقهاء والأدباء ، الذين تتلمذوا فيها

وتخرجوا منها ، حاملين أكبر الإجازات العلمية كما كانت تستقطب طلبة من مختلف البقاع خاصة من المغرب الأقصى، والذين ساهموا في نشر العلوم بألوانها نتيجة لذلك الاحتكاك والتقارب بين علماء بني زيان وبني مرين ،وتبادل العلوم والمصنفات والمناظرات التي كانت تقام في هذه المؤسسات التعليمية.

الفصل الأول:

الأدب والحضارة العربية الإسلامية

المبحث الأول: ماهية الأدب

المبحث الثاني: أنواع الأدب

المبحث الثالث: الحضارة والحضارة العربية الإسلامية.

المبحث الرابع: علاقة الأدب بالحضارة

الفصل الأول؛

الأدب والحضارة (الحضارة العربية الإسلامية)

يقال إنّ أقوى الحضارات وأرقاها وأطولها عمرا هي التي أساسها عقل الإنسان وما ينتجه من فن إلى جانب الروح التي بها يقوى ذلك العقل وينمو، فالإنسان صانع الحضارة إما بيده أو فكره أو بشعوره فكلها مصادر يستلهم منها الفن طاقته فيسهر الإنسان على الارتقاء بفنه لأعلى المراتب فيبتكر ويطور مختلف جوانبه وخاصة جانب الأدب.

وسنحاول في هذا الفصل إماطة اللثام عن ماهية كل من الأدب والحضارة لكون تزامن وجود بعض الحضارات بوجود أدب خاص بها ،وهذا ما جعلنا نتقصى النظر في حقيقة طبيعة العلاقة بين الادب والحضارة وازاحة الغموض عنها بالإجابة على مجموعة من التساؤلات التالية : **ما المقصود بكلمة أدب وما المقصود بكلمة حضارة ؟، وفيما تكمن العلاقة بين الأدب والحضارة ؟ ،وهل هناك حضارة بدون أدب؟.**

المبحث الأول :

ماهية الأدب

أولا–الأدب لغة :

عرّفه **ابن منظور** بقوله: هو الذي يتأدّبُ به الأديب من النّاس سمّي أدبا لأنه يأدُبُ النّاس إلى المحَامِد ،وينهاهم عن المقابح، وأصل الأدْبِ الدعاء [1].

قال **أبو زيد** :أدُبَ الرجل يَأدُبُ أدبًا ، فهو أدِيبٌ

أما صاحب قاموس المحيط ، عرفه كما يلي: الأدب محركة :الظرف وحسن التناول ،أدُبَ ،كحسن أدبًا فهو أدِيبٌ ،جمع أدباء وأدّبَهُ: علمه ،فتأدَب ،واسْتَأدَبَ [2].

وهناك من له رأيا آخر في اشتقاق كلمة أدب كالباحث نلينوNALLINO [*] ،فهو يشتقها من ((دَأب)) بمعنى العادة ، ويرى أن هذه الكلمة لم تشتق من المفرد ، وإنما اشتقت من الجمع ، فقد جمعت ((دأب))على ((أدآب)) ، ثم قلبت فقيل ((آداب)) ، كما جمعت ((بئر)) على ((أبآر)) و ((أرآم)) ثم قلبت فقيل ((آبار)) و ((آرام))[3].

---

[1]– لسان العرب – ابن منظور (مج 1، دار الكتب العلمية) ، ص: 200

[2]– قاموس المحيط – الفيروز آبادي، (إحياء التراث العربي، لبنان ، بيروت ،ط2 ،2003م)، ص:68

*– وهو كرلو ألفونسو نلينو مستشرق ايطالي عظيم ولد 1872 م، درس اللغة العربية وولع بها في سن مبكر ، من مؤلفاته اللغة العربية في لهجتها المصرية بعد دراسته في مصر توفي سنة 1938. ينظر : موسوعة المستشرقين – عبد الرحمن بدوي ،(دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان)، ص: 583.

[3] –في الأدب الجاهلي – طه حسين ،(دار المعارف بمصر، القاهرة ، ط2) ،ص: 23

وقال الأستاذ نلينو : وكثر استعمال « الآداب » جمعا « للدأب» حتى نسى العرب أصل هذا الجمع وما كان فيه من قلب ، وخيل إليهم أنه جمع لا قلب فيه ، فأخذوا منه مفرده أدبا لا دأبا ، وجرى استعمال هذه الكلمة بمعنى العادة وانتقل من هذا المعنى الطبيعي القديم إلى معانيه الأخرى المختلفة .[1].

والقول كثير في أن لفظ ' الأدب " قد اشتق من « الأدب» بمعنى الدعوة إلى الولائم ،والقول كثير أيضا فيما دلت عليه هذه الكلمة من المعاني التي اختلفت باختلاف العصور[2].

ومن تتبع تاريخ اللفظة عصرا بعد عصر وجد أن الجاهليين استعملوها بمعنى الخطة الأخلاقية ، ولاسيما تلك التي سار عليها السلف الصالح ، قال الأعشى ميمون :"جروا على أدب مني بلا نزق"، واستعملوها بمعنى الأخلاق الحسنة كما يتضح في الحديث المشهور:" أدبني ربي فأحسن تأديبي " وبعد ظهور الإسلام إلى أواخر العهد الأموي ظل للأدب هذا المجال المعرفي . فلما بلغ العرب عهدهم الذهبي في بغداد وازداد عمرانهم بالحضارة ، والعلم تطور لفظ الأدب كما تطور غيره ، فتولد من معانيه الأصلية معان أخرى اقتضتها الحال[3].

ثانيا- الأدب اصطلاحا:

للأدب تعريفات عديدة أشهرها:

الأدب هو صياغة فنية لتجربة بشرية، و هو تعبير عن الحياة ووسيلته اللغة، وهو نقد للحياة.[4]
وهذا ما أكده أحمد هيكل في قوله : " ليس الأدب مجرد كلام جميل ، مختار اللفظ ، محكم العبارة بليغ الصياغة ،وإنما الأدب تعبير جميل بالكلمات عن تجربة صادقة قادرة على التجاوز إلى الآخرين ،والمراد

---

[1]- في الأدب الجاهلي – طه حسين ، المرجع السابق، ص:23

[2]- المرجع نفسه ،ص: 22

[3]- الجامع في تاريخ الادب العربي – حنا الفاخوري،(دار الجيل ، بيروت – لبنان،ط2 ، 1986)، ص:13

[4]- المدارس والأنواع الادبية – سامي هشام ، (منشورات المكتبة العصرية ،بيروت 1979)،ص: 08-10.

بالتجربة ما يجده الأديب في نفسه عاطفة جياشة ينهض بها قلبه أو قضية حية يزدحم بها وجدانه..." (1)

و يقول **محمد محمد حسين** : " الأدب من بين سائر الفنون ،هو أبرزها وأسماها إنسانية لأنه هو الفن الناطق ،وقديما ميز الفلاسفة الإنسان من سائر الحيوان بأنه حيوان ناطق والواقع أن اللغة التي مادة الأدب ووسيلة إلى التغبير وعاء لكل ما في المجتمع من أنماط فكرية وخلقية وجمالية فهي صدى البيئة وسجل لما تتضمنه من قيم عليا ومن مثل (2) .

ويعرفه **أيضا توفيق الحكيم**: " الأدب هو الكاشف الحافظ للقيم الثابتة في الإنسان، والأمة الحاملة الناقل لمفاتيح الوعي في شخصية الأمة والإنسان... تلك الشخصية التي تتصل فيها حلقات الماضي والحاضر والمستقبل "(3).

وقد استهل الكاتب **علي بوملجم** حديثه في كتابه (في الأدب وفنونه) بقوله:" الأدب هو الكلام الفني الجميل الذي يصور الفكر والعاطفة...إنه كلام وبه يمتاز عن سائر الفنون التي تعتمد مواد أخرى غير اللغة، كالموسيقى التي مادتها الأصوات ،والعبارة التي تقوم بالحجر ،والتصوير الذي ينسج من ألوان ،والرقص الذي ينهض بالحركات ...هذا الكلام ينبغي أن يكون فنيا جميلا ،وبذا يختلف الأدب عن العلم الذي يتخذ من اللغة أداة للتعبير ولكنها لغة جافة ،دقيقة ، تقنية ، تقريرية ،لا يتوخى فيها الايحاء ورونق الأداء ،أما الأدب فلا مكان فيه لعرض الأفكار بشكل تقريري جامد ، وإذا تصور تصويرا رائعا بفضل ما يسبغه عليها التعبير من تشابيه وأشكال وألوان ،وبما يكسوها من مجازات وكنايات وما يرصعها به من درر البديع وحليه...." (4).

---

[1]- - في الأدب واللغة – أحمد هيكل ، (الأعمال الفكرية ، د، ط)، ص: 10

[2]- الإسلام والحضارة الغربية – محمد محمد حسين ، ،(دار الفرقان) ص:226

[3]- فن الأدب – توفيق الحكيم –(مكتبة مصر) ،ص :1

[4]- ينظر في الأدب وفنونه- علي بوملحم ،(المطبعة المصرية للطباعة والنشر)، ص:1.

ثم يردف كلامه بقوله: "الأدب خيال مجنح يحلق بالقارئ في أجواء بعيدة لا تحد ويبتعد عن الواقع الذي يتخبط في معاركه بينما يظل العلم ملتصقا بأديم الواقع المحسوس لا يقوى على الانسلاخ عنه[1].

فالأدب إذن كما قال **محمد حسين**: " هو صدى للبيئة، وسجل لحالات الأديب ومحيطه"[2] .

وبمفهوم آخر _ كما عرفه الأوروبيون _ هو كل ما يثير فينا بفضل خصائص صياغته إحساسات جمالية ، أو انفعالات عاطفية أو هما معا ،ومن الواضح أن هذا التعريف يختلف عن التعاريف العربية التي تقول مثلا :إن الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف ،ونقصد بخصائص الصياغة : الشكل الفني ، كأن يكون ملحمة أو قصة أو مقالة أو قصيدة ،ثم طريقة الأداء اللغوي ،فالكلام العادي لا يعتبر أدبا ، لأنه ليس له خصائص الأسلوب الأدبي اللغوي ، ونقصد بالإحساسات الجمالية اعتبار الأدب فنا جميلا ، فإذا فقد القيم الجمالية اعتبار الأدب فنا جميلا ،فإذا فقد القيم الجمالية فقد كونه أدبا ،أما الانفعالات العاطفية فلابد أن يتضمن الأدب حرارة العاطفة وإلا انقلب إلى حقائق علمية أو رياضية تخرجه عن كونه أدبا ،وحتى عندما يكون العمل الأدبي قائما على الفكر يجب أن يتضمن الحرارة القادرة على أن تحرك وجدان الإنسان [3].

أما **رينيه ويليك***وأوستن وارين** فقد قالا أن :" الأدب مؤسسة اجتماعية أداته اللغة ، وهي من خلق المجتمع....كما أن للأدب وظيفة اجتماعية أو فائدة لا يمكن ان تكون فردية صرفا "[4].

1- في الأدب وفنونه- علي بوملحم ، المرجع السابق، ص:1

2- الاسلام والحضارة الغربية ،محمد محمد حسين ، المرجع السابق ،ص:231

3- الأدب وفنونه – محمد مندور – (نهضة مصر ، ط 5. 2006 م) ، ص: 4

*-أستاذ الأدب المقارن في جامعة بيل ولد في فينا عام 1903 لأبويين تشيكيين ،نال الدكتوراه في الفلسفة عام 1926م من مؤلفاته " مفهوم النقد" نظرية الأدب – ويليك وأوستن وارين– (تج محي الدين صبحي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2 ، 1987، بيروت لبنان)،ص:05

**-أستاذ للغة الانجليزية شارك في كل من المجالات الأدبية التالية : مجلة نواكلند ، الأدب الأمريكي ، نظرية الأدب –رينيه لوليك وأوستن وارين، المرجع السابق ، ص:05

4- نظرية الأدب – رينيه ويليك وأوستن وارين، المرجع السابق ، ص:119.

نستنتج من هذه التعاريف أن الأدب هو مرآة عاكسة ، تنقل لنا جوانب متعددة من جوانب حياة الإنسان وعلاقته بمجتمعه نقلا يُظهِر فيه الأديب ابداعه ونبوغه .وكل ما يجيش به وجدانه من أحاسيس ومشاعر.

وهناك من قسم تعريف الأدب إلى قسمين :

1- **التعريف العام**: يطلق أصحاب هذا التعريف كلمة " الأدب " على جميع الظواهر الفكرية التي شغلت الناس وتركت آثارا مكتوبة، ويَعُدُّونَ الأدب وثيقة تخبر عن الماضي في رقيهم وانحطاطهم، وتقدمهم وتقهقرهم[1] .

2-التعريف الخاص: تطلق كلمة "الأدب" هنا على بعض النصوص المأثورة دون بعض فأدب اللغة " ما أثر عن شعرائها ، وكتابها من بدائع القول المشتمل على تصور الأخيلة الدقيقة وتصور المعاني الرقيقة ، وما يهذب النفس ويرققها ويثقف اللسان ، والأدب " هو هذه الآثار التي يحدثها صاحبها لا يريد بها إلا الجمال الفني في نفسه، لا يريد بها إلا شعورا أو إحساسا أحسه أو خطرا خطر له في لفظ يلائمه رقة ولينا وعذوبة وروعة وعنف وخشونة ،هو هذه الآثار التي تصدر عن صاحبها كما يصدر التغريد عن الطائر الغرد [2].

[1]- في تأريخ الأدب – مفاهيم و مناهج ، حسين الواد (المؤسسة العربية للنشر والتوزيع ، بيروت ط2 ،1993) ،ص:53.
[2]- المرجع نفسه ، ص: 56

المبحث الثاني:

أنــــواع الأدب

من طبيعة المصطلحات التفرع والانقسام ،وقد أخذ الأدب باعتباره مصطلح بمفهومه في جميع لغات العالم قديمها وحديثها هذه الخاصية فكان أن تفرع عنه فنين كبيرين يتميز كل واحد عن الأخر بمجموعة من السمات نحاول استحضارهما على الشكل التالي:

أولا- الشعر:

أ – الشعر لغة:

جاء معنى هذه الكلمة في لسان العرب على أنها القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها ،والجمع أشعار وقائله شاعر لأنه يشعر ما لا يشعر غيره، أي يعلم، وشَعرَ الرجل يَشْعرُ شِعرا وشعرا وشعر، وقيل شَعر أي قال الشِعرَ وشَعَرَ أجاد الشِعْرَ والجمع شُعَراءٌ، والمتشَاعِر الذي يتعاطى قول الشِعر[1]

يقول صاحب القاموس(والشِعر غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية)[2] ، يتميز الشعر عن منظوم الكلام بوجود مقطع موسيقي في آخر كل بيت، زاده جمالا ورونقا بناء القصيدة على روي واحد.

ب- الشعر اصطلاحا:

هو من الفنون الجميلة التي يسميها العرب الآداب الرفيعة ،وهي الحفر والموسيقى والشعر، ومرجعها إلى تصوير جمال الطبيعة فالحفر يصورها بارزة، والرسم يصورها مسطحة بالأشكال والخطوط

[1]- لسان العرب – ابن منظور (مج2، دار الفكر للطباعة والنشر ، ط1، 1429- 1428، بيروت – لبنان)، فصل الشين، مادة شعر، ص:1723

[2]- قاموس المحيط ، المصدر السابق ، فصل الشين ، مادة شعر

والألوان ، والشعر يصورها بالخيال ويعبر عن اعجابنا بها وارتياحنا إليها فهو لغة النفس ، أو هو صورة ظاهرة لحقائق غير ظاهرة ،والموسيقى كالشعر ، فهو يعبر عن جمال الطبيعة بالألفاظ ،وهي تعبر عنه بالأنغام والألحان وكلاهما في الأصل شيء واحد ... وهو الكلام الموزون المقفى المعبر عن الأخيلة البديعة والصور المؤثرة البديعة ، وقد تكون نثرا كما يكون نظما والشعر أقدم الآثار الأدبية عهدا لعلاقته بالشعور وصلته بالطبع وعدم احتياجه إلى الرقى في العقل ،أو تعمق في العلم أو تقدم في المدنية[1].

يقول **جرجي زيدان** : "علماء العروض من العرب يريدون بالشعر الكلام المقفى الموزون ، فيحصرون حدوده بالألفاظ ،وهو تعريف للنظم لا للشعر ،...وبينهما فرق كبير ، إذ قد يكون الرجل شاعرا ولا يحسن النظم ،وقد يكون ناظما وليس في نظمه شعر ، وإن كان الوزن والقافية يزيدان الشعر حلاوة ووقعا في النفس ، فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر ويجوز سبكه في النثر "[2].

يعرفه الكاتب **سامي هاشم** :" هو الكلام المقيد بقيود الترتيب والتقسيم والوزن والخيال ، الذي يجعل الفكرة ألوانا وأصباغا ويهدئ القارئ ، والسامع بموسيقى لها وقعها في النفس "[3] .

وهناك من اعتبر الشعر، مجمل عواطف النفس ونزواتها ،يبدو تارة زفرات حرة يصعدها صدر هائج وطورا ابتسامات عذبة تعلوا ثغرا جميلا ، وقد اتسعت دائرته بعض الأحيان فأصبح يعبر عن عواطف أكثر من نفس بل ربما عبر عن عواطف أمة بأسرها ، والشاعر الذي يشعر ويحس بعواطف الشخصية أو بعواطف غيره من حب وبغض ، وفرح وحزن فيراها منعكسة في مرآة نفسه ، فيبرزها إلى الخارج بطريقة تجعلكم شاعريين معه بكل بتلك العواطف [4].

---

[1]- تاريخ الأدب العربي – أحمد حسين الزيات (، دار نهضة مصر - الفجالة القاهرة)، ص:.28

[2]- تاريخ آداب اللغة العربية- جرجي زيدان (ج 1، دار الهلال)، ص: 51.

[3]- المدارس والانواع الادبية - سامي هاشم ، (منشورات المكتبة العصرية ،صيدا بيروت)، ص:16

[4]- الشعر الجاهلي – نشأته – فنونه – صفاته ، فؤاد ابرام البستاني ،بيروت ، ص:4

أ- **أقسامه:**

اعتمد النقاد ومؤرخو الأدب على التقسيم الغربي لأنواع الشعر فقسموه إلى شعر غنائي، و قصصي، و تمثيلي.

1-**الشعر الغنائي أو الوجداني:**

وهو أن يستمد الشاعر من طبعه وينقل عن قلبه ويعبر عن شعوره.[1] وهو مرتبط في الأصل بالغناء، والموسيقى والعاطفة، والشعر الغنائي هو كل شعر يعبر عن خلجات النفس بواسطة الموسيقى والصورة التي تنقل إلى القارئ أحاسيس الشاعر[2].

ويعرفه **هردر الألماني** (1744-1830 م) :" إن الشعر الغنائي هو التعبير الكامل عن الخلجات النفسية في أهذب لغة صوتية " [3].

فالشعر الغنائي هو الذي يتناول المدح والهجاء، والحكمة ، والمثل ،والفخر ،والغزل ، وأطلقوا عليه اسم" **lyrique** " من كلمة " **lyre** " الآلة الموسيقية التي كان يغنى وينشد بمصاحبتها ،كما كان ينشده الجاهلي حدوا وجزرا [4] .

[1]- المدارس والأنواع الأدبية- سامي هشام ، المرجع السابق ، ص:30

[2]- المرجع نفسه ، ص:53

[3]- المرجع نفسه، ص:30.

[4]- مراحل تطور النثر العربي في نماذجه – علي شلق ، (دار العلم للملايين 1992)، المرجع السابق ،ص:67

2–الشعر القصصي:

وهو نظم الوقائع الحربية والمفاخر القومية على شكل قصة كالإلياذة[1] ، و يعرفه علي شلق بقوله : " وهو الشعر القائم على تمجيد البطولات ، وانتصار أمة على أمة وهو قسمان :ملحمي طبيعي ، وملحمي صناعي"[2].

3–الشعر التمثيلي:

وهو أن يعمد الشاعر إلى واقعة فيتصورها الأشخاص الذين جرت على أيديهم وينطق كلا بما يناسبه من الأقوال وينسب إليهم ما يلائمه من الأفعال.[3]وهو القائم على الحوار ، والتمثيل ، وخلق الشخصيات والأجواء ،والعقد ، والحلول ، وعدوه أعلى أنواع الشعر ، والفنون قاطبة وقسموه إلى كوميدي ،وتراجيدي ، ودرامي[4].

يقول جرجي زيدان: " ثم رأوا أن الكلام وحده لا يكفي لتحريك العواطف وتمثيل الفضائل فعمدوا إلى تمثيلها للعيان بحوادث اخترعوها يؤدي سردها أو تمثيلها إلى مغزى ما يريدون ، فبدلا من أن يمدح شاعرهم الشجاعة مثلا ويحببها إلى الأبطال ببلاغة البيان الشعري ،عمدوا إلى نظم قصة تظهر فضل هذه المنقبة ، يمثلونها على مشهد من الناس لتكون أوقع في النفس ، وأثبت في الذهن ويسموا هذا النوع من الشعر (الشعر التمثيلي) "[5].

ثانيا–النثر:

1–المعنى اللغوي:

1– المدارس والأنواع الأدبية – سامي هشام ، المرجع السابق ص: 30

2 – ينظر مراحل تطور النثر العربي في نماذجه – علي شلق ، المرجع السابق ، ص: 76 -

3– المدارس والأنواع الأدبية – سامي هشام ، المرجع السابق ،ص :30-31

4– مراحل نطور النثر العربي في نماذجه – علي شلق– المرجع السابق، ص: 67

5– تاريخ آداب اللغة العربية – جرجي زيدان، (مر : شوقي ضيف ،ج1، دار الهلال)، ص: 52- 53

إذا اطلعنا على معاني هذه اللفظة في المعاجم اللغوية يتضح لنا أنها مشتقة من أصل مادي حسي هو النثرة ، أي الخيشوم وما ولاه ،أو الفرجة بين الشاربين حيال وترة الانف ،أو الدرع الواسعة...، ونثر أنفه أخرج ما فيه من الأذى ونثرت النخلة، أخرجت ما في بطنها [1].

والنثر مصدر من نثَرَ أي فرق، وهو اسم جنس معنوي بمعنى المنثور.

يقول صاحب أساس البلاغة (ما أصبت من نثر فلان شيئا وهو اسم المنثور، من السُكّر ونحوه ، كالنشر بمعنى المنشور)[2].

والنثار بمعنى النثر أيضا ،وهو الفتات المتناثر من المائدة

يقول صاحب القاموس (نثر الشيء بنثره نثرا ونثارا رماه متفرقا ،كنثره فانتثر، وتنثر ،والنثارة بالضم والنثر بالفتح ما تناثر منه ،أو الأولى تخص بما ينتثر من المائدة فيوكل للثواب) [3].

فلفظة نثر في المعنى اللغوي تأخذ صفة الشيء الواسع والممتد لأنها تعني الشيء المبعثر المتفرق وكثير العدد أو الكثرة في الكلام.

يقال نثر الولد، أكثره ،ثم تأخذ هذه اللفظة بعد ذلك دلالة معنوية نثر الكلام أكثره تشبيها له بنثر الولد ،والرجل النثر الكثير الكلام [4].

يقول صاحب أساس البلاغة (ورجل نثر مهذار، ومذياع للأسرار) .

قال نضر بن سيار:

---

[1]- لسان العرب ، المصدر السابق ، مج 2، حرف الراء ، فصل النون، والقاموس المحيط فصل النون ،مادة نثر.، ص: 1580

[2]- أساس البلاغة – الزمخشري ، ،(تح: مريد نعيم ،وشوقي المعري ،مكتبة لبنان ، ناشيرون – بيروت ، لبنان ،ط1، 1998)، مادة نثر.، باب النون مع الثاء ،ص: 808

[3]- القاموس المحيط ، المصدر السابق ، فصل النون ، مادة نثر.،ص:1580

[4]- المصدر نفسه ،الصفحة نفسها.

لقد علم الأقوام مني تحلمي إذا النثر الثرثار قال فأهجرا [1]

والنثر على هذا النحو ،هو الكلام الكثير المتفرق ،تشبيها له بنثر المائدة ،ونثر الولد ،وتدخل هذه اللفظة بيئة الثقافة الأدبية بهذا المعنى ،أي أنها الكلام الكثير المتفرق ،ثم تقتصر على الكلام الأدبي الذي يسمو على الكلام العادي تعبيرا ومعنى ،ويستعملها النقاد الادباء بهذا المفهوم على أنها ذلك الكلام غير المنظوم ، الذي يقابل الكلام المنظوم يقول صاحب نقد النثر : " واعلم ان سائر العبارة في كلام العرب ،إما ان تكون منظوما ،وإما أنه يكون منثورا والمنظوم هو الشعر والمنثور هو الكلام " [2].

ب- المعنى الاصطلاحي:

النثر أسبق أنواع الكلام في الوجود لقرب تناوله، وعدم تقيده، وضرورة استعماله

يعرفه طه حسين قائلا: " هو كل كلام لا ينظمه وزن ولا قافية " [3].

وقد شبهه بعض الدارسين بالدّر الذي لا نظام له على خلاف الشعر الذي هو اشبه بالدر الذي ينتظمه العقد [4].

وهو نوعان : مسجع ، ومرسل [5].

قال ابن خلدون: " وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قطعا ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعا ، ومنه المرسل ،وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقا ولا يقطع أجزاء بل يرسل ارسالا من غير تعبير بقافية ولا غيرها ،ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم " [6].

1- أساس البلاغة – الزمخشري ،المصدر السابق، مادة نثر ، ص: 809.

2- نقد النثر ، قدامة بن جعفر ، (دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، 1980 م/1400هـ) ، ص: 74

3- في الأدب الجاهلي – طه حسين ، (دار المعارف بمصر ، ط 10)، ص:225

4- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

5- تاريخ الأدب العربي ،أحمد حسين الزيات ، المرجع السابق ،ص:18

6- المقدمة - ابن خلدون ، (تح هيثم جمعة هلال ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1428 – 2007)، ص603

المبحث الثالث:

الحضـــارة (الحضارة العربية الاسلامية)

أولا: مفهوم الحضارة وعوامل قيامها

لقد تظافرت جهود الإنسان منذ العصور القديمة في صياغة الحضارات الإنسانية عبر بقاع مختلفة من العالم لتترك بصماتها الخالدة في سجل التاريخ .وعليه **فما المقصود بالحضارة ؟** ،**وما هي العوامل المساعدة على ازدهارها ؟**.

1- مفهوم الحضارة:

يعتبر مفهوم الحضارة من أكثر المفاهيم صعوبة في التحديد بفضل التطور الدلالي الذي حظي به هذا المصطلح عبر تاريخ الحضارة نفسها ، ولعل من أسباب الاختلاف في تعريفها أيضا الخلفية الفكرية لصاحب كل تعريف، وكذلك تكوينه العلمي وزاده المعرفي، ونتيجة لحيوية البحث والتنقيب في حقل الدراسات الحضارية، ظهرت تعريفات متعددة ومتنوعة لظاهرة الحضارة .

أ- الحضارة لغـــة :

الحَضَارةُ: الإقامة في الحُضْر، وكان الأصمعي يقول: الحَضَارة بالفتح ، يقول القاطمي :

فَمن كَانت الحَضَارةً أعجَبتهُ * فأيُ رِجال بَاديةٍ تَرانَا**

والحَاضِرَةً والحَاضِر : الحي العظيم أو القوم[1] .

أ- الحضارة اصطلاحا :

1- الحضارة في المنظور الغربي :

---

[1]- لسان العرب – ابن منظور ، المصدر السابق ، ص: 908.

يعرفها **وليام جمس دورانت** "William James Durant "[*] بأنها:" نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في انتاجه الثقافي وتتألف الحضارة من العناصر الأربعة الرئيسية : الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق لأنه إذا ما أمن الانسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الابداع والإنشاء ، وبعدئذ لا تتفكك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها [1] .

إنّ " **ديورانت** " يجعل الحضارة نسقا مجتمعا مؤسسا على مقومات رئيسة متشابكة ذات صلة بالاقتصاد والسياسة والأخلاق والعلوم والفنون ، تنحو نحو غاية أساسية تتمثل في مساعدة الإنسان على تنمية رصيده الثقافي وتقوية منتجه المعرفي ،ويعيش المجتمع طور الحضارة والتمدن لما ينعم أفراده بالطمأنينة والاستقرار فتنزح إرادته نحو البناء والخلق والإسهام في ترقية الحياة.

وقد حدد " **ألبرت شفايتزر** "[*] مفهوم الحضارة فقال: " الحضارة في جوهرها أخلاقية... أعني القول بأن مشكلة الحضارة مشكلة أخلاقية " [2]. ثم أردف كلامه بقوله: " الحضارة بكل بساطة بذل المجهود بوصفنا كائنات انسانية من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم من أي فرع كان في احوال الانسانية..." [3].

---

[*]-دورانت فيلسوف ومؤرخ وكاتب أمريكي ولد سنة 1885م ، من مؤلفاته " قصة الحضارة "و كتاب " سيرة حياتنا " توفي سنة 1981 م.

[1]- قصة الحضارة – ول وايريل ديورانت ، (ج 1 ، دار الجيل ، بيروت ،1988)، ص:03

[*]- شفايتزر فيلسوف ألماني من الالزام ، درس الطب والدين واقام في أواسط أفريقيا يعالج الاهلين بدافع إنساني ،له مؤلفات كثيرة أشهرها " فلسفة الحضارة " ،نال جائزة نوبل للسلام 1952 م، الموسوعة العربية الميسرة- مجموعة من العلماء والباحثين ،(ط 1، 2010 م -1431 هـ ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت)، ص:2028.

[2]- فلسفة الحضارة – ألبرت شفايتزر (تج: عبد الرحمان بدوي ،المؤسسة المصرية العامة ، د ط) ، ص:2

[3]- المرجع نفسه ، ص:5

ويذكر **تايلور E.B.Taylor**(*) في كتابه الثقافة البدائية (Primitive culture) أنّ الحضارة هي الكل المعقد الذي يتضمن المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والتقاليد وكل القدرات التي يكتسبها الانسان بصفة عضوا في المجتمع(1).

فالحضارة في نظر تايلور هي تركيب مزجت عناصره فتشابكت لتساعد أفراد المجتمع على النهوض قدما .وبناء صرحا من التقدم.

2- مفهوم الحضارة في الكتابات العربية الحديثة:

خاض الكتاب والعلماء والمفكرون العرب المحدثون والمعاصرون في موضوع الحضارة وعالجوه من زوايا عديدة ، وقدموا اجتهادات تتفاوت عمقا وأصالة ، ونسجل هنا أن كثيرا منها أطروحات للفكر الغربي وتنظيرات رجاله للحضارة ، ويستوقفنا بإلحاح اسم مفكر جزائري كبير ،إنه مالك بن نبي(1905 – 1973 م) الذي حدد مفهوم الحضارة من جوانب متعددة ،إذ عرفها من جانبها البنيوي الذاتي من خلال تبيان مقوماتها والعناصر الأساسية التي تتأسس عليها ، مشيرا إلى أن مشكلتها لا تحل إلا بالتغلب على الإشكالات التي تطرحها عناصرها . والحضارة عنده تتطلب مجموعة من العناصر وهي : " الإنسان + التراب + الوقت " ،وتحت هذا الشكل تشير الصيغة إلى أن مشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية : مشكلة الإنسان ،ومشكلة التراب ،ومشكلة الوقت ، فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات ، وإنما نحل المشكلات الثلاث من أساسها " (2).

فلا بد لهذه العناصر أن تترابط بينها لتحقيق الفعل الحضاري الذي يربط أو يدمج بعضها البعض في بعض ، ويزرع الروح فيها " فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء

*- تايلور إدوارد بيرنت : (1832 – 1917 م) أنثروبولوجي إنجليزي ، ساعدت دراساته على تحديد مجال الأنثروبولوجيا وتطور الاهتمام بها ،وكان أستاذا للأنثروبولوجيا بجامعة اكسفورد(1896 – 1909 م)أهم كتبه " الثقافة البدائية " 1871 و " الأنثروبولوجيا " 1881 م ، الموسوعة العربية الميسرة –مجموعة من الباحثين ، المرجع السابق، ص: 920

1- Primitive culture- F.B.Taylor .(sixth edition.june.1920.LONDON). P:19

2- شروط النهضة – مالك بن نبي ،(تر، عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، سوريا ، دمشق)، ص:45

، ويكون للناس شرعه ومنهاجا ، أو هي – على الأقل – تقوم في أسسها على توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام. فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا من حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيدا عن حقبته ، إذ إنه حينما يكتشف حقيقته حياته كاملة يكتشف معها اسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها"[1] .

ويرى مالك في موضع آخر من كتاباته أن ثمة ثلاثة عوامل أساسية تبني التاريخ ، الذي يصنع بدوره الحضارة ، وهي عالم الاشخاص ،وعالم الأفكار وعالم الأشياء ، وليس بمقدور هذه العوالم التأثير والاشتغال إلا إذا ترابطت وتلازمت ،وأي خلل يطال أحدها أو بعضها فمعناه التعطل عن العمل ، ويركز بن نبي في المحل الأول على عالم الأفكار لأن غنى المجتمع وقوته لا يقاسان بما يحوزه من أشياء ، بل بمقدار ما لديه من أفكار.[2].

فقد أكد مالك بن نبي أن الحضارة لا تشترى بل يصنعها أصحابها بأنفسهم عن طريق عالم خاص وهو عالم الأفكار ،الذي يساعد الأشخاص على ابتكار أشياء جديدة تغير من نمط معيشتهم وتسهل عمليات التواصل بينهم بمختلف الأجهزة كالشبكة العنكبوتية وما تحتويه من مواقع التواصل الاجتماعي في وقتنا الحالي.

ويعد المؤرخ المصري الدكتور " **حسين مؤنس** " من الباحثين والأكاديميين العرب الذين حاولوا تحديد الحضارة، فقد ربطها بالتاريخ، ووسع مضمونها لتشمل جميع نتاج الإنسان المحصل عليه بفضل جهده في سبيل تطوير حياته وتحسينها. و قد قال في كتابه الموسوم ب " الحضارة " : " الحضارة – في مفهومها العام – هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مادي أم معنوي، وهذا المفهوم للحضارة مرتبط أشد الارتباط بالتاريخ ،لأن التاريخ هو الزمن ، والثمرات الحضارية التي ذكرناها تحتاج إلى زمن لكي تطلع أي إنها جزء من التاريخ أو

---

[1]– شروط النهضة – مالك بن نبي ،(تر، عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، سوريا ، دمشق)، ص:51

[2]– ينظر ، ميلاد مجتمع – مالك بن نبي ،(تج ، عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق)، ص:27

نتاج جانبي للتاريخ ، وكما أن ثمر الزروع والأشجار لا يطلع إلا بفعل الزمن إذ لا يمكن أن تزرع وتحصد ثمرة ما في نفس الوقت ، فإن ثمار الحضارة لا تظهر إلا بإضافة الزمن إلى جهد الإنسان [1].

2-عوامل قيام الحضارة :

للحضارة عوامل ساعدت في انبثاقها ومن جملة تلك العوامل:

1- العوامل الجيولوجية : تنشأ الحضارة في الفترة الفاصلة بين عصرين جليديين حيث يعتدل المناخ وتتوفر الأمطار ، أما في حالة قيام عصر جليدي فإن الحضارة القائمة في المنطقة ستنتهي بعد أن يغمرها الجليد [2].

2-العوامل الجغرافية : ونعني بها أن المناخ الاستوائي شديد الحرارة لا يساعد على قيام حضارة مزدهرة ،إذ يؤدي انتشار الأمراض والخمول إلى عرقلة جهود الإنسان في الانتاج ، على عكس المناخ المعتدل والتربة الخصبة والأمطار التي تشجع على ازدهار الحضارة [3].

3- العوامل الاقتصادية : ينشط التقدم الاقتصادي الحضارة ، فربما وجدت حضارات بسيطة لشعوب بدائية لم تتقدم بسبب التأخر في المجال الاقتصادي ، وأبرز الأمثلة على ذلك الهنود الحمر ، ومن ناحية أخرى يساعد التقدم في الزراعة وصناعات الأدوات على ايجاد حضارة متقدمة [4] .

4-العوامل الثقافية والاجتماعية : ونقصد بذلك وجود سلوك اجتماعي متميز في المجتمع وخلق قاعدة من التقاليد والأعراف الاجتماعية ، وأنماط من الثقافة والإنتاج العلمي والفلسفي تؤدي إلى توحيد المجتمع [5].

---

[1]- الحضارة - حسين مؤنس ، (عالم المعرفة ط ، 1978م)، ص:13

[2]- تاريخ الحضارة العربية الاسلامية – بشير رمضان التليسي و جمال هشام الذويب (دار المدار الاسلامي ، ط 2) ،ص: 10-11

[3]- المرجع نفسه، ص:11

[4] – المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

[5]- تاريخ الحضارة العربية الاسلامية – بشير رمضان التليسي و جمال هشام الذويب، ص:11

ويؤدي انعدم عامل من هذه العوامل إلى تدهور الحضارة أو اندثارها فهي كل متكامل ومتناسق فيما بينها.

ثانيا: الحضارة العربية الإسلامية

نقف الآن أمام أهم حضارة عرفها العالم ككل والإنسانية جمعاء والتي عبرت عن ذلك النتاج الصادر عن الامة العربية الإسلامية في جميع مجالاتها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والعمرانية والادارية ،وهي الحضارة التي فرضت نفسها عبر تاريخها الطويل وامتدادها الجغرافي الواسع عبر ربوع القارات ووحدتها بعد تفرقها وشتاتها .

وكثيرا ما كانت تجري محاورات فكرية حول تسمية الحضارة العربية الاسلامية ويقف الباحثون والدارسون أمام تسميتي : الحضارة العربية ،والحضارة الإسلامية ،وكل يختار ما يراه مناسبا، ويميل كثير من الباحثين إلى تسمية العربية على اعتبارين أساسيين :أولهما: أن العربية هي اللغة الأساسية لتلك الحضارة ،وأنّها هي الرابط القوي الذي ساعد على تحقيق وحدة فكرية بين أهلها ،وثانيهما : أن العرب كانوا حجر الزاوية في بناء هذه الحضارة واللبنة الأولى منها ويدافع أصحاب هذا الرأي عن رأيهم هذا قائلين : حقا إنّ شعوبا أخرى كالفرس والترك والبربر أسهمت في البناء الحضاري الضخم بل إن بعضا من أبرز علماء هذه الحضارة كابن سينا والفرابي والطبري والبخارى وغيرهم ، لم تجر في عروقهم دماء عربية ،ولكن علينا أن نقر بأن هؤلاء جميعا استعربوا واكتسبوا مكانتهم السامية في ظلال الحكم العربي وفي رحاب الدولة المترامية الأطراف التي أقامها العرب[1] ،وهذا ما فعله عدد من الغربيين أمثال غوستان لوبون " **حضارة العرب** " ،ويغريد هونكة " **شمس العرب تسطع على الغرب** "، ...إلخ ،وبعضهم الآخر جعلها في دائرة ضيقة عندما حضرها في إقليم أو أمة معينة [2].

1- موسوعة تاريخ العرب – عبد عون الروضان ،(دار الاهلية ، ج1. عمان، ط8، 2007 م)،ص:04-05

[2]- الحضارة العربية الإسلامية – الوحدة ، التنوع ، الاتصال ، التأثير – طه خضر عبيد، المرجع السابق، ص: 26

أما تسميتها الحضارة الإسلامية فخصت الديانة أو العقيدة كما فعل كل من أدم متر " الحضارة الإسلامية " وجرونباوم " حضارة الإسلام "،وهاملتون جب " دراسات في الحضارة الإسلامية " لأن الإسلام دين الغالبية[1] .

أما حجة هؤلاء المتحمسون لوصفها بالإسلامية دون العربية ،أن هذه الحضارة لم تكن فقط من صنع العرب وأن شعوبا كثيرة غير عربية قد ساهمت بنصيب كبير في صنعها وازدهارها ،واطلاق صفة العربية على هذه الحضارة في رايهم ، يثير حفيظة عير العرب ويحرك فيهم نعرة العصبية القومية والشعوبية العنصرية التي حاربها الإسلام. وعمل جاهدا على القضاء عليها ، ويقول المدافعون عن هذا الرأي : إن الإسلام قد شكل رباطا قويا بين قلوب الفاتحين العرب من ناحية وأهالي البلاد المفتوحة من ناحية أخرى ،وإن الشريعة الاسلامية صارت هي الرابط الموحد لشعوب هذه الدولة التي استظلت بظل الإسلام الذي لم يكن على الإطلاق مجرد عقيدة تتبع وشعائر تؤدى فحسب وإنما هو تخطيط مثالي لحياة الفرد والمجتمع والامة ،ومنهاج قويم للفكر والسلوك ودستور أسمى للإنسانية في أجل صورها[2].

ولقد اصطبغت هذه الحضارة في نشأتها بصبغة إسلامية مثالية واضحة ظهرت في وحدة شعوبها وفي تفكير أعلامها وفي منهاج حكمها ،وبرغم أن الوحدة السياسية للدولة الإسلامية لم تسمر طويلا ،إلا أن الوحدة الدينية ظلت قائمة بين شعوب هذه الدولة ،ذلك لأن الانقسام السياسي ،الذي انتهت إليه الدولة الإسلامية الكبرى ،لم يكن يعني كثيرا لدى المواطن المسلم ، الذي كانت البلاد الإسلامية كلها وطنه وحينما توجه ،والمسلمون إخوة له حيث قصد ،وفي ضوء هذه الحقيقة أخذت الأفكار والآراء والمذاهب العقلية تنتقل من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه وبالعكس ،وسهل تنقل العلماء وطلاب العلم والرحالة بين الشرق والغرب ،كذلك تنقل الكتب والمخطوطات وسط العالم الإسلامي الذي ساده جو من الوحدة الروحية التي لم يشهد التاريخ لها مثيلا [3] .

---

[1]- الحضارة العربية الإسلامية – الوحدة ، التنوع ، الاتصال ، التأثير – طه خضر عبيد، المرجع السابق، ص: 26

[2]- موسوعة تاريخ العرب – عبد عون الروضان- المرجع السابق ، ص:05

[3] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

وهناك من الباحثين اتخذوا رأيا وسطا فسموها الحضارة العربية الإسلامية لكون شارك فيها العرب بلغتهم العربية وامتدت برسالة الإسلام التي أوكلت إلى فرد من أفرادهم وهو النبي محمد، أو الحضارة الإسلامية العربية بتقديم كلمة الإسلام على العربية لقيامها على أساسيين الإسلام والعروبة.

ولقد تحدث عنها " **جوستاف لويون** [*]" في كتابه حضارة العرب : " وتسيطر الحضارة العربية ، منذ اثنتي عشر قرنا ، على الأقطار الممتدة من شواطئ المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهندي ، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى رجال إفريقية الداخلية ، وكان سكان هذه البلدان المترامية الأطراف تابعيين لدولة واحدة ،ويدنون الآن بديانة واحدة ، ولهم لغة واحدة ونظم واحدة وفنون واحدة " [1].

فقد قصد **جوستاف** بقوله هذا أن شعب هذه الحضارة يعتنقون ديانة واحدة وهي الإسلام ولغة واحدة ألا وهي اللغة العربية ، ومن هذا المنطلق سميت الحضارة العربية الإسلامية .

ثم أردف كلامه قائلا : " وكلما أمعنا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة ،وسرعان ما رأينا أن العرب اصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الاقدمين ،وأن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون ،موردا علميا سوى مؤلفاتهم ، وأنهم هم الذين مدنوا أوربة مادة وعقلا وأخلاقا وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقهم قوم في الابتداع الفني " [2].

رغم كثرة المستشرقين الذين لم يعترفوا بفضل الحضارة العربية الاسلامية وبدورها الريادي الذي لعبته و مساهمتها الفعالة في تنوير العقل الأوربي بعدما كان يعيش في ظلام حالك ودروب مسدودة– وهذا كله كان نتيجة تعصبهم الديني ،وبغية منهم لتغليط الرأي العام – إلا أن هذا لم يجعل البعض الآخر يستنكر لكلامهم ويفتده بدلائل حقيقية من التاريخ **كزيغريد هونكة** المستشرقة الألمانية التي كانت

[*]– جوستاف مؤرخ فرنسي ولد عام 1841م ،عمل في أروبا وآسيا وافريقيا عني بالحضارة الشرقية، توفي في 1931 .

[1] – حضارة العرب – جوستاف لويون ، (تج عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي) ، ص26

[2]– المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

السباقة في هذا الميدان وانحيازها للعرب طبعته في تشبيهها الرائع للحضارة العربية الإسلامية بالشمس التي أزاحت الضباب الذي كان يخيم على أروبا قرونا طوالا وسطعت بعلومها ومعارفها أرجاء تلك القارة وقد ترجمت هونكة ذلك الاعتراف في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب .

ثالثا: خصائص الحضارة العربية الإسلامية

اتسمت الحضارة العربية الاسلامية بعدة سمات جعلتها تتصدر الريادة ،ومختلفة تماما عن الحضارات التي تزامنت معها أو بالأخص الحضارات التي سبقتها على سبيل المثال الحضارة المصرية التي كان مآلها الزوال.

قال الباحث **راغب السرجاني**: " لكل حضارة سماتها وخصائصها التي تمثلها بها عن غيرها ،وإذا كانت حضارة الإغريق قد اتّسمت بتمجيد العقل ،واتّسمت حضارة الرومان بتمجيد القوة وبسط النفوذ ،واتّسمت حضارة الفرس بالاهتمام بملذات الجسد والقوة الحربية والسطوة السياسية ،واتّسمت الحضارة الهندية بالاعتداد بالقوة الروحانية ... فإن للحضارة الإسلامية سماتها وخصائصها المميزة التي تتفرد بها بين الحضارات السابقة لها واللاحقة عليها ،فقد فامت الحضارة العربية الاسلامية على رسالة سماوية هي رسالة الاسلام وما تتصف به هذه الرسالة من الانسانية والعالمية والوحدانية المطلقة في العقيدة.[1] ويمكن إجمال هذه الخصائص في النقاط التالية:

1 – الوحدانية :

فهي أول حضارة تنادي بالإله الواحد لا شريك له في حكمه وملكه ، وهو وحده الذي يعبد ، وهو وحده الذي يقصد ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿05﴾** ﴾[2]، وهو الذي يعز ويذل ويعطي ويمنح

---

[1] – ماذا قدم المسلمون للعالم – راغب السرجاني (ج1 ، مؤسسة اقرأ ، ط2) ، ص:49

[2] – سورة الفاتحة (الآية 5)

ويسن لعبده ما فيه الخير لهم والصلاح لحياتهم فالناس جميعا عبيد له متساوون في الانتماء والالتجاء إليه بدون واسطة بشرية ، وعليهم الطاعة وإتباع أوامره سبحانه ، وإتباع شريعته المنزلة[1].

بالوحدانية تتلاشى مظاهر الطغيان في المجتمعات ، ويتحرر الإنسان من أغلال العبودية وجبروت الحكام والاقوياء ... ويعلو شأنه وبها توجه الخشية للخالق القوي ذو العرش العظيم وليس للمخلوق الضعيف ،وهنا تكمن العلاقة بين العبد وربه أو بين المخلوق وخالقه فيخضع لأوامره ابتغاء مرضاته ودخول جناته التي بها يوعدون .

وهذا ما أكده بعض الباحثين فقال:" هذا السمو في الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين وتوجيه الانظار إلى الله وحده ..."[2].

ثم أردف كلامه بقوله " كما كان لهذه العقيدة أثر كبير في الحضارة الإسلامية تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة ، وهي خلوها من كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحكم والفن والشعر والأدب ،وهذا هو سر إعراض الحضارة الإسلامية عن ترجمة الإلياذة وروائع الأدب اليوناني الوثني ، وهو سر تقصير الحضارة الاسلامية في فنون النحت والتصوير مع تبريرها في فنون النقش والحفر وزخرفة البناء "[3].

وقد تحدث " **عماد الدين خليل** " في كتابه " **مدخل إلى الحضارة الإسلامية** " عن التوحيد فقال:" في التوحيد يغدو الكون والعالم والطبيعة من صنع الله القادر المهين المبتدئ المعيد ويتحرر العالم المسلم من سائر الخرافات والصنميات التي تلبستها الطبيعة والعالم في المذاهب والأديان الأخرى ...إن التوحيد يضع العالم المسلم حرا في مواجهة الكتلة سيدا على الخلائق ، ومن ثم يصير التوحيد فرصة كبرى

---

[1] – ما ذا قدم المسلمون من اسهامات –المرجع السابق ، ص: 52

[2]– من روائع حضارتنا – مصطفى السباعي ، المرجع السابق ، (،ط1، 1998 م– 1418 ه ، دار السلام ، القاهرة ،مصر) ،ص:35 – 36

[3]– المرجع نفسه، ص:36

للتحقق بالمعرفة ، والاستزادة منها ، من أجل الامساك بتلابيب العالم والطبيعة والحياة ...والتقرب أكثر إلى الله " [1]،

والتوحيد بالعبارة البسيطة المتوارثة هو الاعتقاد والشهادة أن " **لا إله إلا الله** " وهذا القول بصيغة النفي ، الموجز أشد الايجاز يحمل أجمل المعاني وأغناها في الاسلام قاطبة وقد تتكثف في جملة واحدة ، وثقافة كاملة أو حضارة كاملة أو تاريخ بأجمعه ، وهذا بالتأكيد ما نجده في "كلمة " أو " الشهادة " في الإسلام [2].

2-العالمية :

تتسم حضارة الاسلام بسعة أفقها ورسالتها العالمية ، وقد وضح ذلك في إعلان القرآن الكريم وحدة النوع الإنساني ، رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَاسُ إنَّا خَلقْنَاكُم مِن ذَكَر وَأنْثَى وَجَعَلنَاكُم شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنّ أكْرَمَكُم عِندَ اللهِ أتْقَاكُم** ﴾ [3]، حيث جعل القرآن حضارة الاسلام عقدا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الاسلامية [4].

يقول "**عماد الدين خليل** " الحضارة العربية الاسلامية حضارة ذات طابع انساني – عالمي ، فهي تتعامل مع الانسان أيا كان موقعه ، ولا تقتصر على الجماعة التي شكلتها فحسب ...وهي من أجل ذلك تجاوزت بل كسرت كافة الحواجز العرقية والإقليمية والجغرافية والطبقية واللونية والمذهبية لكي تحقق انتشارها على مستوى العالم كله ، كما أنها قَبِلَت مشاركة كافة الفئات والجماعات المنضوية في نسيج المجتمعات الاسلامية ، أيا كانت أديانها وعروقها وانتماءاتها " [5].

---

[1]- مدخل إلى الحضارة الإسلامية – عماد الدين خليل (الدار العربية للعلوم ، ط1 ، 2005م -1426 هـ ،لبنان)، ص:139

[2]- أطلس الحضارة الاسلامية – اسماعيل راجي الفاروقي ولوس لمياء الفاروقي ،(ط1، 1998م ، مكتبة العبيكان)ص:131

[3]- سورة الحجرات ، (الآية :13)

[4]- من روائع حضارتنا – مصطفى السباعي ، المرجع السابق ، ص: 36

[5]- مدخل إلى الحضارة الاسلامية - عماد الدين خليل ، المرجع السابق ، ص: 146-147

3- الصبغة الأخلاقية :

تعد الأخلاق السياج الواقعي للحضارة الإسلامية ، وهي الأساس التي قامت عليه ، فمبادئ القيم والأخلاق تتدخل في كل نظم الحياة ،وفي مختلف أوجه نشاطها سواء في السلوك الشخصي، أم في السلوك الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي ،وقد بعث رسول الاسلام ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق : " **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** " وبهذه الكلمات حدد الرسول صلى الله عليه وسلم الغاية من بعثته ،وكيف أنه يريد أن يتمم مكارم الأخلاق في نفوس أمته والناس أجمعين ،ويريد للبشرية أن تتعامل بقانون الحسن الذي ليس فوقه قانون [1].

ففي الحكم وفي العلم وفي التشريع وفي الحرب ،وفي السلم ، وفي الاقتصاد ،وفي الأسرة تنوعِت المبادئ الأخلاقية في الحضارة الاسلامية تشريعا وتطبيقا وبلغت في ذلك شَأنا ساميا بعيدا ، لم تبلغه حضارة في القديم والحديث ،ولقد تركت الحضارة الاسلامية في ذلك آثارا تستحق الاعجاب وتجعلها وحدها ، من بين الحضارات التي كفلت سعادة الانسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء .[2]. وبهذه الخاصية طغت الأخلاق الحسنة ، وغابت الأخلاق السيئة التي تتنافى تماما وما دعا إليه الدين الاسلامي ، وما اتصفت به شخصية محمد صلى الله عليه وسلم من شمائل حسنة .

4- التوازن والوسطية :

وتعني هذه الخاصية التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين ، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف المقابل ، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ، ذلك التوازن والاعتدال الذي يليق برسالة عامة خالدة جاءت لتسع أقطار الأرض وأطوار الزمن .[3]

---

[1]- ماذا قدم المسلمون للعالم – المرجع السابق ، ص: 60

[2]- من روائع حضارتنا – مصطفى سباعي ، المرجع السابق ، ص: 37

[3]- ينظر: من روائع حضارتنا – مصطفى سباعي ، المرجع السابق ، ص:55.

التوازن في سائر الاتجاهات، وعلى الجبهات كافة، إنه بأطرافه المتقابلة وثنائياته المتقابلة، بمثابة اللحمة في النسيج...هذا التوازن الذي يتصادى هنا وهناك في النظرية والتطبيق على السواء ...إنه في صميم فكر الاسلام وفي قلب صيرورته الحضارية.[1]

إنّ القرآن الكريم يقولها بوضوح ﴿ **وَكَذَلكَ جَعَلنَاكم أُمَةً وَسَطَا لِتَكُونُوا شُهَدآءَ عَلَى النَاسِ ويَكُونَ الرَسولُ عَليكُم شَهِيدًا** ﴾ [2] والوسطية هنا ليست موقعا جغرافيا لكنها موقف عقيدي ، واستراتيجية عمل ، ورؤية نافذة لموقع الإنسان المؤمن في الكون والعالم ... إنها القدرة الدائمة على التحقق بالتوازن ، وعدم الجنوح صوب اليمين أو الشمال ، ومن خلال هذه القدرة يتحقق مفهوم الشهادة على الناس ،لأنها تطل عليهم من موقع الإشراف المتوازن الذي لا يميل ولا يجوز .[3] وبفضل هذه الخاصية أصبحت الحضارة العربية الإسلامية في أوج ازدهارها وتألقها ، تتباها بها عن باقي الحضارات التي سبقتها أو تزامنت معها .

5-الأصالة والانفتاح:

وهي حضارة تميزت بتقابل موزون بين الأصالة والانفتاح...بين القدرة على حماية الذات من التفكك والتغير والانحلال ،وبين الاستعداد الدائم لقبول القيم والخبرات من الغير ،وهضمها وتمثلها . فلم تنغلق يوما على معطيات الحضارات الأخرى بل فتحت صدرها دونما عقد ولا حساسيات على العالم الواسع ،أخذت وتمثلت كل ما هو ايجابي فعال في بنية المعارف البشرية كافة [4] .

فليونة الحضارة الاسلامية أدت إلى استمرارها وتجاوزها لكل العقبات التي لطالما كانت حجر عثرة أمام أبنائها ،فقد أطلقت العنان نحو البحث والتنقيب وتبادل الأفكار مع الآخر ،ولكن بشرط عدم الذوبان فيه عن طريق الأخذ العقلاني ،أو ما يقتضيه الشرع (الدين الإسلامي).

---

[1] - مدخل إلى الحضارة الاسلامية – عماد الدين خليل ، المرجع السابق ، ص:141

[2] - سورة البقرة الآية : 143

[3] - مدخل إلى الحضارة الاسلامية – عماد الدين خليل ، المرجع السابق ،ص: 141.

[4] - المرجع نفسه، ص: 140



6-النزعة العقلانية:

وهي خاصية بارزة من خصائص حضارة الإسلام، ويتأكد لدارس تاريخ الأديان أن الإسلام دين يتفق مع العقل البشرى السوي ،وأن صياغته الدينية يسيرة غير معقدة وتتفق مع الفطرة الإنسانية ،ولذلك انتفت فيه الخرافات والأساطير واللامعقولات ،ولذلك فإن المسلم يستطيع أن يقرأ في كتب الديانات السابقة دون أن يتشكك أو يرتاب في دينه قيد أنملة، أما أصحاب الديانات السابقة فإذا ما قروا عن الإسلام- وبموضوعية – فحتما سيهتدون إلى الواحة الخضراء الوحيدة في صحراء العمر المجدبة وهي الاسلام على نحو حتمي ،وليس معنى ذلك أي خصومه مع الأديان المذكورة ،بل إحقاق حق أدركه الألاف من الذين اهتدوا إلى الدين الخاتمي الكامل ، خاصة أن الأديان السابقة كانت تمهد لمقدم الدين الختامي [1].

7-الطابع الإنساني:

يلاحظ أن الإنسان كان الهدف الأول للحضارة الإسلامية ،وهي من الإنسانية وإلى الإنسان ،ونجد ان نظمها ومؤسساتها كافة هدفت في نهاية المطاف إلى الرقي به وتقدمه ،خاصة أن الإسلام نفسه كدين يحتوي على توافق إلهي غريد بين الجوانب المادية والروحية ،مما عمق البعد الإنساني فيها ،وفي مقدورنا إدراك ذلك الجانب فيها من خلال معرفتنا إن الإنسان هو خليفة الله تعالى في الأرض ،وذلك كان تكريمه وعدم إهدار دمه والمحافظة على كرامته وتسخير الأرض له[2].

ومن هنا فإن غاية الحضارة العربية الإسلامية الارتفاع بحياة الإنسان، رغم تعقد جوانبها ، فإنّ فيها حياة فكرية عقلية، وحياة مادية وحياة نفسية خلقية، وحياة اجتماعية، إلى جانب الحياة الفردية .

---

[1]- في رحاب الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى – محمد مؤنس عوض،(ط1، دار العالم العربي ،مدينة نصر، القاهرة) ، ص: 23

[2]- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها .

ومن المهم إدراك أن العنصر السابق الخاص بالجانب العقلاني يتوافق ويدعم تماما الجانب الإنساني ،إذ إن تلك الحضارة عندما احترمت " عقل الإنسان " ،وهو أداة التكليف احترمت ضمنيا آدميته وإنسانيته ، ومن هنا كانت تلك الخاصية القيمة المتصلة بالطابع الإنساني [1].

رابعا : أثر الحضارة العربية الإسلامية في حضارة أروبا.

تخلد الحضارات بمقدار ما تقدمه في تاريخ الانسانية من آثار خالدة في مختلف النواحي الفكرية والخلقية والمادية ،وإن حضارتنا لعبت دورا خطيرا في تاريخ التقدم الانساني وتركت في ميادين العقيدة والعلم والفلسفة والفن والأدب آثارا واضحة.

1- في ميدان العقيدة والدين :

فقد كان لمبادئ الحضارة الاسلامية أثر في حركات الاصلاح الدينية التي قامت في أروبا ، يقول الدكتور " **راغب السرجاني** " : " وقد ظهرت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية متأثرة في ذلك بالإسلام ففي القرنين الثامن والتاسع للميلاد ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل فقد أصدر الامبراطور الروماني (ليو الثالث) أمرا سنة (108 هـ /726 م) يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل وأمرا آخر في سنة (112هـ/730م) يعد الاتيان بهذه وثنية "[2] .

أما الإسلام فقد أعلن وحدة الله وانفراده بالسلطان وتنزيهه عن التجسيم والظلم والنقص ، كما أعلن استقلال الانسان في عبادته وصلته مع الله وفهمه لشرائعه دون وساطة ، و كان عاملا كبيرا في تفتح أذهان الشعوب إلى هذه المبادئ القوية الرائعة [3].

2 – في مجال العلوم :

1- في رحاب الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى – محمد مؤنس عوض،(ط1، دار العالم العربي ،مدينة نصر، القاهرة) ، ص: 23

2- ماذا قدم المسلمون للعالم ، المرجع السابق ، ص: 705

3- من روائع حضارتنا – مصطفى السباعي ،المرجع السابق ، ص: 40

كان تأثير المسلمين في الغرب في مجال العلوم من طب وصيدلة ورياضيات وكيمياء وبصريات وجغرافيا وفلك وغيرها ، من أبلغ مظاهر التأثير في الحضارة الأوربية حتى اعترف الكثير من الغربيين المنصفين بأن المسلمين ظلوا أساتذة أوربا فترة لا تقل عن ستمائة سنة.[1] . وغدت كتب علمائنا تدرس في الجامعات الغربية ، فقد ترجم كتاب " القانون" في الطب لابن سينا في القرن الثاني ، كما ترجم كتاب " الحاوي " للرازي " – وهو أوسع من القانون وأضخم – في نهاية القرن الثاني عشر . وظل هذان الكتابان عمدة لدراسة الطب في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر[2] .

وقد كان السائحون والزوار والحجاج وطلاب العلم يأتون من أروبا قاصدين برشلونة وبلسنبة حيث كان يصنع الورق الناعم ليعودوا وقد حملوا كميات من هذا الورق – كما ذكر الادريسي- الذي لامثيل له في العالم اطلاقا [3] تقول زغريد هونكه[*]: " إن بناء المطاحن(مطاحن الورق) كان اختصاصا عربيا حققه العرب أنفسهم ، ومنحوا أروبا كل مطاحن المائية والهوائية " [4].

3- اللغة والأدب :

تأثر الغربيون – وخاصة شعراء الاسبان – تأثرا كبيرا ، فقد دخل أدب الفروسية والحماسة والمجاز والتخيلات الراقية البديعة إلى الآداب الغربية عن طريق الأدب العربي في الأندلس على الخصوص يقول الكاتب الاسباني المشهور أبانيز: " إن أوربا لم تكن تعرف الفروسية ولا تدين بآدابها المرعية ولا نخوتها الحماسية قبل وفود العرب إلى الأندلس وانتشار فرسانهم وأبطالهم في اقطار الجنوب " [5].

1- ماذا قدم المسلمون للعالم، المرجع السابق ، ص: 807

2- من روائع حضارتنا - مصطفى السباعي، المرجع السابق ، ص:41

3- ينظر ، شمس العرب تسطع على الغرب - زغريد هونكه ،(دار الجيل بيروت ، ط8 ، 1993م ،) ص:44

*- زغريد هونكه : مستشرقة ألمانية ، طائرة الشهرة ، أحبت العرب وصرفت وقتها كله باذلة الجهد للدفاع عن قضاياهم والوقوف إلى جانبهم، ينظر: شمس العرب تسطع على الغرب – زغرد هونكه ، المصدر السابق ، ص: 7.

4- شمس العرب تسطع على الغرب – زعرد هونكة ، المصدر السابق ، ص:45

5- من روائع حضارتنا - مصطفى السباعي ، المرجع السابق ، ص:42

المبحث الرابع:

علاقة الأدب بالحضارة

لابد من وجود علاقة وطيدة بين الأدب والحضارة باعتبار الأدب مجالا من مجالات حياة الإنسان الفكرية التي قد تشهد يوما ما نوعا من التحضر ، يقول الكاتب " **محمد محمد حسين** " : " فالآداب الضعيفة لا تحمل على النهضة حملا ، ولا تدفع إلى التطور دفعا في طرق مخططة ، مقدرة تقديرا ، لأن ركود الأدب ونشاطه يتبع حال الأمم ، فالأدب صدى للبيئة ، وسجّل لحالات الأديب ومحيطه ، والأمة الناهضة التي تزخر نفوس أفرادها بالأمل والطموح لها أدب متوثب يتفجر نشاطا ، والأمة الخاملة الراكدة لها أدب ميت ...كأن الألفاظ فيه أكفان لا تضم إلا جثثا ، والأمة المستضعفة الذليلة لها أدب خاشع تحشوه عبارات الضراعة المستكنية والأمة العابثة اللاهية لها أدب يصور تفكك عراها وانفصام وحدتها..." [1].

الأدب يصور حالة الأمم فهو بالفعل مرآة عاكسة لما تعيشه فينشط بنشاط أفرادها ويركد بركودهم يصور حياتهم من قوة وضعف ولهو وايمان وكفر ... وهو المعبر الوحيد عن أفكارهم وأحاسيسهم، ويتغير بتغيرها فينتج عن ذلك أغراضا شتى تتطور بتطور الحضاري الحاصل عبر العصور الأدبية.

لم يتوقف الأدب عن أداء رسالته في الحضارات السابقة ،وهي حضارات بلغت من التقدم والرقي ، ويحدثنا القرآن الكريم عن حضارات سالفة بلغت من الآثار والقوة والرسوخ ما لم نبلغه [2] قال تعالى:﴿

---

[1]- الإسلام والحضارة الغربية – محمد محمد حسين ، المرجع السابق، ص:231

[2]- من حضارة الأدب إلى أدب الحضارة – حسن الأمراني، مقال (مجلة حراء ،العدد 45 ،ديسمبر ، نوفمبر 2014 ، دار النيل – مصر)،ص:16

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿82﴾[1].

نستحضر مع بعض حضارة إنسانية من تلك الحضارات السابقة توازن فيها الجانب المادي مع الجانب الروحي والأدبي .فقد أوتي داود عليه السلام وذريته من بعده ملكا عظيما وألان له الحديد وصنع حضارة مادية خارقة[2] قال تعالى: ﴿**وَعَلَّمناهُ صَنعَةَ لَبوسٍ لَكُم لِتُحصِنَكُم مِن بَأسِكُم فَهَل أَنتُم شاكِرونَ** ﴿**80**﴾﴾[3] ،وقال أيضا في محكم تنزيله﴿... **وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**﴿**10**﴾﴾ [4] ففي تفسير الطبري لهذه الآية الكريمة ثلاثة مسائل :

الاولى – قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمناهُ صَنعَةَ لَبوسٍ لَكُم** ﴾يعني اتخاذ الدروع بالإلانة الحديد له ،واللبوس عند العرب السلاح كله ،درعا كان أو جوشنا أو سيفا أو رمحا ، قال الهذلي يصف رمحا:

وَمَعِي لَبُوسُ لِلْبَئِيسِ كَأَنَّهُ * رَوْقُ بِجَبْهَةِ ذِي نِعَاجٍ مُجْفِلِ**

قال قتادة رحمه الله : أولمن صنع الدروع داود ،وإنما كانت صفائح ،فهو أول من سردها وحلقها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ **لِتُحصِنَكُم مِن بَأسِكُم فَهَل أَنتُم شاكِرونَ** ﴾أي ليحرزكم من حربكم الضحاك: من حرب أعدائكم [5].

---

[1]- سورة غافر ، (الأية :82)

[2]- من حضارة الأدب إلى أدب الحضارة – حسن الأمراني، مجلة حراء ، المرجع السابق، ،ص:16

[3]- سورة الأنبياء ، (الآية :80)

[4]- سورة سبأ ،(الآية : 10)

[5]- الجامع لأحكام القرآن – القرطبي ،(ج11 ، دار الكتب المصرية، القاهرة 1941-1360)، ص:320-321

ثالثا: هذه الآية في اتخاذ الصنائع، وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع وكان نوحا نجارا، ولقمانا خياطا وطالوت دباغا وقيل سقاء[1]وكذلك حال ولده سليمان عليه السلام ،بل لقد أوتي سليمان ما لم يؤت أحد من العالمين؛ لقد آتاه الله تعالىً ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وبلغت حضارته ما لم يمكن تصوره اليوم على الحقيقة، في سرعة الاتصال المسموع والمرئي فحسب، بل العينيً أيضا، وتشهد على ذلك -إن كان الأمر بحاجة إلى شهادة- قصته مع بلقيس ملكة سبأ صاحبة العرش العظيم بالوصف القرآني[2]﴿ **إِنِّي وَجَدْتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** ﴾[3]،الذي دعاها لدخول الاسلام عن طريق اظهاره للتطور العلمي والعمراني الذي وصلت إليه حضارته قبل حضارتها (حضارة سبأ) ،وتمثل ذلك في القصر الذي بلط بالزجاج فمن يدخله يعتقد أنه بحر حقيقي وهذا ما جاء في النص القرآني﴿ **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ** ﴾[4] .

ومع ذلك كانت مزامير داوود رمز الروح والأدب والفن وكان إعجازها الباهر، فقال تعالى: ﴿ **فَفَهَّمناها سُلَيمانَ وَكُلًّا آتَينا حُكمًا وَعِلمًا وَسَخَّرنا مَعَ داوودَ الجِبالَ يُسَبِّحنَ وَالطَّيرَ وَكُنّا فاعِلينَ ﴿٧٩﴾**﴾[5] ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ،وَالطَّيْرَ**﴾[6] وبقي على الدهر الدهر من عهد سليمان نشيد الإنشاد، أو بقي ذكره على الأقل، إذا كانت صورته المتداولة اليوم لا يجوز أن تنسب إلى نبي من أنبياء الله تعالى. وكل ذلك دليل على ضرورة تضافر أشواق الروح وصرامة المادة من أجل بناء حضارة إنسانية متزنة ومتوازنة ولسن" الواقع الحضاري.

---

[1]- الجامع لأحكام القرآن – القرطبي ، ج11 ، المصدر السابق ،ص:320-321

[2]-- من حضارة الأدب إلى أدب الحضارة - حسن الأمراني، مجلة حراء ، المرجع السابق ،ص:16

[3]- سورة النمل، (الآية : 23)

[4]- سورة النمل، (الآية :44)

[5]- سورة الأنبياء، (الآية : 79)

[6]- سورة سبأ، (الآية: 10)

كانت الحضارة العربية قبل الإسلام حضارة أدب، يحتفل العربي بالبيان ويحتفي به احتفاء عظيم يحدثنا ابن رشيق القيرواني عن منزلة الشعر خاصة والبيان بعامة عند العرب فيقول: "العرب أفضل الأمم، وحكمتها أشرف الحكم، لفضل اللسان على اليد"[1]، وقال مبين مكانة الشاعر العربي في قومه: " كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك"[2] إلى آخر ما ذكر من مظاهر الاحتفاء . وما ذلك إلا لما كان يقوم به الشاعر من دفاع عن قبيلته ونشر لمحامدها وتخليد لذكراها في الصالحين[3]كما قال ابن رشيق :" لأنه حماية لأعراضهم ،وذبّ عن أحسابهم ،وتخليد لمآثرهم ،وإشادة بذكرهم "[4].

ولكون حضارة العرب في الجاهلية حضارة أدب ، لم يكن يعينها الحق ، فكان بعض ذلك الأدب حاملا لقيم الباطل والانحراف والشر وارتبط كثير من البيان بالكهانة والسحر ، ولما جاء الاسلام صحح هذه العلاقة – علاقة الأدب بالحضارة – فاستنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم سجع الكهان لما يحمله من قيم الباطل ،ونهى القرآن الكريم على فئة من أهل البيان زخرف القول وجعله مرتبطا بالشياطين.[5] فقال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴾[6].

ولقد أسس الاسلام قولا وفعلا أدب الحضارة فجعل الأدب رسالة ونزهه عن العبث ، وتلك خصيصة من خصائص الاسلام التي تشمل الوجود كله ، فنحن مدعوون إلى تصحيح مسيرة الأدب

---

[1] -العمدة في صناعة الشعر ونقده- ابن رشيق القيرواني ، (تح ، د/ النبوي عبد الواحد شعلان ،مركز تحقيقات كاميوترى ، ج1،علوم اسلامي)،ص:09

[2] -المصدر نفسه، ص:89

[3] - من حضارة الأدب إلى أدب الحضارة - حسن الأمراني، مجلة حراء ، المرجع السابق ،ص:16

[4] - العمدة في صناعة الشعر ونقده – ابن رشيق ، المصدر السابق ، ص: 89

[5] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

[6] - سورة الأنعام ، الآية :112

والانتقال من حضارة الأدب إلى أدب الحضارة من أجل أن نجعل الأدب مساهما حقيقيا في البناء الحضاري [1].

وما علينا إلا أن نقر بوجود علاقة وطيدة بين الأدب والحضارة وتلاشي أحدهما يؤدي إلى تدهور الآخر بقول توفيق الحكيم : " إذا أبصرت شعاعا فاعلم أن وراءه كوكبا ...وإذا رأيت أدبا فاعلم أن وراءه حضارة وما من خطر يهدد الشعاع إلا انفجار الكوكب "[2].

و باعتبار وجود علاقة وطيدة بين الأدب والحضارة نعود أدراجنا إلى الحضارة العربية وسبب بقائها وتطورها من خلال الشعر نستحضر هذا القول للباحث نبيل الخطيب:

" إن الدور السلطوي والاحتكاري الذي أضفى على الشعر هو ما رسخ الاعتقاد بأنه الشكل التعبيري الأسمى والأوحد عن الحضارة العربية وتطورها ،وأنه المجسد الفعلي لكل تجليات وتمثلات هذه الحضارة ،وهو ما وطد سياقات توطين مقولات من قبيل ،لأن العرب خلدت حضارتها بالاعتماد على الشعر بينما الشعوب الأخرى أو الحضارات الأخرى خلدت مآثرها وحضارتها بالبنيان / العمران اي كل المظاهر المادية المجسدة لمعالم الحضارات [3] ،والجاحظ صاحب هذه المقولة يبرز اختيار العرب للشعر ،بان الشعر أبقى من بنيان الحجارة وحيطان المدر ،وما يستقطبه أو يحتويه لا تعتريه عرى الاضمحلال أو التلاشي أو يبدده النسيان[4].

المقصود من هذا القول بأن الشعر كونه أدبا هو الحاضن الوحيد لحضارات الشعوب وليس العمران ،لأنه ليس شيئا ملموسا حتى يتعرض لتلاشي والخراب، بل ينتقل عبر الأجيال عن طريق الحفظ

---

[1] - مجلة حراء- حسن الأمراني ، المرجع السابق، ص: 15

[2] - فن الأدب ،توفيق الحكيم ، (دار مصر للطباعة ، د ط)، ص:108

[3] - الحيوان-الجاحظ ، (تح، عبد السلام ،هارون ،ج1، ط2، 1952)، ص: 72

[4] - مجلة اللغة والأدب والحضارة (واقع وآفاق)،نبيل الخطيب ،(ط1، 2013-1434،دار النهضة ،بيروت – لبنان)، ص:19. ص:19.

والمشافهة ،أما العمران فهو مادي معرض دائما لعوامل الطبيعة فيضمحل ويتلاشى مع مرور الزمن ولا أحد يضمن له البقاء، ليعبر عن مدى التقدم الحضاري الذي وصلت إليه تلك الشعوب .

ونحن بدورنا نعتقد أن الأدب مثله مثل العمران سواء أكان الأدب نثرا أو شعرا كلاهما معرضان للتلاشي والاضمحلال ،فمثلا الشعر إذا توقفت الأجيال عن حفظه في العقول سيذهب جله ،ويصبح في طي النسيان ،ومن طبيعة النثر أنه لا يحفظ بل يدون في الكتب ،وبالتالي سيتعرض مثل العمران إلى عوامل الطبيعة فكلاهما سيان واعادة الأجيال ترميمهما يساعد على بقاء حضارة تلك الشعوب .

فلكل شعب أسلوب معين يتخذه للحفاظ على حضارته، فالعرب اتخذوا من الشعر وسيلة لبقاء حضارتهم ،فتميزت بهذا عن أي حضارة في العالم .،وقبلهم المصريون اتخذوا من العمران مجسدا لحضارتهم ،وهي حتى الآن دليل على ما وصلوا إليه في فن العمارة (الأهرامات).

أما الدولة الزيانية فقد اختارت لبقاء حضارتها كلا من الأدب والعمران ،رغم أن كلاهما قد تعرض لتخريب والنسيان.



الفصل الثانـــي:

الحركة الأدبية في العهد الزّياني في القرنين السّابع والثّامن الهجريين

المبحث الأول: الأغراض الشعرية

المبحث الثاني: الأجناس النثـرية

شهد العهد الزّياني خلال القرنيين السابع والثامن الهجريين حركة أدبية راج فيها الأدب رواجا كبيرا سواء في الشعر أو النثر ،وكل ذلك مرده لأسباب عدة منها تشجيع الحكام للإنتاج الأدبي إضافة إلى ذلك كثرة المساجد (*) والمدارس(**)،والمكتبات التي لعبت دورا هاما في استمرار تلك الحركة الأدبية ، ويظهر ذلك جليا فيما سنتعرض إليه في المبحثين الآتيين:

*- ومن بين هذه المساجد نذكر **مسجد أولاد الإمام**: أنشاه السلطان أبو حمو موسى الأول سنة 710 هـ /1310 م ، ليكون ملحقا بالمدرسة القديمة ، التي بناها لابني الإمام وكان هذان العالمان قد قدما من مدينة برشك ، و لم يبق من هذا المسجد إلا القبة المزينة بالقرنصات ومئذنتها الجميلة ، كما فقد معظم زخارفه وزينته ، ويقع بالقرب من مسجدي أبي الحسن وابراهيم المصمودي وتوجد بعض القطع الأثرية منه في المتحف القديم بتلمسان . **مسجد ابراهيم المصمودي**: قام بتأسيسه أبو حمو موسى الثاني، إلى جانب القبة والزاوية والمدرسة، وهي المباني التي بناها السلطان تكريما للوالد أبي يعقوب يحتوي المسجد على مئذنة مربعة الشكل ، وقبة مزينة بأخاديد تشبه قبة حمام الصباغين بتلمسان ، ولم يبق من مجموع هذه البنايات إلا المسجد والقبة ، ينظر تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي ، ص: 147،

- **مدرسة ابني الإمام: تقع بناحية المطمر ، أمر ببناء هذه المدرسة السلطان أبو حمو موسى الأول ، وعين على راس هيئة التدريس بها ابني الإمام أبو زيد عبد الرحمن (ت746هـ /1342)، وأخوه ابو عيسى (749 –1348) وكلفهما بإدارة التعليم والتدريس بها ، وحملت المدرسة اسمها ،ولم يبق من المدرسة إلا المسجد الصغير بمنارته ، الذي اسس بجنبها ولا يزال قائما إلى اليوم يعرف عند أهل تلمسان باسم " جامع سيدي اولاد ليمام " ، ويقع في الناحية الغربية من المدينة في اتجاه باب كشوط المعروف اليوم بباب سيدي بوجمعة .**المدرسة التاشفينية**: تقع هذه المدرسة بجانب المسجد الاعظم وهي في منتهى الروعة والجمال ، قام بتشييدها السلطان الطموح ، أبو تشفين بن أبو حمو موسى الاول ، تكريما للفقيه أبي موسى عمران المشذالي ،يقول **عبد العزيز فيلالي** : "قرب السلطان أبو تشفين إليه الفقيه أبا موسى عمران المشذالي البجائي (ت745 هـ / 1345 م) أعرف أهل عصره بمذهب مالك وعينه مدرسا بالمدرسة الجديدة التي أسسها بتلمسان وأراد بذلك لعاصمته ان تضاهي فاس وتونس وغرناطة في المجال الحضاري والعمراني، فسخر لبنائها فناني ومهندسين من ذوي الكفاءة والمهارة العالية ، في الزخرفة والتزيين والبناء ، فجاءت هذه المدرسة نموذجا فريدا، ينظر تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق، ص:322

المبحث الأول:

الأغراض الشعرية

شهد الشعر في عهد بني زيان ازدهارا كبيرا، واهتماما ملحوظا لم تعرفه دول المغرب من قبل بالرغم من كثرة الصراعات الداخلية والخارجية بين الدولة الزيانية والجارتين الحفصية والمرينية ، وهذه العوامل السياسية كان لها أثر كبير في نفسية الشاعر الزياني ،فتعددت أغراضه الشعرية من مديح وفخر وهجاء ورثاء...

أولا/**المدح**:

لقد تعددت تعريفات المدح فمنهم من يعرفه بقوله: " هو غرض من أغراض الشعر، يقوم على فن الثناء وتعداد مناقب الإنسان الحي ، وإظهار آلائه وإشاعة محامده وفعاله، التي خلقها الله فيه بالفطرة والتي اكتسبها اكتسابا والتي يتوهمها الشاعر فيه " [1].

وقد جاء المديح في عهد الدولة الزيانية على صورتين هما:

أ – المديح النبوي:

ويتعرض فيه الشاعر إلى شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم في صورة البطل بسرد خصاله المميزة، والمعجزات التي انفرد بها عن غيره من الأنبياء في قالب شعري جميل.

1- **خصاله**: لقد تعددت صفات الرسول صلى الله عليه وسلم فكان عدها عدد النجوم فاختصرها شعراء المولديات مضطرين غير قاصدين ذلك .

يقول يحي ابن خلدون في احدى مولديته:

[1]- الأدب الجاهلي – غازي طليمات وعرفان الاشقر، (دار الإرشاد بحمص ،ط1 ، 1412هـ /1992 م)، ص:160

نَبيُ كَرِيمُ للرِسَالةِ خَاتِـــمٌ مُطَاع لَدَى ذِي العَرْشِ ثُم أمِيــنُ

رَؤُوفٌ رَحِيمٌ بالعِبَادِ وَأَنَّــهُ لَذُو قُوَةٍ عِندَ الإله مَكِيـــــــنُ

وَسِرُ وُجُودِ العَالَمين وأَصْله وَغَايته فَالكل عنــْـــــهُ يبين [1]

استطاع الشاعر في هذه الأبيات أن يجمع ويعدد خصال النبي محمد صلى الله عليه وسلم ببراعة الايجاز ،فهو الكريم خاتم الأنبياء ،المطيع لربه ،الأمين ،الرؤف الرحيم بالناس خير خلق الله اصطفاه فأنزله منزلة عالية من بين جميع الأنبياء فهو سر وجود العالم ، يشفع للناس يوم الحساب. كلها صفات حميدة تدل على شخصية حامل رسالة الإسلام وقدرته على قيادة أمة بأسرها ،فهو نعم النبي القدوة بخصاله التي لاتعد ولأفضليته على الخلق.

2- معجزاته:

لمحمد صلى الله عليه وسلم معجزات عدة تدل على نبوته ،أشار إليها شعراء بنو زيان في مولدياتهم برهانا منهم على ايمانهم القوي بما جاء به ،وبمعجزاته التي سمعوا بها ولم يروها وهذا ما يؤكد اطلاعهم على القرآن الكريم والسيرة النبوية كونهما المصدران الأساسيان لتلك الحقائق الاعجازية ،فكان الثغري على رأس تلك الطائفة من شعراء المديح النبوي الذين تطرقوا إلى معجراته ،نستحضر مع بعض أبيات رفعها بمناسبة احتفال الدّولة الزيانية بليلة السابع لمولد خير الأنام في قصيدة مدح لنجل أبو حمو موسى المولى أبا ثابت قال فيها:

لَهُ مُعْجِزاتُ مَا ثلَتْ كـُــلَ مَا أتـَــــــــى بــِه الرُسلُ مِن آيٍ وأرْبتْ علَى العـَدِ

وأَعْظَمُها القـُرْآنُ يَهْـدي لنـَا الهـُـــــــدَى فَيا حُسْن مَا يَهْدي ويَا فَوزَ مَن يَهْدْي

هُو الوَحْيُ أَجْلَى مِنْ سَنَى الشَّمْسِ فِي الضُحَى سَنَاه وأحْلَى حِينَ يُتلَى مِنَ الشَّهـْــدِ

[1] -بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- يحي بن خلدون ، (ج2، تح: بوزياني الدراجي ، دار الامل للدراسات ص:216.

لَـه انشَـقَ بَدْرٌ التَـم عِنْـد كَـمَالـــــــهِ يُشَـاهِدُه مَنْ كَانَ بِالقُربِ والبُعْــدِ[1]

عدد الثغري في هذه الأبيات بعض معجزات النبي الكريم بداية من دستور المسلمين القرآن الكريم الذي بتلاوته العطرة تطمئن القلوب ،إلى حادثة انشقاق القمر الذي اعتبرها الكفار سحرا عند رؤيتهم لها ، فرد عليهم القرآن في سورة من سوره تفنيدا لما ذكروه واتهموه به.

وقال الثغري أيضا في نفس القصيدة :

لَهُ حَنّ جِذْعُ النَخْلِ عِنْدَ فِرَاقـــهِ حنينا شكى مِنْ شَوْقِهِ أَلَمُ الفَقْــدِ

وفَاضِ نَمِيرُ المَـــاءِ بَيْنَ بَنانِـــهِ إِلَى أَنْ تَرَوَى الجَيْش منْ ذَلِكَ الورد[2]

يتضمن البيت الأول معجزة أخرى للنبي الكريم محمد ،وفيها تجلت قدرة الله على اظهار العلاقة الحميمة التي كانت تجمع بين رسوله ومخلوقاته الأخرى (الجماد)، وقدرته على التواصل معها بحيث خاطب جذع النخلة الذي كان يصدر أنينا سمعه الحاضرون حزنا على فراقه. أما في البيت الثاني فتمثلت معجزته في جعل الله أنامل نبيه منبعا لارتواء الجيش بعد نفاذ الماء.

كل تلك المعجزات رغم تطرقنا إلى بعضها دليل قاطع على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ،فما على المسلمين إلا الافتخار كونهم من أمته وتحت رايته

قال الثغري:**وَكَمْ مِنْ مُعجَزاتٍ للنَبِي مُحَمَدُ ظَوَاهِرُ لاَ تَبغي عَلَيْهَا دَلاَئِلُ**

بِنَا الفَخْرُ إِذَا كُنا بِهِ خَيرَ أُمَةٍ نُفَاخِرُ مِنْ شِئْنَا بِهِ وَنُطَـاوِلُ[3]

ب- المديح السلطاني :

1- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان –محمد بن عبد الله التنسي ،(تح : محمود بوعياد ،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1405-1985)، ص: 198-199.

2- المرجع نفسه ، ص:199

3- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- يحي بن خلدون، ج2، ص: 161.

وفيه يذكر الشاعر خصال ممدوحه ،وهو الحاكم أو الخليفة ،وقد كان يأتي المديح السلطاني مباشرة بعد الانتهاء من المديح النبوي ليؤكد على أن خصال السلطان الحميدة وكريم مزاياه مستمدة من أخلاق رسول الأمة. (1)

ولعلّ حاكما من حكام الدولة الزيانية لم يمدح كما مدح **أبو حمو موسى الثاني**(60 /791 هـ) الذي خلص تلمسان من حكم المرينيين واستعادها لأسرته ، وكان أديبا فذا وشاعرا ماهرا ونهضت تلمسان في عهده نهضة علمية وأدبية عظيمة وأحاطت به كوكبة من الشعر (2) وأشهر من مدحه **محمد بن ابي جمعة التلاليسي**(*) أحد أطبائه وفيه يقول:

مُطَاعٌ شُجَاعٌ فِي الوَغَى ذُو مَهَابَـــةٍ حُسَامٌ عَلَى البَاغِينَ فِي الأَرْضِ قَدْ سَـــلاَ

لَهُ رَاحَةٌ كَالغَيْثِ يَنْهَلُ ودقـــــــها وَصَارِمِ نصر مُرْهَفُ الحِدِ لاَ فَـــــــــلاَ

إِمامٌ حَبَاهُ اللَهُ مُلْكا مـــــــــوزرا فَـــَــلاَ ملك إلا لِعِزَتِــــــــــهِ ذَلاَ

مِنْ الزَابِ وَافَانَا عَزِيزًا مُظَفَــــــرًا يجر مِنً النَصْــــرِ المَنُوطِ بِهِ ذَيــــــلاَ (3)

استرسل الشاعر في حديثه عن شمائل هذا السلطان ،من شجاعته في الحروب التي لطالما عرف بها وتغنى بها الشعراء في قصائدهم ،إلى كرمه مع رعاياه الذي شبهه بالمطر الذي يأتي معه الخير، فبهذه الصفات انتصر على جميع الملوك فما حرب دخلها إلا نصره فيها الله فعمت الفرحة داخل دولته.

1– شعر المولديات في العهد الزياني– أحمد موساوي (رسالة دكتوراه ، جامعة تلمسان كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، 1424/2003هـ) ، ص124.

2 – تاريخ الأدب العربي – عصر الدول والامارات – طه حسين ،(ط1 ، دار المعارف) . ص: 127–

*– هو أبو عبد الله أبي جمعة التلاليسي التلمساني الدار كان طبيب إلى جانب ذلك كان أديبا وشاعرا، كان على قيد الحياة ما بين 76. هـ و767 هـ ويجهل تاريخ وفاته، ينظر إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر –محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان ، (مج 1، ط1، 1422هـ – 2001 م، هـ، داود بريكسي ،الكيفان تلمسان) ، ص: 262

3– بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد يحي بن خلدون (ج1، مطبعة بيير فونطانا الشرقية ،الجزائر 1903 م) ، ص: 18

وللمحمد **شقرون التلمساني**[*]أيضا قصيدة بديعة في مدح السلطان أبي حمو موسى الثاني إثر رجوعه من معركة لم تقع: (البسيط)

حَدِّثْ عَنِ المَلِكِ المَنصُور مَا شِيتا	**تَجِدْ أَلَذَ حَدِيث يُشْبِـــهُ القُوتَـــا**
وذَعْ غَـــرائِبَ فتْح كُلُها عَجَـــب	**غَدَا النِّظَامُ بــــِهَا دُرًا ويَاقُـوتـَــا**
واقْرعْ بِهَا كُل أُذُنٍ فَهِي وَاعِيَـــةٌ	**فَقَد أَذَاعَتْ لَهُ فِي العَالَمِ الصَّيْتَــا**
اقْطَعْ بِحَسْبِك قِطَعا دُونَ مَا رَيبِ	**فَإنَّه مَلِـكٌ مَا شَــاءَهُ يُؤْتَــــى**
لاَ يُريكَ شـــَكٌ أنّ نُصْرتَــــهُ	**مِـنَ السَّمَاءِ وَمَا يُنفِك مَبْخُوتَــا**
لاَ يَسْتطِيعُ عَدُو قُرْب سَاحَتِــهِ	**مـــَنْ رَامَهُ بِعِنَادِ عَادَ مَكْبُوتَــــا**
نُنْبيكَ هِمَـــتُه عَنْ سِـرِ مُدَتِـه	**فَمـَن رَآهُ بَدِيهًا عَادَ مَبْهُوتًـــا**
لاَ تَسْتفِزُ بِه الأَهْوَاءُ جُمْلتَهَـــا	**ولاَ الرقي لاَ ولاَ أسْحَـارَ هَارُوتـَـا**[1]

أشاد الشاعر ببطولات السلطان أبو حمو موسى اللامتناهية فالحديث عنها لا ينتهي ،والأمر الذي جعله يلفت أنظار العالم حوله غرائب فتحه وحسن تسيره لدولته فكأنها الياقوت بين الأمم ،وما أدى إلى خوف الأعداء من شخصه هو شجاعته وشدة بأسه أثناء الحروب فهو المطاع الصارم في قراراته ،تلك العزيمة أدهشت كل من استخف به من بعيد ،فمآله الخذلان والحيرة والدهشة لما سيراه من قريب ،

---

[*]- هو محمد بن صالح شقرون أندلسي الأصل تلمساني الدار كان على قيد الحياة عام 765 هـ (1364 م) ،ولا نعلم متى كانت وفاته ،وكان هذا الأديب شاعرا ،كان من جملة الكتاب في دولة السلطان أبي حمو موسى الثاني بتلمسان .ينظر إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر – المرجع السابق ،ص: 298

[1]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- يحي بن خلدون ، ج 2، المصدر السابق ،ص: 294-295

إلى أن نفى في ختام قصيدته أن يكون ممن تسيطر عليهم شهوات أنفسهم ،فلا سبيل ينفع معه حتى ولو كانت قوة خارقة (سحر الملك هاروت).

ثانيا/ الغزل :

الغزل هو أهم أغراض الشعر العربي وألْصَقُها بغريزة الإنسان. وقد عرفه الدّارسون بأنه الشعر المعني بصفات النساء وميل الرجال إليهن[1]،أو هو حديث القلب وحكاية الحب فيه يتحدث الشاعر عن نفسه ويرسم فيه مشاعره وعواطفه ورغباته ،ويتحدث عن معشوقته فيصف محاسنها ويرسم عواطفه ورغباته وأهواءها[2].

وقد تغزل شعراء بني زيان بجمال نساء تلمسان فأطنبوا في الحديث عن زينتهن ، وكل واحد تألق في وصف محبوبته مع ذكر مشاعره اتجاهها . واليك نموذج للشاعر **أحمد بن يحي بن أبي حجلة** (*) **متغزلا:**

فَتَاةٌ حِينَ زَارَتْنِي عَشــتـــا رَأَيْتُ الشَّمْسَ لَيلاً وَسَطَ دَارِي

فَوَرْدُ خُــدُودِهَا مَـــا لاَحَ إلاَ وَأَحْرقَ عَاشِقُيــــــــهُ بِجَلْنَـارْ(**)

فَصِفْ لِي شَعْرَهَا لَيْلاً وَطول وَقُــلْ فِي الخَصْرِ قَولاً بِاخْتِصَارْ

---

[1]- الأدب الجاهلي – غازي طليمات وعرفان الاشقر، المرجع السابق ،ص: 108

[2]- المدارس والأنواع الأدبية – سامي هاشم ، المرجع السابق، ص: 53

*- هو ابو العباس احمد بن يحي بن ابي حجلة الملقب بشهاب الدين ولد بزاوية جده الشيخ عبد الواحد بناحية تلمسان عام 725 هـ ،انتقل الى القاهرة وتوفي بها عام 776 هـ.

**- زهر الرمان وهي كلمة فارسية.

تُدِيرُ لَنَا مَراشِفُهَا عَقَـــــارَا قَرِيبُ العَهْدِ مِنْ كَأْسٍ مَـدَارْ [1]

برع الشاعر في وصف محاسن الفتاة بالتفصيل ،فبدت له كالشمس في الضياء إلى أن تطرق إلى وصف أجزاء من جسدها (خدودها، شعرها ، خصرها)، متباهيا بجمالها وحركاتها ،وبهذا فقد أعادنا إلى زمن شعراء العصر الجاهلي ،وما حملته قصائدهم مثل هذا النوع من الغزل، ويسمى الغزل الماجن.

ومن الشعراء من ذهب بعيدا زاهد في الدنيا متغزلا بالذات الإلهية في صورة امرأة باستعمال الرمز الصوفي. يقول **ابن خميس** في قصيدته " **عجبا لها** " – الكامل – :

عَجَبًا لَهَا أَ يَذُوقُ طَعْمَ وِصَالِهَا مَنْ لَيْسَ يَأْمَلُ أَنْ يَمُرَ بِبَالِهَـــا

أنَا الفَقِيرُ إلَى تَعِلَّةِ ساعــــــــة مِنْهَا وتَمْنَعُنِي زَكَاةُ جَمَالِهـــــَا

كَمْ ذاد عَنِ عَينِي الكِرَى مُتَأَلِّقًا يَبْدُو ويَخْفَى فِي خَفِي مطالها

يَسْمُو لَهُ بَدْرُ الدُّجَى مُتَضَائِلاً كَتَضَائُلِ الحَسْنَاءِ فِي أَسْمَالِهـــا

وابْن السَبيلِ يَجِئ يقبس نَارَهَا لَيْلاً فَتَمْنَحُهُ عُقَيْلَةَ مَالِهـَـا [2]

شخصية ابن خميس المتصوفة كانت حائلا بيننا وبين اعتقادنا بأنه في هذه الأبيات منغمسا في وصف امرأة متغزلا بجمالها وكل ذلك من قبيل المجاز ،وقصده من وراء كل هذه الأوصاف وطلبه للوصال بعد الفراق التغزل بالذات الالهية .

ثالثا/ **الزهد:**

[1]– باقة السوسان – ج2، المرجع السابق ، ص: 131، ينظر ديوان الصبابة – ابي حجلة ، (تح، الأستاذ الشعراني ط، ذي القعدة سنة 1339 هـ)،ص:189.

[2]–أزهار الرياض– شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني ، (ج2 ، المعهد الخليفي للأبحاث المغربية ، بيت المغرب ، د ط)، ص: 319.

الزهد أساس كبير في الدين الحنيف ، وزاهد الأمة الأول الرسول صلى الله عليه وسلم ،إذ عاش عيشة تقشف وزهد في متاع الحياة الدنيا ، وتبعه في هذه المعيشة كثيرون من الصحابة ، وهم مع ذلك يكسبون ما يعولهم هم وأسرهم حتى لا يكونوا عالة وعبثا على المجتمع ، وأخذ الكثيرون من التابعيين يؤثرون هذا الزهد وما يتبعه من التقشف ...ووعظ الوعاظ الكثيرون الذين لم يخل منهم بلد إسلامي فهم يخوفون من عذاب الجحيم ويبشرون الأتقياء والصالحين بأنهم عند ربهم الفردوس جزاء لرفعهم المتاع الدنيوي وإقبالهم على العبادة [1].

والمغرب الأقصى مثله مثل البلاد الإسلامية كثر فيه الزهاد والعباد [2] فكان أشهرهم في العهد الزياني **ابن خميس** الذي طبعت حياته طبيعة الزهد في الدنيا ، ولاسيما بعد نزوحه عن مدينته، وبعد أن فارق الأخلاء والأحباب ،أضف إلى ذلك طبيعته الفقهية التي أسعفته بالقناعة ، والرضا بالقليل والترغيب والخوف من الله العلي القدير ، ويتجلى ذلك في قوله ناصحا غيره مرغبا اياه عن الدنيا.

فَلاَ تَرْجَ مِنْ دُنْيَـاكَ وُدًا فإنَّ يَكُــن فَمَا هُو إلاَ مِثل ظِلِ سَحـَــابِ

وَمَا الحَزْمُ كُلُ الحَــزْمِ إلا اجْتِنَابُهــَا فَأشْقَى الوَرَى مَن تَصْطَفِي وَتُحَـابِي

أبَيْتُ لها ، ما دام شخصيَ ،أن ترى تمـرُّ ببابي او تطـور[*] جنابـــي

فَكَم عَطلَت مِنْ اربُـعٍ ومـــلاعـبٍ وكـَـتم فَرقتْ من أُســَرة وصِحابِ

وكَم عَفرتْ من حــاسِر ومُدَجــَـجٍ وكَم أثْكَلتْ من مُعْصـــر وكَعـــابِ

إَليكُمَ بنــي الدُّنيا نَصيحةَ مُشْفِــقٍ علَيكُم بَصيرٍ بالأُمـــورِ نِقـَــابِ [**]

1- تاريخ الأدب العربي – عصر الدول والإمارات ، شوقي ضيف ، مج 10، المرجع السابق ، ص: 462

2- المرجع نفسه ، ص:462

*- تطور : تقترب

**- النقاب : الخبير الذي يضع الأمور مواضعها أو لديه قوة حدس

طَويلُ مِراسِ الدّهر جَذلٍ مماحـكٍ عريضِ مجالِ الهـمِّ حِلـْسِ رِكـابِ

عَلَى المُصطَفى المُختارِ أزكَى تَحيةٍ فَتلكَ التي أعتدُّ يَـومَ حِسَـابِ

فَتِلكَ عِتَادِي أو ثَنَـاءٌ أصُوغـُهُ كَدَرٍّ سحابٍ أو كـدُرٍّ سَخـابِ [1]

يتراء لنا أن الشاعر في أبياته هذه متشائم من الدّنيا يكره تقلباتها على الإنسان ،والشقي في نظره من يتعلق بها لأن حبها له زائل ، ثم ندّد بجرائمها العديدة فهي التي فرقت بين الأسر والأخلاء ولم يسلم منها الحافي والمنتعل (حاسر والمدجج) فكلاهما مرغته في التراب فأذلتهما، وهي التي أبكت الآباء فأخذت فلذات أكبادهم فأثكلتم ،لذا فما على الإنسان إلا أن يكبح جماح نفسه وأن ويلزمها الزهد والحذر منها بأي أسلوب من الأساليب ،والتزود ليوم الحساب. كلها نصائح نابعة من صميم الشاعر.

رابعا/ الفخر:

إنّ هذا الغرض يتكاثر عند العباقرة والفنانين خاصة ، لأنهم يرون أنفسهم بمنظار غير الذي ينظر به إليهم المجتمع ، الذي كثيرا ما يتجاهل قيمتهم ويهضم حقوقهم ولا يكرمهم بما يستحقون ولا يكون في مستوى ما ينتجون ، وهي بعض الأسباب التي تكمن من وراء شكواهم بالدهر أو الحكام ، ومثل هذا الإحساس بالغبن هو الذي يفضي بهم إلى المبالغة أحيانا في الافتخار بالنفس وبالفن او الاجداد والقبائل .[2]

والفخار من الناحية الأخلاقية غير محبذ ولا مستحسن بدليل قوله :" **إنّ اللهَ لاَ يُحِبُ كُلَ مُخْتَالٍ فَخُور** "[3] ومن هنا الفخار بالنفس أو بالقوم غير مرغوب فيهما من الفقهاء الأدباء لإدراكهم لمساوئ مدح الذات والتبجح بها[4] . ولهذا يتبادر في أذهاننا سؤال ما هو الفخار ؟،ومن الدارسين الذين

---

[1]- نفح الطيب – المقري، (ج 5، تح أجان عباس دار صادر بيروت، 1968م/1388 هـ) المصدر السابق، ص:367-368.

[2]- من أعلام تلمسان –مقاربة تاريخية – فنية ، محمد مرتاض،(دار الغرب للنشر والتوزيع ، وهران 2004 م) ، ص:73

[3]- سورة لقمان –الآية 18

[4]- ينظر الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي – محمد مرتاض ، ج1،المرجع السابق، ص:211

حاولوا تعريفه الباحث **بلاشير**[*] قائلا :" من العسير ايجاد مرادف مقبول لكلمة الفخر ، ولا تثير الكلمة في الذهن فكرة النوع الأدبي بل موقفا يدفع الشاعر على التميز من قبيلته أو الانتصاب تجاه العدو ذاكرا محاسنه وصنائعه الفردية أو مآثر أسرته وعشيرته فيصبح الشاعر لمدة وجيزة مركز عالمه الذاتي ، فإن أقوال الشاعر تتعلق بعامة بنوع المديح إلا أنه يتميز من المديح بنغم وميل إلى التبجح " [1].

ومن الشعراء الذين افتخروا بذواتهم نجد **ابن خميس** الذي تحدث عنه الدكتور محمد مرتاض قائلا : "كان كثيرا ما يحشو مختلف أغراضه بالإشارة إلى مدح الذات لعله كان ناتجا عن انعكاس لما لاقاه من أعدائه وشططهم فلم يلق سبيلا إلى التنفيس عن كربه والتفريج عن حرقه " [2].

ومن فخر **ابن خميس** قوله – السريع –:

يَأْبَى ثَرَاءَ المَال عِلْمِي وَهَلْ ... يَجْتَمِعُ الضِدَانِ عِلْمٌ وَمَالٌ

وتَأنَف الأَرْضُ مُقَامِي بِهَــا ... حَتَى تَهادَانِي ظُهُورُ الرِجَالُ[3]

والفخار هنا جاء مختلفا تماما على فخر الجاهلية فاتسم بالهدوء حيث أشاد بالعلم والعلماء لا غير مكرسا بذلك للقيم والقواعد الأخلاقية وأيضا متغنيا بأيام الصبا :

أأَنْسَى وُقُوفِي لاَهِيًا فِي غِراصِها ... وَلاَ شَاغِلٌ إلاَ التودعُ والسَبْــخُ

وإلاَ اخْتيَالِي مَاشِيًا فِي سِمَاطِهـَا ... رَخْيًا كَمَا يَمْشِي بطرته الـــرَخُ

[*]- بلاشير مستشرق فرنسي ،ولد في باريس 1900م، ثم ارتحل مع أسرته إلى المغرب 1915،وهناك تلقى دروسه في مدرسة فرنسية ،ثم التحق بجامعة الجزائر وحصل فيها على ليسانس 1922 م، وعمل بعدها مدرسا. حتى استدعى إلى باريس ليشغل كرسي الأدب في مدرسة اللغات الشرقية توفي سنة 1973م ،ينظر موسوعة المستشرقين – عبد الرحمن بدوي ،(دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ط3 ، 1993)، ص: 127، والمستشرقون- لنجيب العقيقي، (ط1964،3م، دار المعارف ، مصر) ، ص:316

[1]- تاريخ الأدب العربي – بلاشير (تج ، ابراهيم الكيلاني – ج 1 ، لدار التونسية للنشر ، تونس ، لا ، م ، ر، ك، الجزائر 1986)، ص: 431.

[2]- الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي - محمد مرتاض ،ج1،المرجع السابق ، ص: 212

[3]- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

وَإلاَ فَعَدْوِي مِثْلَمَا يَنْفُرُ الطَـلاَ وَليدًا ،وحَجْلِي مِثْلَمَا يَنْهَضُ الفَــرْخُ[1]

وننصرف نوعا ما عن الفخار الذي يتعلق بميدان الأخلاق إلى ما يتعلق بميدان السياسة وهو ما عرف به **أبو حمو موسى الزياني** حيث كان شعره يمتاز بالاعتدال والتوازن ، ويظهر ذلك جليا في فخره الذي يدور حول ما قام به من أعمال بطولية[2] . فهو يقول مثلا لما شرع في حركته الموفقة لإحياء الدولة الزيانية :

حَالِي يَطُــولُ وَمِحْنَتِي لاَ تَنْقَضي كَم لِي بِمَيْدَانِ الوَغَــى مِنْ مَحْــفَلِ

لاَ بُدَ مِنْ سُوقِ النجوع مُغْرِبًـــا حَتَى تكل منونهـا بالأحْمَـــــلِ

وتَرَى الفَوَارِسَ دَائِرَاتٍ بِالعِـــدَى تسقى لِوَارِدِهَا نَقِيـعَ الحَنْظـــلِ

يَا نَجْلَ عامِرِ سِرْ بِنَا واطو السَرى لَيْلا لَعَلَ الدَّهْرَ يُدْنِي مَنْزِلـــي

يا نَجلَ عَامِرِ دَارِنَا مَـعَ دَارِكُــم قَد عَمَرتَ مِنْ بَعْدنا بالحَنْظَــلِ[3]

عاد بنا أبو حمو موسى الثاني في هذه الأبيات إلى زمن عنترة ابن شداد، وما حفل به من بطولات وانتصارات حققها بفضل شجاعته وفروسيته أيام النزال (الحرب) ،فتصور نفسه مثله في هذه الصفات فضمن قوله في شعره فقد فقال قبله عنترة:

والخَيْلُ سَاهِمَة الوُجُوه كَأنَّمَـــا تُسْقَى فَوَارِسُها نَقيعَ الحَنظَـــلِ[4]

وقد قال في قصيدة أخرى:

جُبتُ الفَيافِي بَـلدَةً بعْـدَ بلـْدةٍ وقَد طَوعْتُ فِيهَا كُلَ بَاغٍ وبَاغِــمِ

1- من أعلام تلمسان – محمد مرتاض ، المرجع السابق ، ص: 67

2- ينظر: أبو حمو موسى الزياني – عبد الحميد حاجيات ، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -1394ه /1974 م)، ص: 210-211

3- زهر البستان في دولة بني زيان – (تح بوزيان الدراجي ،ج 2، مؤسسة بوزياني ، الجزائر 2013)، ص:31

4- ديوان عنترة بن شداد – عنترة بن شداد العبسي (مطبعة الآداب ، بيروت ، 1898 م)، ص: 68 ، وشرح ديوان عنترة بن شداد- الخطيب النبريزي –(دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان 2012)، ص: 128

ومَازِلتُ أَطْوِي سَهْلَهَا وأَكَامـَـها	وأحَطِمها بَين الرُّبَى والهَضَـــائِمِ
ولَمَا بَدَا لِي غَيْهبُ القَومِ ظَاهِـرْا	وَحيهـم بين الظـلاَلِ الغَياهِـمِ
حَمَلتُ عَلَيهِم حَملـَةً مُضْريـــةً	فَولُوا شِرادًا مِثلَ جَفـلِ النَّعَائـِـمِ
وطَاحَتْ عَلَى وَادِ مَلاَلَ هَشائـِـــم	مِن القَومِ صَرعَى للنُسُورِ القَشَاعِمِ
وَهَبتْ رِياحُ النَّصْرِ مِنْ كُلِ جَانِبِ	وَجَاءَتْ إلِيْنَا مُبهَجـَاتُ الغَنَائـِمِ
وعُجْنَا وعَرجْنَا عَلـَى وَادِ يَسَـــرَ	وَجُزنَا المَخَاضَ كَالُليوثِ الضَراغِمِ
وَسِرنَا ضُحَى والنَصْرُ يَهْفُوا أمَامَنَـا	بِرايَاتِ سَعْـدٍ فَوقَنَــا كَالغَمَائـِــمِ
قَدِمْنَا وَكَانَ الفَتْحُ يَرْجُوا قُدُومَـنَـا	وَكَانَ عَلَى الأَعْدَاءِ شَـرُ المَقَــادِمِ
دَخَلتُ تِلمْسَانَ التِي كُنْتُ أَرْتَجِـــي	كَما ذُكِرتْ فِي الجَفْرِ أَهْلُ المَلاَحِمِ
فَخَلَصْتُ مِنْ غُصَابِهَــا دَارَ مُلكِنَـا	وَطَهَرتُهَـا مِنْ كُـلِ بَاغٍ وجَـــــارِمِ
لَقدْ أَسْلمُوهَـا عُنْـوةً دُونَ عِـــدةٍ	لَقدْ طَلَقُوهَا بالقَنَا والصَـــــوارِمِ[1]

قارئ هذه القصيدة يدرك أن أبو حمو موسى قائد جيش ذو بسالة وشخصية بطلة حققت انتصارات عديدة جعلته يعتز بنفسه ،فجاء فخره في أنه قطع الصحراء الواسعة بأكملها ،وجال سهولا وصعد جبالا عالية ،إلى أن جعل اهلها خاضعين لطاعته وتحت ولائه ،ذاكرا ما قام به رفقة جيشه من معارك في مناطق مختلفة فواد يسر في الشرق وواد ملال في الغرب كلاهما شاهدان على ذلك ، إلى ان وصل تلمسان فحقق أمنيته التي من أجلها خاض تلك الحروب ،وهي استرجاعها من غصابها بنو مرين الذين خالفوا العهد الذي أبرموه سابقا ،وفي مقابل ذلك نفى عن نفسه الظلم والعدوان ردا على أعدائه

[1]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد –يحي بن خلدون ، ج 2، المصدر السابق ، ص: 80 -92

بأنه ذو حق ولم يكن يبغ أن تسفك الدماء ،ولكن ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة ،هذا منطقه بعد شد وجذب إلى أن شبه تلمسان بالمرأة التي طلقت بالسهام والسيوف وليس بعدة تعتد بها.

المبحث الثاني :

الأجناس النثرية

ساير النثر الشعر من ناحية النتاج الأدبي ،دون أن يتحداه في ذلك لما تضمنه هذا الآخر من أبيات شعرية كانت دعامة له للوصول إلى مبتغاه ،فتعددت فنونه وكثر كتابه فلقي عناية كبيرة من طرف حكام الدولة الزيانية ،فصار له وقع أكبر على نفوس متلقيه وهذا ما ساعد أصحابه على النهوض به قدما ،والابداع في مضمونه وشكله ليتميز عن الأنواع النثرية التي عرفتها العصور السابقة ،فكان أكثرها انتشارا في عهد الدولة الزيانية ما يلي:

أولا– الوصية :

في حقيقة الأمر هي توجيه سديد ، ونصح خالص ، وإرشاد سليم ، وحث على التمسك بأمر مهم وخطير والوصايا تصدر – عادة – من أناس عمروا طويلا ، وخاضوا كثيرا من التجارب ، وعركوا الحياة وعركتهم ، وخبروا كثيرا من أمورها وشؤونها حتى أصبحوا على دراية كبيرة بعواقب الأمور وعلى علم تام بما ينفع ويضر. وبناء على ذلك نجد أن الوصايا تصدر في الغالب الأعم من أب رحيم على أبنائه أو أم حانية على بناتها أو زعيم راع على قومه (1).

فالوصية من الفنون النثرية التي تحفز البشرية على انشاء جيل يأخذ بالنصيحة وسداد الرأي ،والابتعاد عن طريق الخطأ الذي ربما سلكه الآباء ،فهي سراج يستضاء به الأبناء .

---

[1]– المنجد في الادب والنصوص – محمد علي سعد ،(دار العلم والإيمان ، 2006م)، ص:60

وللوصية دوافع تفرض على ذوي التجارب العريضة والآراء السديدة والعقول المستنيرة أن يقوموا بإصدار الوصايا وإرسالها ، ولعل من أهم هذه الدواعي الشعور بقرب الأجل وانتهاء الأمل ، والاحساس بتغير الأحوال ، ونزول الخطر[1].

وهذا النوع من الفن النثري قديم قدم الانسان عرفه العرب في العصر الجاهلي في شبه الجزيرة العربية ، وانتشر في أقطار العالم بانتشار الإسلام وصولا إلى المغرب العربي وخاصة في عهد الدولة الزيانية ، بسبب انتشار الفتن والصراع الداخلي وبالتحديد في عهد " **أبي حمو موسى الزياني** " الذي ترك لنا كتابا قيما موسوم بـ " **واسطة السلوك في سياسة الملوك** ". ويحتوي على مجموعة كبيرة من الوصايا التي قدمها لابنه أبي تاشفين .

1- محتوى الكتاب :

احتوى كتاب **واسطة السلوك في سياسة الملوك** على مقدمة عن السياسة العملية ،وأربعة أبواب. الباب الأول – هو عبارة عن - نصائح فيما ينبغي على المالك أو الحاكم من العدل والتقوى وصيانة المال والعناية بالجيش. والباب الثاني خاص بقواعد الملك أو الحكم وأركانه، وهي العقل والعدل وحسن السياسة والعناية بالمال والجيش. أما الباب الثالث فهو خاص بالصفات التي تزين الملك والملك والحكم، وهي الشجاعة والكرم والحلم والعفو، ويصرح في خاتمة الكتاب - **تكملة الكتاب** – بأنه وضعه لابنه أبي تاشفين ليتبع نصائحه فيه ، ويستقيم حكمه وملكه [2] يقول :

" وقد وضعنا لك يا بني هذا الكتاب ، وحررنا كلامه من لباب اللباب ، وشرحنا فيه وصايا أخروية وسياسة دنيوية ، وجعلنا لك ما يصلح بين أمور الدنيا والآخرة ،والسعادة الباطنة والظاهرة ، فاجعله منهاجك الذي تقتدي بمذهبه وسراجك الذي تستضيء به ،وبعد حفظك لكتابنا هذا

[1]- المنجد في الادب والنصوص – محمد علي سعد، المرجع السابق، ص:60

[2]- ينظر – تاريخ الأدب العربي –شوقي ضيف ، المرجع السابق ، ص: 226

وإتباعك للأمور الشرعية ، والسياسة الدنيوية فتكون عمدتك كلها التوكل في جميع أمورك على الله سبحانه وتعالى والتفويض له..."[1].

جعل أبو حمو موسى الزياني كتابه هذا ،وما انطوى عليه من وصايا في جميع مجالات حياة الإنسان دستورا لابنه يعود إليه ويسير على منهجه وطريقا منيرا يسلكه في النكبات ،وكل ما ذكره فيه هو صورة حقيقية لتجربة مر بها في حياته ،فأراد ألا تتكرر مع ولي عرشه وحاكم دولته من بعده أبا تاشفين ،فجاءت خاتمة كتابه خلاصة تحمل مقصده من هذه الوصايا . إلى أن ذكر فيها سندا آخر لابنه وهو من الأولويات ألا وهو توكله الكامل على الله عز وجل لإيمانه الكبير بأن بدونه لا يحقق الإنسان مبتغاه، ولو كان له سلطان واسع .

ونقتطف من هذه الوصايا الكبرى الفقرة الخاصة بوصيته عن الشجاعة في الحروب إذ يقول :

" واعلم يا بني إذا كان الملك شجاعا ، كان منصورا مطاعا ، ترهبه الأعداء ،وتطمئن إليه الأولياء ،يعتد به جيشه في مواقع الحروب ،ويخاف سطوته الطالب والمطلوب ،وإذا اقتحمت القتال ،واختلطت الأبطال بالأبطال ،فغايتك أن تكون حاكما على نفسك ، صابرا ثابتا في جأشك ، ناظرا إلى ساقتك التي هي قلب جيشك، فلتلزم بها الثبات ،ولا تزحزح إلى جهة من الجهات ،ولتشد بثباتك الأنجاد والحماة ،والقاتلين الكماة ،وإن انكسر أحد الجناحين من جيشك فلا تهتم به ولا تنتقل بسببه ،فإن انكسار الجناحين مع ثبات القلب لا يضر ،والصبر في مثل هذا عائد عليك بما يسر ،لأنه إذا كانت رايات القلب تخفق وطبوله تزأر كان ذلك حصنا للناجحين ،وأمانا للعسكر من الحين ،وارجى للظفر بالعدو عند رجوع الجانبين"[2].

---

[1]- - واسطة السلوك في سياسة الملوك – أبو حمو موسى الزياني – (المطبعة الدولية التونسية بحاضرتها المحمدية سنة 1279هـ) ص:162- 163 .

[2]- المصدر نفسه، ص: 129

لقد اعتبر أبو حمو شجاعة الحاكم عنصرا أساسيا في بناء حكمه وتغلبه على الأعداء وتحقيقه لانتصارات عدة أثناء خوضه للمعارك، وتمثل مفهوم الشجاعة عنده على أنها ثبات القلب الذي يصحبه الصبر.

و يقول الكاتب **شوقي ضيف** معلقا على هذه الوصية: " وهو ينصح ابنه حين تلتحم المعركة أن يثبت في قلب جيشه ، وإذا رأى في أحد الجناحين انكسارا لا يميل إليه بمن معه من العساكر ، حتى لا يتوش الموقف ويظن أنه منهزم ، وحتى لو انكسر الجناحان فإن ثبات القلب يردهما إلى المعركة ويكتب للجيش النصر ، ويوصي ابنه أن تظل رايات الجيش في قلبه تخفق وطبوله تزأر ليكون قدوة لقواد الجناحين ويعودوا إلى مواقعهم من المعركة ويستمر ابو حمو موضحا لابنه أن الشجاعة لا تكون صحيحة إلا مع الرأي السديد، فتكون مذمومة بل قد تصبح تهورا يؤدي إلى الملك وإلى زوال الملك"[1].

مصير الجيش في المعارك يكمن في مدى شجاعة القائد ،إذا شعر هذا الأخير بالخوف بالتأكيد سينعكس ذلك وبشكل سلبي على العساكر كونهم في الرعيل الثاني ،والقائد في الرعيل الأول يراقبون تحركاته ،وبالتالي يصبح جبنهم من جُبنه، وسداد رأيهم من سداد رأيه.

ثم أردف قائلا : " ولا يلفتنا في هذه الوصية الطويلة ما تحمل من فكر دقيق ولفظ منتخب رشيق فحسب ، بل يلفتنا فيها أيضا انها مسجوعة سجعا محكما ، وهي شهادة قوية بأن النثر الأدبي رقي بالجزائر في القرن الثامن ، بحيث أصبح الكاتب يفكر في جرس كلامه الذي يخطب به سامعه ، وأيضا ليس ذلك فحسب فإن الكاتب يلائم بين الكلمات في السياق بحيث يأتى مع الكلمة بشقيقتها ورفيقتها التي يحسن أن تصاحبها والتي تؤلف معها لونا من التجانس أو الجناس حتى يروق السامع أو القارئ ويجذبه إليه "[2].

---

[1]- تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات – الجزائر المغرب الأقصى، مريتانيا ،السودان، شوقي ضيف ،(مج10 ،ط1، دار المعارف ،القاهرة)، ص: 226

[2]-تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات – شوقي ضيف ،المرجع السابق ، ص: 226 .

وبكلامه هذا فقد نسب أبو حمو موسى إلى أصحاب مدرسة الصّنعة باعتنائه بالشكل أكثر من المضمون، أو إلى فن المقامة الذي يتسم بكثرة المحسنات البديعية وخاصة السجع لإحداث مقطوعة موسيقية صنعها التكلف في اللفظ .

ثانيا: فن الرسائل

1- مفهوم الرسائل:

أ- الرسالة لغة:

عرفها صاحب **لسان العرب ابن منظور** فقال: جاءت مادة (رَسَلَ) من راسله مراسلة فهو مراسل و رسيل . والرسل والرسالة: الرفق والترسل من الرسل في الأمور وجمع الرسائل والإرسال: التوجيه ، وتراسل القوم : أرسل بعضهم إلى بعض [1].

أما **الجوهري في الصحاح** فقال: وأرسلت فلانا في رسالة، فهو مرسل ورسول والجمع رسل ورسل والمرسلات الرياح، ويقال الملائكة والرسول[2].

ب- الرسالة اصطلاحا:

هي لون من ألوان النثر الفني له أصوله وبداياته وأقسامه المتعارف عليها [3]، والمقصود هنا بأقسامه أي الرسائل الديوانية والإخوانية. وعرفها القلقشندي فقال : " هي جمع رسالة والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب من حكاية حال من عدو أو صيد أو مدح وتقريض أو مفاخرة بين شيئين أو غير ذلك

---

[1]- لسان العرب- ابن منظور (ج11، دار صادر بيروت، لبنان،،ط1 ،1994 م/1414 هـ)، ص:281، 283

[2]- الصحاح – الجوهري (دار المعرفة، بيروت، لبنان ،ط 3، 2008م/1429 هـ)، ص:407.

[3]- آثار البراكمة وبني سهل والصوليين على النثر الفني – الرسالة العلمية –(رسالة ماجستر في الأدب لأحمد سعيد أحمد الزهراني ،أ ، م محمود عبد ربه فياض 141 هـ.كلية اللغة العربية جماعة أم القرى – السعودية) ، ص: 273.

مما يجري هذا المجرى ، وسميت رسائل من حيث أن الأديب المنشأ لها ربما كتب بها إلى غيره ،مخبرا فيها بصورة الحال مفتتحة بما تفتح به المكاتبات ،ثم توسع فيها فافتتحت بالخطب وغيرها"[1].

2-بنيات الفعل الترسلي :

المعروف أن كل تواصل لغوي تنبني مقاصده العامة على تحقيق التفاعل بين المرسل والمرسل إليه عن طريق واسطة وهي الرسالة.

ا- المرسل :

وهو الذي يصدر أمر كتابة رسالة وقد يكون صاحب الأمر خليفة أو ملكا أو وزيرا أو واليا أو قاضيا أو شيخا صوفيا ... إلخ [2].

ب-المرسل إليه (المستقبل): قد يكون المستقبل فردا أو جماعة ذا اسم أو بدون اسم واقعيا أو خياليا باعتباره المقصود بالرسالة صراحة ،والشريك المباشر في علاقة التواص الترسلي ونسمي هذا المستقبل غير المباشر مكتوبا إليه وقد يكون المستقبل غير مباشر ويعتبر بمثابة " شاهد " عليها ونقصد به من يقرأ الرسالة على المكتوب إليه ومن يمكنه أن يكون في حضرة المكتوب إليه عند قراءتها .[3]

ج- الرسالة :

الرسالة نمط مميز من أنماط الخطاب كيانا ترسل وتكتب ليقرأها المستقبل (المرسل إليه). [4]، تحدثت عنها الباحثة آمنة الدهري بقولها :

1- صبح الاعشى- للقلقشندي ، (ج 14 ،المطبعة الأميرية بالقاهرة 1919)، ص: 138-139

2- ينظر: الترسل الأدبي بالمغرب – النص والخطاب ، آمنة الدهري ، (ط1 ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية ، سلسلة الرسائل والأطروحات رقم 5)،ص:21.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص: 22

4- ينظر: الترسل الأدبي بالمغرب :النص والخطاب – آمنة الدهري ،المرجع السابق ، ص:22

" أن الرسالة من جهة أمر(أو طلب) بإنجاز فعل كتابتها لغرض ما وبمضمون إبلاغي ما ،ويقوم بهذا الإنجاز الفعلي شخص مأمور عليه وهو الكاتب " [1] .

د- الرسول :

والرسول هو الذي يحمل الرسالة لإبلاغها وعنصر من عناصر الفعل التّرسلي ، وبه تكتمل الصورة الآتية: [2]

مكتوب عنه ⟵ كاتب ⟵ شاهد مكتوب إليه ⟵ مرسل مركب

رسالة ⟵ رسول ⟵ مستقيل مركب

3-أنواع الرسائل:

أ- الرسائل الديوانية:

هي تلك الرسائل الصادرة عن ديوان الخليفة أو الأمير أو الوالي والقاضي لأغراض عديدة ومتنوعة ، وفي مجالات مختلفة من سياسة وإدارة وحرب وسلم [3]، مما يجعلها أداة مهمة لحمل سياسة الدولة ،وقضاء احتياجاتها في أمر ونهي وتعيين وإقالة إلى آخر ما تقتضيه سياسة الدولة ونظام الحكم[4].

إذا هي تلك الوسائل المختصة بمصالح الأمة ، وقوام الرعية [5]،و بهذا المعنى عرفها الباحث جابر قميحة بقوله أن الرسائل الديوانية هي : " التي تتعلق بأمر من أمور الدولة أو الشريعة أو مصالح الناس في

[1]- ينظر:: الترسل الأدبي بالمغرب :النص والخطاب - آمنة الدهري ،المرجع السابق، ص22.

[2]- ينظر ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3]- أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس – سامية جباري ،(د، ط – د، د، ن)، ص: 94

[4]- ينظر ، آثار البرامكة وبني سهل والصقليين على النثر الفني – الرسالة العلمية – المرجع السابق - ص: 273

[5]- أدب الرسائل في المغرب العربي – طاهر توات – (ج1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط 2 ،2010م) ، ص: 165.

الحرب والسلم .[1] وبهذا تعتبر منشورات رسمية تعكس الوجه الرسمي والحضاري لدولة الإسلام وهي تحمل سمات فنية انفردت عن قرينتها في مصر والشام [2].

ومن أهم مميزاتها الفنية أن أفكارها واضحة ومباشرة وأنها رسائل تراعي التقاليد الحكومية، والدقة في الأمر والنهي وغيرها، وغالبا ما يميزها الطول لما في ذلك من تفصيل الأمور التي يحترز من وقوع الإشكال حولها مما لا تحتمله سياسة الدولة[3].

1-العلامة في الرسالة الديوانية:

وتسمى أيضا العلامة السلطانية التي كانت بمثابة الخاتم أو الطابع أو الشعار والخاص اليوم بالممالك والجمهوريات لكنه كان يوضع أو يرسم على المكاتبات المذكورة بالكتابة الخطية فقط ، وكانت تختلف بين الخلفاء والسلاطين والملوك المنتمين إلى المملكة الواحدة[4].

من **الناحية اللغوية:** تعني إشارة خاصة تدل على الشيء وتعينه ،أو السمة ،يقال علم الفرس : علق عليه صوفا احمر أو أبيض في الحرب[5].

ومن **الناحية الاصطلاحية** : يعرفها **ابن الأحمر** : " هي شارة في الكتب كالشهادة الشرعية في العقود ولتوضيح تلك الشارة أو ابرازها على وجه الخطاب فإنها كانت تكتب بقلم غليظ القطعة "[6].

2-وظيفة العلامة:

1- أدب الرسائل في صدر الإسلام – جابر قميحة .(دار الفكر العربي ، ط 1)، ص: 103.

2- أدب الرسائل الديوانية في المغرب والاندلس –سامية جباري – المرجع السابق ، ص: 94، نقلا عن كتاب صبح الأعشى للقلقشندي ج7)، ص:30

3- ينظر آثار البرامكة وبني سهل والصوليين – المرجع السابق ، ص: 274

4- أدب الرسائل في المغرب العربي – طاهر توات ، المرجع السابق ، ص: 102

5- لسان العرب – ابن منظور ،المصدر السابق ، حرف الميم ، فصل العين، ص: 4522

6- أدب الرسائل في المغرب العربي – طاهر توات ، المرجع السابق ، ص:103

من يتولى وظيفة العلامة يجب أن يكون من الأعلام الأفذاذ الذين ضربوا سهم وافر في الأدب والعلوم إضافة إلى جودة الخط يقول **ابن الأحمر**:" وبعض الملوك يقدم لكتبتها ريس كتبته " [1].

وقد استدعى **أبو حمو موسى عبد الرحمن بن خلدون** لتولي منصب الحجابة ومنصب العلامة ، فأبو حمو موسى هو أول ملك زياني اتخذ لنفسه كاتبا خاصا بكتابة علامته وهذا **ابن الأحمر** على حد قوله في مستودعه: "وهو أول ملك من بني زين اتخذ صاحب علامته " [2].

إن كتابة العلامة كانت من الوظائف السامية المقربة من الخليفة أو الملك ، ولهذا انطبق الاسم على المسمى ، حينما أطلق عليها بعضهم وفي المشرق كالمقرزي العلامة السلطانية. [3]

ونجد أحد الباحثين المعاصرين يتحدث عنها قائلا:"كانت هي أرفع رتب الكتابة لدى السلطان"[4].

ومن عبارات العلامة التي وجدت في رسائل ملوك بني زيان نذكر:

علامة " **صح في التاريخ** " لأبي حمو موسى العبد الوادي ،وعلامة "**صح في التاريخ المؤرخ** "(الشكل1) لابي زيان محمد ملك تلمسان [5].

3 – نماذج للرسائل الديوانية في عهد بني زيان :

طبيعي أنه لا توجد رسائل ديوانية في أمة إلا إذا وجدت فيها دولة واتخذت لها كتابا. [6] وإذا عدنا إلى تلمسان وجدنا بني عبد الواد يؤسسون فيها الدولة الزيانية بزعامة يغمراسن منذ سنة 633 هـ

1- أدب الرسائل في المغرب العربي – طاهر توات ، المرجع السابق ، ص:103.

2- ينظر : المرجع نفسه ، ص: 108 ،

3- أدب الرسائل في المغرب العربي – طاهر توات ، المرجع السابق، ص:108.

4- المغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات ،(ج2 ، دار الرشاد الحديثة ، ط2، 1984 م، دار البيضاء ، المغرب)، ص: 107.

5- ينظر ، المرجع نفسه، ص: 106

6- تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات - شوقي ضيف ، مج10، المرجع السابق ، ص:227

/1235م، وتظل تلك الدولة نحو ثلاثة قرون ونصف، وبمجرد أن أسس يغمراسن ملك أسرته أسس فيها الدواوين ، واتخذ أديبا من أبرع الأدباء الأندلسين كاتبا له فهو أبو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقي من أهل مرسية كتب قبله لأمراء غرناطة، ونزل تلمسان فاتخذه كاتبا له غير أنه توفي سريعا سنة 636هـ /1238 م[1].

وقد واصل ملوك بني زيان من اتخاذ الكتاب لكتابة رسائلهم الرسمية فأصبح ذلك تقليدا يعمل به إلى أن جاء عهد أبو حمو موسى الثاني. فسارعوا في استقطاب أحسنهم وأبرعهم كتابة.

قال أحد الكتاب على لسان **أبي حمو موسى الثاني** إلى ابن خلدون :

" أكرمكم الله يا فقيه أبا زيد وولي رعايتكم ،إنا قد ثبت عندنا وصح لدينا ما انطويتم عليه من المحبة في مقامنا والانقطاع إلى جنابنا ، والتشيع قديما وحديثا لنا ، مع ما نعلمه من محاسن اشتملت عليها أوصافكم ، ومعارف فقتم فيها نظراءكم ، ورسوخ قدم في الفنون العلمية ، والآداب العربية كانت خطة الحجابة ببابنا العلي- أسماه الله –أكبر درجات امثالكم ، وأرفع الخطط لنظرائكم قريبا منا واختصاصا بمقامنا واطلاعنا على خطايا اسرارنا آثرناكم بها إيثارا وقدمناكم لها اصطفاء واختيارا فاعملوا على الوصول إلى بابنا العلي – أسماه الله – لما لكم فيه من التنويه والقدر النبيه حاجبا لعلي بابنا ومستودعا لأسرارنا وصاحب الكريمة علامتنا "[2].

حملت هذه الرسالة التي برع كاتبها في خَطِ كلماتها بلغة عربية فصيحة، دعوة من ملك إلى فقيه معروف في العالم الإسلامي عامة والمغرب العربي خاصة ،هو العلامة ابن خلدون بأن يكون حاجبا لدولته العليا ،وهذا الاختيار وقع عليه دون سواه .لاشتماله على أوصاف الحاجب الحق من تمكنه من المعارف والفنون العلمية إضافة إلى هذا كله فقد كان مطلعا على أسرار دولته حافظا لها ،فاستهلت الرسالة بأطيب العبارات لأن المرسل في صدد دعوة شخصية معروفة في المجتمع فاشترط في الرسالة

[1]- تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات - شوقي ضيف ، مج10، المرجع السابق ، ص:231

[2]- أدب الرسائل في المغرب العربي – طاهر توات ، المرجع السابق ، ص: 99- 100

التلطف واختيار عبارات تجعل من المرسل إليه يستجيب لطلب الموضوع في الرسالة بدون تردد منه ،لحاجة المرسل لمثل شخصه (ابن خلدون)،فما كان عليه إلا ذكر محاسنه .وتذكيره بالمهمة المخولة له ليتولاها داخل الدولة الزيانية .فجاءت الرسالة على الشكل التالي :

المرسل ⇐ الرسالة ⇐ المرسل إليه ⇐ العلامة

(أبو حمو موسى) (الاشادة بفضل المرسل إليه ودعوته لتقرب إلى باب المرسل) (ابن خلدون) (صاحب الكريمة)

ومن الرسائل ما تحمل في طياتها مسائل سياسية محضة تلك التي وجهها الوزير أبو هلال القطلاني(*) باسم أبا تاشفين الأول (ت 737 هـ) إلى جاكمة الثاني ،ويتعلق الموضوع بتحرير أسرى المسيحيين الموجودين بسجون تلمسان ،والذين أصبحوا في عداد العبيد ،وهي رسالة جوابية إلى صاحب أرغون ،فقال فيها : " **أما ما أشرتم إليه من تسريح من عندنا من الأسرى ،فذلك لا يمكن أن يكون ،لأن ما عمر بلدنا إلا الأسرى وأكثرهم صناع متقنون في أنواع جميع الصناعات ولو طلبتم ما يستغني عنه الحال في تسريح خمسة أو ستة لا يسعنا مطلبكم وقضينا أربكم ،وأما تسريح الجميع فصعب لأن ذلك يحلي المواضع ويعطل ما يحتاج من أنواع الصنائع ،فإن أردتم أن تكون الصداقة بيننا ،فيما عدا الأسرى ويكون حالنا وحالكم** ..."[1].

توضح هذه الرسالة سياسة الملوك وحنكتهم ،وصرامتهم في مسائل المتعلقة بأمن دولتهم وابعادهم عنها كل ما يهز استقرارها الداخلي والخارجي وخاصة مسألة الأسرى المسيحين، فجاء رد أبو تاشفين في محله متخذا قرارا وسطا لا جدال فيه محذرا في أخر الرسالة من اصرار المرسل إليه في طلب جميع أسراه

*- هو من الاعراج (عناصر من جنسيات أوروبية مختلفة) أحضره المسلمون إلى غرناطة حيث أهداه السلطان الغرناطي محمد الثاني الأحمر (701هـ) إلى السلطان الزياني يغمراسن (ت 703 هـ)والذي سار إلى السلطان أبو حمو موسى الأول (ت 718 هـ) والذي دفع به إلى ابنه أبي تاشفين (ت 737 هـ) وكان قريبا إليه حتى اصبح من خلصائه فولاه الحجابة والوزارة .

1- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي ،ج2،المرجع السابق ، ص: 459

لأن هذا سينهي الصداقة بينهما ،وهذا يجعلنا ندرك أن الدولة الزيانية كانت تعيش في عز قوتها غير خاضعة لأوامر الدول الأجنبية.

ب- الرسائل الأدبية(الاخوانية):

الرسالة الشخصية أو الإخوانية هي الرسالة التي تتناول موضوعا خاصا بين شخصين تربط بينهما غالبا علاقة إنسانية أو علاقة نسبية كالمصاهرة والأخوة والأبوة ، كالرسائل بين الأصدقاء والأقارب في الموضوعات الأسرية ، والمناسبات السارة أو المحزنة ، وما شابه ذلك[1].

وهذا ما أكده القلقشندي بقوله: " الإخوانيات جمع إخوانية نسبة إلى الاخوان ، والمراد المكاتبة الدائرة بين الأصدقاء "[2].

وعرفها بعض الدارسين قائلا : " **إن الرسائل الإخوانية شعر غنائي منثور يجد فيها كاتبها متنفسا حرا بعواطفه لا يقيده فيها وزن ولا قافية ، وهي أقرب فنون النثر إلى الشعر ، وهي تعبير عن عاطفة شخصية** "[3].

فهذه الرسائل هي بصدق متنفس للخلجات والعواطف الشخصية بدون قيود ، وبهذا تختلف عن الرسائل الرسمية التي تحدث عنها صاحب صبح الاعشى :" **وتسهل له (الكاتب) فيها ما لا يكاد أن يتسهل في الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغير ولا تتجاوز** " [4] والكتب المقيدة بالأمثلة والرسوم في مقصود القلقشندي هنا هي الرسائل الديوانية.

1- أدب الرسائل في صدر الإسلام – عهد النبوة – جابر قميحة ، ج1، المرجع السابق ، ص: 103.

2- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، القلقشندي (ج8، دار الكتب السلطانية ، القاهرة 1915 م)، ص: 126.

3- أدب الرسائل في المغرب العربي – طاهر توات – المرجع السابق ، ص: 8 ، نقلا عن كتاب صبح الأعشى ج9، ص:5

4-. صبح الأعشى – القلقشندي ، المصدر السابق ، (ج 9، دار الكتب السلطانية ، المطبعة الاميرية ن القاهرة ، 1334/1916 هـ) ، ص:5

ويعرفها الباحث طاهر توات بأنها " **ميدان فسيح معد للسباق حيث تظهر فيه مدى قدرة الكاتب ومهارته الإنشائية** "[1] .

فكاتب هذا النوع من الرسائل يشعر أثناء تدوينه لها بحرية تجعله يسترسل في حديثه دون قيود تكبل تفكيره وعواطفه، وتلزمه بقواعد لا يجب تخطيها.

أما بالنسبة إلى السبب الرئيسي الذي أدى إلى نشأة هذا النوع من الرسائل فقد أرجعه الكاتب **غانم جواد رضا** إلى اتساع نطاق الفتوحات الإسلامية واستمرارها وما تبع ذلك من استقرار العرب المسلمين في تلك البقاع النائية التي فتحوها وتباعد بعضهم بعض ، فكل ذلك كان حافزا قويا لتبادل الرسائل الخاصة بينهم حيث شرعوا يكتبون رسائل الأشواق التي يبثون فيها ما يجول في نفوسهم من حنين وتطلع إلى اللقاء[2].

ومن أهم الخصائص التي ميزتها عن الرسائل الرسمية تحررها من القيود فيجد فيها القارئ المرتع الخصب واللمسات البيانية الإبداعية وتتجلى فيها السمات الأدبية التي تندر في غيرها لأنها تصدر من ند إلى ند،إذ ينعدم التكلف بين الأنداد ، وذلك هو الحافز في تجليتها في جو الإبداع والجمال[3].

1-موضوع الرسائل الأدبية:

لقد تعددت موضوعات الرسائل الأدبية بتعدد أنواعها فقد عددها **القلقشندي** حتى أوصلها إلى سبع عشرة نوعا : " **التهاني، والتعازي، والتهادي، والشفاعات ،والتشوق، والاستزارة**

1- ادب الرسائل في المغرب العربي – طاهر توات – المرجع السابق،ص:19

2- ينظر آثار البرامكة وبني سهل والصوليين على النثر الفني ، المرجع السابق ،ص:284، نقلا عن كتاب الرسائل الفنية في العصر الإسلامي ،ص: 292-293.

3- ينظر ، المرجع نفسه، ص: 285

،الاختطاب،المودة ، وخطبة النساء ، والاستعطاف ،الشكوى ، استماحة الحوائج ،والشكر ، والعتاب ،والسؤال عن حال المريض ، والأخبار والمداعبة ".[1]

اما بالنسبة الرسائل الأدبية في عهد الدولة الزيانية ،فلم تخرج عن نطاق هذه الموضوعات :

أ- الشوق والحنين:

الإنسان يشعر بالراحة والاطمئنان حينما يكون بجانب إخوته وأصدقائه وإذا ابتعد عنهم بحث عن وسيلة لتهدئة شوقه ، وليعبر عن الحنين إلى لقائهم مرة أخرى برسالة جامعة شاملة فهناك من الكتاب من اعتبروا خلو رسائل الشوق من الإطناب شرط أساسي لابد من مراعاته ، ومنهم القلقشندي الذي قال :

" وينبغي للكاتب أن يجمع لها (رسائل الشوق) فكره ، ويظهر فيها صناعته ، ويأخذ في نظمها مأخذ اللطافة والرقة ، يدل على تمازج الارواح ، وما يجري هذا المجرى ، وأن يستخدم لها أعذب لفظ ، وألطف معنى ويذهب فيها مذهب الإيجاز والاختصار ويعدل عن سبيل الإطناب والإكثار لئلا يستغرق جزءا كبيرا من الكتاب فيمل ويضجر ،وينتظم في سلك الملق والتكلف اللذين لا يعتادهما المتصافون من الاصدقاء"[2].

* **نماذج لرسائل الشوق والحنين في عهد بني زيان :**

يقول **ابن خطاب** (*)كاتب مملكة عبد الواد في إحدى رسائله:

---

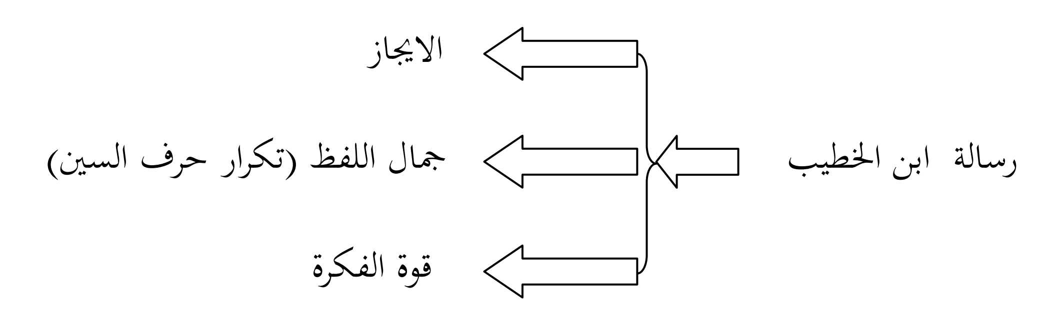
[1]- صبح الأعشى – القلقشندي ، المصدر السابق ، ج9. ص:5.

[2]- المصدر نفسه، ص:142.

*- هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن الخطاب المرسي (نسبة إلى مرسية) ، مولدا ومنشأ التلمساني دارا، وفد مع جالية شرق الأندلس فاستكتبه يغمراسن بن زيان ،وقد استقدمه المستنصر الحفصي إلى تونس وبعث إليه بمال فرده عليه وبقي مقيما بتلمسان على خطته إلى وفاته ،فكان كاتبا بارعا صدرت عنه عدة رسائل في مخاطبة خلفاء مراكش وتونس /ينظر=إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر – محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان (مج 1، ط1،2001، دار النشر : هـ، داود بريكسي تلمسان)، ص:221

" سلامي يتسم مسكا وينتسق سلكا يعرس بساحتك ويستقبل أسرة سماحك وتستمع بنسيمه ووسيمه أحسن استمتاعا ويستدني مسامتك ،لباسوا سقام استحاشي بتناسيك ،وينسي نفسي أساها بتنعيسك ،واستجلب مسرتي بإسعادك ، فعساك سقيت مسائحك وحرست مسامحك، وتعس منافسك ، ونكس مشاكسك ، واستد ساعدك ، واستبد بالبوس حاسدك..." [1].

حرص ابن خطاب على التزام حرف السين في جميع كلمات رسالته هذه لأن السين من الحروف المهموسة ولما تحدثه في القلب من شعور بالراحة والاطمئنان الداخلي لسامعها ودلالتها على مشاعر الحزن والأسى الذي ينتاب صاحب الرسالة. وما نلاحظه أيضا تكلف الكاتب في انتقاء الالفاظ التي تحتوي على حرف السين ،وهنا بالتأكيد تجلت مهارته في الجمع بين الايجاز وجمال اللفظ وقوة الفكرة .



ننتقل مع بعض إلى رسالة أخرى في نفس الموضوع محاولين استشفاف ألفاظها ،وما انطوت عليه من معاني الشوق والحنين التي لم تغادر صاحبها إلى أن يأتي الفرج بعد شدة عان منها صاحبها ، فلم تختلف هذه الرسالة عن سابقتها من حيث جودة انتقاء ألفاظهما ،وطريقة صياغتها وأسلوبهما الجياش .اسمع إلى قول لسان الدين بن الخطيب(*):

" أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج ،واما الصبر فسل به أية درج ، بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج ، لكن الشدة تعشق الفرج ،والمؤمن يشق من روح الله الأرج ،وأني بالصبر على

---

[1]- أدب الرسائل في المغرب العربي – طاهر توات ، المرجع السابق، ص: 19،

(*)- هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الملقب بلسان الدين بن الخطيب ولد بمدينة لويشة ونشأ بغرناطة قصد المغرب ونزل سبتة ومنها سار إلى تلمسان عام 773 هـ، ،وكان كاتبا وشاعرا ومصنفا قد بلغ في الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما .

إبر الذبر ومطاولة اليوم والشهر ،حتى حكم القهر ،وهل للعين أن تسلو سلو المقصر عن إنسانها المبصر ؟ او تذهل ذهول الزاهد عن سرها الرائي والمشاهد ؟ وفي الجسد مضغة يصلح إذا صلحت فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت ؟ وإذا كان الفراق هو الحمام الأول فعلام المعول ؟ أعيت مراوضه الفراق على الراق وكادت لوعة الاشتياق أن تقتضي إلى السياق:

تركتموني بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا

أقرع سني ندما تـــارة وأستميح الدمع احيانـــا " [1].

توضح هذه الرسالة على أن بعد الأجساد صاحب بعد المسافة بين الخلان وكلاهما زاد من قرب القلوب ،فتأججت مشاعرهما وتعطشت للقاء ، فنعم صديق تصاحب يذكرك إذا غبت يعبر لك عن اشتياقه بكل صدق ،وهذا ما قصده ابن الخطيب من رسالته إلى صديقه ابن خلدون ،فابدع في تصوير صداقته التي تجلت لديه في صورة تكامل الجسد والقلب ، فتمثل في صورته هذه جسدا رحل عنه القلب فكتب له بذلك الموت مرتين موت الفراق والموت كباقي الناس ، فأصبح في حالة احتضار يصارع الموت البطيء، يناشد أصدقائه في بيتين من الشعر ختم بهما رسالته معبرا فيهما عن تراكم الأحزان عليه بسبب الوحدة التي لم تفارقه يقرع أسنانه أحيانا ويستبيح دمعه أحيانا أخرى حتى الصبر لم يحالفه فما الحل يا ترى؟ هل هو اللقاء بعد الفراق ؟ أم تبادل الرسائل بدون لقاء؟.

[1]- إرشاد الحائر إلى أثار أدباء الجزائر – محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان ، المرجع السابق ، ص:265

ب–رسائل التعزية:

التعزية من الأغراض التي تناولها الكتاب في رسائلهم ،وتصور تلك الرسائل المصاب الأليم وماله من وقع أليم على النفوس ،وغالبا ما تتضمن معاني الدعوة إلى الصبر ، والجَلد والتسليم بقضاء الله وقدره ، وتسلية أهل الفقيد والتخفيف عنه والدعاء له بالعوض ويذكر محاسن الميت[1].

قال القلقشندي : " **المكاتبة في التعزية بالأحداث العارضة في هذه الدنيا واسعة المجال: لما تتضمنه من الارشاد إلى الصبر والتسليم إلى الله جلت قدرته وتسلية المُعَزَّى عما يُسْلبِه بمشاركة السابقين به ووعده بحسن العوض...**" [2].

* **نموذج لرسائل التعزية:**

يقول الكاتب **ابن خطّاب** في خطاب تعزيته إلى الأمير أبي سعيد في وفاة والده الأمير يغمراسن : **" هنأ الله مولانا هذا الصنع الذي نسخ كل كرب وأدخل النور في كل قلب ، وأجل الصنائع موقعا وأنوارها مطلعا ما أهدى الجزل إلى الصدور ومحا أثر الحزن منها بيد السرور وأعقب العزية التهنئة كما عقب الظلام بالنور "**[3].

في هذه الرسالة قد مزج صاحبها بين التعزية والتهنئة للتخفيف من حزن المرسل إليه (الأمير أبي سعيد) وولعه لوفاة والده، فشبه التعزية بالظلام والتهنئة بالنور الذي يزيح غياهب الظلام ويكمن في شعور المعزى بالحزن الشديد للمصاب الجلل وهو وفاة أحد الأقارب مما يستلزم وجود مساند يقف بجانب هذا الأخير ،وقد أظهرت هذه الرسالة قدرة الكاتب في اخراج المرسل اليه (المعزى) من حالة

---

[1]– فن الرسائل في العصر المملوكي دراسة تحليلية –(رسالة ماجستر في الأدب والنقد لرشا فخري النخال ، 2013- 2014 م، الجامعة الإسلامية – غزة)، ص:88.

[2]– صبح الأعشى – القلقشندي، المصدر السابق ، ص:80

[3]– أدب الرسائل في المغرب العربي– طاهر توات – ج 2، المرجع السابق ، ص: 63.

اليأس والإحباط إلى حالة التفاؤل وتقبل الواقع، وهذا ما كانت تصبو إليه دائما رسائل التعزية في نهاية الأمر لا لغرض آخر.

ج- رسائل الشكر:

وهي رسائل تحمل في طياتها عبارات الثناء والمدح موجهة لشخص أو صديق قام بمعروف عاد بالمنفعة الخاصة أو العامة ،فاستلزم شكره وابداء الفرح لما فعله، عرفانا لمجهوداته وتشجيعا له لسير قدما.

يقول القلقشندي:

" رقاع الشكر يجب ان تكون مودعة من الاعتراف بأقدار المواهب ،وكفاية الاستقلال بحقوق النعم ن والاضطلاع بمجمل الأيادي ،والنهوض بأعباء الصنائع ،ما يشحذ الهمم في الزيادة منها ،ويوثق المصطنع بإضافة الصنع ويعرب عن كريم سجية المحسن إليه ،وينبغي للكاتب أن يفتن فيها ،ويقرب معانيها ،وينتحل لها من الفاظ الشكر أنواطها بالقلوب : لتستيقن نفس المتفضل أنه قد اجتنى ثمرة تفضله ،وحصل من الشكر على أضعاف ما بذله من ماله أو جاهه..." (1)

ومن نماذج هذه الرسائل نستعرض رسالة بعث بها محمد بن يوسف السنوسي التلمساني(*)إلى الشيخ المغيلي(**) ليشكره على خدمته للدين الإسلامي في حادثة هدم كنائس اليهود بتوات هذا نصها:

1- صبح الأعشى – القلقشندي، المصدر السابق ، ص: 184

*-السنوسي : هو محمد بن عمر بن شعيب عبد الله السنوسي كبير علماء تلمسان وزهادها نشأ بتلمسان وبها توفي عن ثلاث وستين سنة، له عدة رسائل ووصايا ومواعظ ، ص: ينظر : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر – عادل نويهض (مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت – لبنان ، ط 2، 1400 هـ/ 1980 م)، ص: 180، وارشاد الحائر غلى آثار أدباء الجزائر –المرجع السابق، ص: 342

** – المغيلي هو محمد بن عبد الكريم بن محمد فقيه ، مفسر ، متكلم ، له نظم ، نسبته إلى مغيلة ، قبيلة من البربر نشأ بتلمسان ، كان في سفره ن ينشر أحكان الشرع ويحض على الأمر بالمعروف والنعي عن المنكر ، توفي في توات ، من=

" من عبد الله محمد بن يوسف السنوسي إلى الأخ الحبيب القائم بما اندرس في فاسد الزمان من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي القيام بها لا سيما في هذا الوقت علم على الاتسام بالذكورة العلمية والغيرة الاسلامية ،وعمارة القلب بالإيمان السيد أبي عبد الله الكريم المغلي حفظ الله حياته وبارك في دينه ودنياه وختم لنا وله ولسائر المسلمين بالسعادة والمغفرة بلا محنه يوم نلقاه بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،فقد بلغني أيها السيد ما حملتكم عليه الفيرة الإيمانية والشجاعة العلمية من تغيير أحداث اليهود –أذلهم الله –كنيسة في بلاد الإسلام وحرصكم على هديها وتوقف أهل تمنطيطة فيه من جهة من عارضكم فيه من أهل الأهواء فبعثتم إلينا مستنهضين همم العلماء فيه فلم أر ممن وفق لإجابة المقصد ،وبذل وسعه في تحقيق الحق وشفاء الغلة ولم يلتفت إلا لقوة ايمانه ونصوع إيقانه لما يشير إليه الوهم الشيطاني من مداهنة من يتقي شوكته سوى الشيخ الإمام القدوة الحافظ المحقق علم الأعلام أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي –امتع الله به – جزاه الله خيرا قد امد لإبانة الحق ونشر أعلامه النفس وحقق نقلا وفهما فبالغ فأبدى من نور إيمانه الماحي ظلمه أعظم قبس"[1]

تصور هذه الرسالة ذلك الدور الذي لعبه أهل الدين في خدمة الإسلام ،ونبذهم لعقيدة اليهود في بلاد المغرب انطلاقا من هدم أماكن عبادتهم (الكنائس)،قابلها تخوف العلماء من انزلاق أهالي المغرب عن دينهم ،وهذا ما حرص عليه الشيخ المغلي إلى جانب ذلك عدم تجاهلهم للخطر الذي كان في عقر دارهم ، فكان تصديهم له نتيجة لحنكة وفطنة هؤلاء الذين لهم غيرة على دينهم فما على الناس إلا شكرهم لما قدموه للإسلام.

ثالثا : أدب الرحلة

=مؤلفاته " البدر المنير في علوم التفسير " ، ينظر : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر – عادل نويهض ،المرجع السابق، ص: 308

[1]– إرشاد الحائر إلى أدباء الجزائر – محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، المرجع السابق ، ص: 344

1- الرحلة ودوافعها

الرحلة قديمة قدم الانسان مرتبطة بغريزة حب المعرفة لديه ، وحتى في تللك الفترات التي كانت مستهلكا دون انتاج ، كانت الرحلة حيلته وهي التي كانت تحقق له أغراضه لذا فإن جميع الأمم قد عرفت الرحلات في جميع أشكالها لكونه مرتبطة بالنشاطات الانسانية ، ولم تفقد الرحلة مهامها المتعددة إلى الآن ، ومازالت تطلع إلى ما لم تطمح إليه قبل استكشاف الاعماق والآفاق فدورها ريادي حالم منذ فجر الانسانية ، وحتى وقتنا لم يكف البشر عن الترحال وسواء كانت الرحلة للصيد ، أم للتجارة أم للاستكشاف وسواء كانت برية أم بحرية أم في عالم المجهول المحلى بالأساطير فإنها أعانت الإنسان على الشعور بوجوده في التعامل مع بيئته ، ووفرت كثيرا من حاجاته بوسائل متعددة بل تعددت الاجتهادات البشرية في ابداع هذه الوسائل ومازالت في تطور مطرد[1].

يتحدث فؤاد قنديل عن أنواع الرحلات التي يخوضها الانسان قائلا :"والحق أن الإنسان منذ أن يولد حتى يموت هي رحلات دائبة تعددت أشكالها بمرور الأيام وتغير الظروف والأحوال ، بل إن لحظات ميلاده تعد رحلة من رحم الأم إلى دنيا البشر ، وما وفاته ودفنه إلا رحلة ينتقل فيها من دنيا البشر إلى رحم الأرض تمهيدا لمرحلة نهائية وسرمدية تبدأ يوم ينفخ في الصور ، وهناك رحلات أخرى متباينة على طريق العلم من مرحلة إلى مرحلة وعلى طريق النضج من عمر إلى عمر ، وفي إطار التشكيل الاجتماعي هناك رحلة من العزوبة والفردية إلى الزواج وتكوين الأسرة وهناك رحلات داخل الوطن ، كالانتقال من قبيلة إلى أخرى أومن القرية إلى المدينة أو من البدو إلى الحضر، ورحلات من داخل الوطن إلى خارجه، وتتسع مساحة الحركة وتمتد الرحلة لتصبح رحلة من الأرض إلى القمر والكواكب"[2]

وقد تعددت الدوافع التي تحمس الانسان للرحلات وتختلف من شخص إلى آخر ومن قوم إلى قوم ، ومن عهد لعهد إلا أنها في الأغلب لا تخرج على أن تكون :

أ-دوافع دينية:

[1]- فن الرحلة في المغرب العربي القديم- اسماعيل زردومي (رسالة دكتوراه دولة، جامعة باتنة 1424-2004م)= ص:1-2

[2]أدب الرحلة في التراث العربي- فؤاد قنديل ،(مكتبة الدار العربية للكتاب ، ط2 ، 1423 هـ - 2002 م ،القاهرة)، ص:18-

كأن يرتحل للحج إلى الأماكن المقدسة تلبية لنداء الرحمن وتوبة وتطهيرا للنفس من دنس الذنوب ، وعهدا للسير على الصراط المستقيم وأملا في المغفرة، [1] فاحتلت الرحلة الحجازية إلى الأماكن المقدسة المرتبة الأولى بين الرحل ،لأن هذه الأماكن تتمتع بمكانة عالية عند المسلمين في كل الأصقاع فالحج من أهم البواعث للرحلة لما كان يتمتع به المجتمع المغربي المسلم من تمسك بالقيم الروحية فكان أقصى أماني المسلم ، أن تتاح له فرصة زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان يتحمل المشاق والأخطار في الطريق إضافة إلى مشاعر الغربة والبعد عن الأهل والأصحاب وكل ذلك عن رغبة وطيب خاطر[2].

ب–دوافع علمية أو تعليمية :

بغرض الاستزادة من العلم في منطقة أخرى من العالم [3]، فسميت رحلة في طلب العلم وهذه الرحلة تتعلق بسبب أو بآخر بالناحية الدينية لأن الإسلام حض على طلب العلم وفرضه على كل مسلم ومسلمة ، لذا فقد اهتم طلبة العلم منذ القديم بالرحلة فقطعوا الصحاري والقفار بحثا عن فائدة أو سماعا لحديث أو رجاء لقاء عالم حتى أصبحت الرحلة فيما بعد شرطا لازما للعالم عموما ولعالم الحديث خصوصا [4]. يقول قنديل فؤاد في هذا الشأن : "وتذكر كتب الحديث والسير أن من الفقهاء والعلماء من كان يقطع القفار ويعبر الأنهار طلبا لحديث نبوي سمع به أو لمجرد التحقق من كلمة فيه وقد فعل ذلك عبد الله بن عباس والغزالي وابن منده والأحنف العكبري الشاعر..." [5].

د–دوافع سياسية :

---

[1]–أدب الرحلة في التراث العربي– فؤاد قنديل ، ص: 19

[2]– أدب الرّحل في المغرب والاندلس، علي إبراهيم كردي . (الهيئة العامة السورية للكتاب . دمشق 2013 م) ، ص: 12

[3]– ادب الرحلة في التراث العربي – قنديل فؤاد . المرجع السابق ، ص: 19

[4]–ينظر ، أدب الرّحل في المغرب والأندلس ، علي إبراهيم الكردي ،المرجع السابق ، ص:13

[5]–أدب لرحلة في التراث العربي – قنديل فؤاد – المرجع السابق ، ص:19

كالوفود والسفارات التي يبعث بها الملوك والحكام إلى ملوك وحكام الدول الأخرى ، لتبادل الرأي وتوطيد العلاقات أو لمناقشة شؤون الحرب والسلام أو تمهيدا لفتح أو غزو[1].

هـ-دوافع سياحية وثقافية:

تصدر عن رغبة في الطواف نفسه والسفر لذاته وحب التنقل وتغيير الأجواء والمناظر ، ومعرفة الجديد من خلق الطبيعة والبشر ، واكتساب الخبرة بالمسالك والطبائع وقد تكون لتعرف على المعالم الشهيرة كالآثار والمنارات والأبراج أو الكهوف والغرائب والعجائب .[2] ومن امثلة الرحلة السياحية رحلة ابن بطوطة .

و- دوافع اقتصادية:

وتكون إما للتجارة وتبادل السلع أو لفتح أسواق جديدة لمنتجات محلية، أو لجلب سلع تتوافر في بلاد أخرى وتندر في بلد المسافر، وقد يكون هربا من الغلاء وسعيا وراء الرخص واليسر والوفرة أو العمل[3].

ي- دوافع صحية:

كالسفر للعلاج او الاستشفاء ، أو إراحة النفس من الوان العناء وتخليصها من الكدر كالارتحال إلى المناطق الريفية ونحوها، وقد يكون هربا من وراء او طاعون أو تلوث[4].

2- تعريف أدب الرحلة:

1- أدب للرحلة في التراث العربي – قنديل فؤاد – المرجع السابق ، ص: 20

2- ينظر : المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

3- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

4- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

أدب الرّحلة هو الأدب الذي يصوّر فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها.

فقد ذكرت نوال عبد الرّحمن شوابكة، بأن أدب الرّحلة فنّ تغمره الحياة ويزخر بالتجارب الحية، والحركة، والانتقال من مكان لآخر[1].وهناك من اعتبره فناً من فنون الأدب العربي ، وهذا ما قاله شوقي ضيف رداً على من اتهموه بالقصور: " إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربي، ونقصد تهمة قصوره في فن القصّة. ومن غير شكّ من يتهمونه هذه التهمة لم يقرؤوا ما تقدمه كتب الرّحلات من قصص..."[2].

ويعرفه أيضا الكاتب حسين محمود حسين بقوله: "نمط خاص من أنماط القول الأدبي"[3]. وقد ورد في معجم المصطلحات الأدبية أن أدب الرحلة هو: "مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات، وسلوك، وأخلاق وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلةً مرحلة، أو يجمع بين كلّ هذا في آن واحد"[4].

ويرى الدكتور أنجيل بطرس أن " أدب الرحلات هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلات الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحّال إلى بلد من بلاد العالم، ويدون وصفاً لها يسجّل فيه مشاهداته،

وانطباعاته بدرجة من الدّقة، والصّدق، وجمال الأسلوب"[5].

3- أشهر الرحالة في العهد الزياني (المقري سيرة ومسيرة):

[1] – أدب الرحلات الأندلسية والمغربية – نوال عبد الرّحمن شوابكة، (دار المامون عمان، ط1 ، 1429– 008) ص: 243

[2] – الرحلات – شوقي ضيف – (دار المعارف – القاهرة، ط4) ص : 6

[3] – أ دب الرحلة عند العرب – حسين محمود حسين – (دار الأندلس، لبنان، ط3، 1429 – 2008 م)، ص:9

[4] – الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية ق 4 هـ) – ناصر عبد الرزاق الموافي،(ط1 ،1995م).،ص : 38

[5]– المرجع نفسه ، ،ص : 48

شدّ طلاب العلم من أهل تلمسان رحالهم إلى مختلف الحواضر المغربية والأندلسية والمشرقية ، تدفعهم الرغبة في الاستزادة من العلم على كبار شيوخ هذه الحواضر، وهؤلاء الرحالة التلمسانيين الذين تجشموا مشقة السفر في سبيل الدرس والتحصيل والتعمق في العلم والمعارف حتى صاروا شيوخا علماء ، ساهموا بقسط كبير في إثراء النهضة الفكرية والتعليمية في أقطار المشرق والمغرب ، التي حلو بها خلال العهد الزياني ومن الأسر التي اشتهرت بالترحال نذكر منهم آل مرزوق ، آل التنسي وآل المقري وآل الشريف التلمساني وآل النجار وبنو أبي الحسن وبنو أبي العيش ، وآل زاغو والسراغنة وغيرهم من البيوت والأسر التي أنجبت العديد من العلماء والفقهاء والأدباء[1].

ومن هذه الأسر سنتحدث عن أحد أفراد أسرة آل المقري وهو الرحالة الشهير أبو عبد الله محمد المقري [*]

أولا: مؤلفاته :

فقد كان المقري عالما تفتخر به تلمسان في تلك الفترة ،وقد نال هذه المرتبة بعزيمته وصبره ، فتعلم على أيدي مجموعة من العلماء ،وهو بدوره علّم أجيالا كانت ندا للدولة الزيانية ،وفخرا للحضارة

---

[1]- ينظر : تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق ،ص: 329.

[*]- ولد المقري بتلمسان في تاريخ لم يضبطه عندما كتب ترجمته الذاتية ،ولم يحدده أحد من مترجميه القدامى وإنما أفادنا هو نفسه أن مولده كان في عهد الأمير الزياني موسى بن عثمان بن يغمراسن المعروف بن أبي حموالأول ، الذي ولى الحكم بتلمسان من سنة 707 هـ إلى سنة 718 هـ.فقال: "كان مولدي بتلمسان أيام أبي حمو بن عثمان بن يغمراسن بن زيان وقد وقفت على تاريخ ذلك ولكني رأيت الصفح عنه ". يبدو أن ظاهرة عدم التصريح بتاريخ الميلاد كانت مشتهرة أوساط علماء ذلك العصر ،حيث أننا نقف عند تاريخ وفاة العديد من العلماء المشهورين دون تاريخ ميلادهم ،واقتدى بالسلف " أبو البركات محمد بن محمد ابن ابراهيم البلفيقي السلمي "(ت 771 هـ– 1370 م) فقد أنشد أبياتا عندما سئل عن سنه فقال:

احْفِظْ لِسَانَكَ لاَ تَبحْ بِثَلَاثَة ‏ ‏ سِنٍّ ومَالٍ ،إنْ سُئِلتَ ومـَذْهَـب

فَعَلَى الثلاَثَةِ تُبتَلَى بِثلاَثَةِ ‏ ‏ بِمُكفِـــرِ وبِحَاسِـد ومُكَـذّبِ

ينظر: الامام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني- محمد الهادي ابو الأجمان (الدار العربية للكتاب 1988) ص:30. و أزهار الرياض – أحمد المقري ، (ج 5 ، تح ، سعيد أحمد عياض – عبد السلام هراس) ، ص:28. ونفح الطيب – أحمد المقري ، ج 5 ، المصدر السابق، ص: 2

الإسلامية ، فجاءت زبدة أسفاره إلى بلدان عدة ،وبحثه عن العلم ،بستانا مثمرا وماء عذبا سقى به كل متعطش للأدب ، إمّا شعرا أو نثرا، فأثرى المكتبة العربية بعدة مؤلفات في جميع المجالات فكان أهمهافي أدب الرحلة:

دون **المقري** رحلته في مؤلف أسماه " **نظم اللئالي في سلوك الأمالي** " ، فتحدث فيه عن رحلته في طلب العلم ، وشيوخه في مختلف المراكز العلمية التي زارها بالعالم الإسلامي[1] ، فما مسار رحلته؟

ثانيا: مسار رحلة المقري العلمية :

كانت الرحلة العلمية من أهم ما يحرص عليه الطلبة وكان **المقري** يقدرقيمتها ، ويراها أهم من التأليف التي أخذت تنشر وتصرف الناس عن الرحلة التي تستدعي مشقة ، وتكون أجدى لصاحبها ، وهو في هذا الرأي يتابع أستاذه محمد بن ابراهيم الآبلي .[2] وقد حقق **المقري** أمنيته التي لطالما كان يحلم بها فقام بعدة رحلات ساعدته في إثراء رصيده العلمي فكان **مسار رحلته** كالآتي :

أ- رحلته العلمية إلى حواضر المغرب الإسلامي:

1- بجاية:

اعتبرت بجاية في عهد الدولة الزيانية من أهم المراكز الحضارية في المغرب الإسلامي حيث نافست باقي المراكز الحضارية على سبيل المثال جارتها تلمسان وتيهرت وأخيرا فاس ، فاستقطبت العديد من أولي الألباب ، ومحبي العلم والعلماء وخاصة الرحالة، وممن كان له النصيب الأوفر في زيارتها الرحالة **محمد المقري التلمساني** الذي اعتبرها نقطة لانطلاق رحلته العلمية ، فشد إليها الرحال طامحا في لقاء علمائها ساعيا من أجل تحصيل العلم وأخذ عصارة ثمارها اليانعة ، فلقي حينئذ أشخاصا فذكر لنا

[1]- أبو عبد الله المقري ورحلته العلمية بين تلمسان في حواضر المغرب الإسلامي(رسالة ماجستر لفافة بوش ، جيلالي ، جامعة تلمسان -1432ه /2011 م) ص: 77، ينظر أيضا ، ازهار الرياض في اخبار العياض، - المقري ،المصدر السابق، ص: 12.

[2]- الإمام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني- محمد بن الهادي أبو الأجفان ، (دار العربية للكتاب ، 1988م) ، ص:69

اسمائهم في رحلته هذا نصها: " **رحلت إلى بجاية فلقيت أعلاما درجوا ، فأمست بعدهم خلاء بلقعا ، فمنهم الفقيه ابو عبد الله محمد بن يحي الباهلي عرف بابن المسفر باحثته واستفدت منه فسألني عن اسم كتاب الجوهري فقلت له ، من الناس من يقول الصحاح بالكسر، ومنهم من يفتح فقال: إنما هو بالفتح بمعنى الصحيح كما ذكره في باب صح ويحتمل أن يكون مصدر صح وكتب لبعض أصحابه رسالة صدرها بهذين البيتين :**

وصلت صحيفتكم فهزت معطفى فكأنما أهدت كؤوس القرقف

وكأنها نيل الأماني لخـــــــائف أو وصل محبوب لصب مدنف

ومنهم قاضيها أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي يوسف يعقوب الزواوي فقيه ابن فقيه كان يقول من عرف ابن الحاجب أقرأ به المدونة قال ، وأنا أقرأ به المدونة "[1].

تميزت رحلة **المقري** عن غيرها من الرحلات في كون هذا الرحالة لم ينقل لنا وصفا لما شاهده بل قدم لنا مجموعة من المعارف التي تلقاها من شخصيات معروفة ،مخاطبا بها العقلاء وذوي العلم.

2- تونس:

كانت تونس حينئذ في ظل الإمارة الحفصية التي استطاعت أن تجعل منها إمارة قوية ، وهي كسابقتها – بجاية – احتوت على مركز حضاري ألا وهو **القيروان** فشد إليها الرِحال طلاب العلم فكان **المقري** من زوارها فجاء نص رحلته كالتالي :" **ثم رحلت إلى تونس ، فلقيت بها قاضي الجماعة وفقيها، أبا عبد الله بن عبد السلام فحضرت تدريسه وأكثرت مباحثته...**" [2].

---

[1]- أزهار الرياض في أخبار عياض – المقري التلمسانى ، المصدر السابق، ج5، ص:69

[2]- المرجع نفسه، ص: 70

فقد أخذ **المقري** من فقهاء تونس طريقتهم ومنهجهم في التدريس عن طريق حضوره لعدة مجالس أقيمت أثناء مكوثه بتونس ، فعاد إلى مسقط رأسه تلمسان وهو يحمل إجابات لعدة تساؤلات استلهمها من أفواه العلماء .

3–تلمسان:

وقد جعل **المقري** مرافقا يؤنسه وصديقا ينسيه مشقة السفر يتبادل معه أطراف الحديث في طريق عودته إلى تلمسان ، وهذا ما ذكره في رحلته المغربية حين قال:

" قفلت إلى المغرب يسايرني رجل من أهل القسطنطينية يعرف بمنصور الحلبي ، فما لقيت رجلا أكثر اخبارا ولا أظرف نوادر منه فمما حفظته من حديثه أن رجلا من الادباء مر برجل من الغرباء ، وقد قام بين ستة أطفال جعل ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن شماله ،وأخذ ينشد:

ما كنت أحسب أن أبقى كذا أبدا أعيش والدهر في أطرافـــه حتف

ساس بسبتة أطفال توسطـــــهم شخصي كأحرف ساس وسطها ألف

قال: فتقدمت إليه وقلت ، أين تعريقة السين، فقال : طالب وربّ الكعبة، ثم قال للآخر من جهة يمينه: قم فقام يجر رجله كأنه مطبول ، فقال: هذا تمام تعريقة السين ..." [1].

4–المغرب :

عَرَف المغرب الأقصى خلال الحكم المريني نشاطا علميا كبيرا فلقب بالعصر الذهبي ، فكان هذا الأخير المحرك الوحيد الذي جعل **المقري** يوجه مسار رحلته لتلك البلاد من أجل الاستزادة في تحصيل العلوم فاتجه نحو فاس العاصمة فقال:

[1]– أزهار الرياض في أخبار عياض – المقرى التلمساني ، المصدر السابق، ص:72–73

" ثم دخلت من تلمسان إلى المغرب فلقيت بفاس الشيخ الفقيه الحاج أبا اسحاق ابراهيم بن عبد الله بن عبد الرحيم اليزنانسي والشيخ الفقيه أبا محمد عبد المومن الجاناتي ،والشيخ الفقيه الصالح، أبا زرهون عبد العزيز بن محمد القيرواني، والفقيه أبا الضياء مصباح بن عبد الله اليالصوتي... "[1].

ثم في طريقه مر على تازة إلى فاس وبها لقي علمائها الثلاثة وهم حسب قوله: **"ولقيت بتازا أبا عبد الله بن عطية والأستاذ أبا عبد الله المجاصي ،والأستاذ أبا الحسن الجبار"**. [2]

ثم توجه **المقري** من فاس إلى أغمات إلى أن وصل لسبتة ، وهناك أدرك أنه قد تعرف على بلاد المغرب وما تحمله من كنوز العلم وهم علماؤها فقال:

" فاستوعبت بلاد المغرب ولقيت بكل بلد من لابد من لقائه وصلحائه " [3].

5–عودته إلى تلمسان:

كل مرة كان **المقري** يعود به الحنين إلى مسقط رأسه تلمسان فيرجع إلى أهله ، وهو في قمة السعادة وعن هذا قال :

" فقفلت إلى تلمسان فأقمت بها ما شاء الله "[4]

ب–رحلته العلمية إلى بلاد المشرق:

1–مصر:

[1]– أزهار الرياض في أخبار عياض – المقرى التلمساني ، المصدر السابق ، ص: 73

[2]– المصدر نفسه ، ص:74

[3]– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4]– المصدر نفسه ،الصفحة نفسها.

كانت مصر بالنسبة لأبي عبد الله المقري محطة عبور إلى البقاع المقدسة بالحجاز، فقد توجه إليها المغاربة رغبة منهم في طلب العلم والدراسة في مدارسها المشهورة ومساجدها العريقة إضافة إلى ذلك تحفيز حكامها للعلم والعلماء مما أدى إلى استقطاب عدد كبير من الوافدين إليها ، فأصبحت مركزا للحضارة العربية الإسلامية ، و عن ذلك يقول ابن خلدون: " **ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر ، فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصناع** "[1].

قال في رحلته إلى مصر:

" **لقيت بمصر الأستاذ أثير الدين أبا حيان الغرناطي ،رويت عنه واستفدت منه ، وشمس الدين الأصبهاني الآخر وشمس الدين بن عدلان وقرأ علي بعض شرحه لكتاب المازني وناولني إياه وشمس الدين بن اللباني أخر المذكورين والشيخ الصالح أبا محمد المنوفي وتاج الدين التبريزي الأصم وغيرهم مما يطول ذكرهم** "[2] .

ولم تختلف هذه الرحلة عن سابقتها من حيث الاستفادة من العلماء وإفادتهم بما اكتسبه من غيرهم فنقل لنا أخبارهم ذاكرا أسماءهم وما قدموه له من معارف، وكان هذا الهدف الأسمى الذي يحاول صاحب الرحلة العلمية تحقيقه والوصول إليه.

2- مكـــــة:

بعد جولة **المقري** القصيرة حول بلاد المغرب بسبب الأوضاع السياسية التي كانت تعاني منها بلاده قصد بلاد المشرق بغية أداء فريضة الحج ، وذلك سنة 744هـ، فكان وقوفه بعرفة يوم الجمعة[3]

[1]- التعريف بابن خلدون – ابن خلدون ،(تح ، محمد بن تاويت الطنجي ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، 2007م) ، ص:246

[2]- أزهار الرياض في أخبار عياض – المقرى التلمساني ، المصدر السابق ، ص:74

[3]- الامام أبو عبد الله المقرى التلمساني – محمد بن الهادي أبو الأجفان ، المرجع السابق، ص:77

" ثم حججت فلقيت بمكة أبا الموقف أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن التوزري المعروف بخليل ،وسألته يوم النحر حين وقفت بالمشعر الحرام... "[1].

فقد ضرب **المقري** عصفورين بحجر واحد فبذهابه إلى بيت الله للحج اغتنم فرصة لقائه بأكبر علماء المشرق فاستفاد منهم ، وهذا ما جعله يتحدث عنهم بإعجاب وفخر في رحلته ناقلا بذلك أخبارهم إلى تلامذته بتلمسان.

3-الشـــــام:

كانت دمشق لا تقل قيمة عن باقي المراكز الحضارية التي زارها **المقري** فكانت وجهته الأخيرة ليختم رحلته المشرقية .

" ثم دخلت على الشام ، فلقيت بدمشق شمس الدين بن قيم صاحب الفقيه ابن تيمية ،وصدر الدين العماري المالكي ،أبا القاسم ابن محمد اليماني الشافعي وغيرهم "[2].

و بعد لقاء **المقري** لمجموعة من علماء الشام وفقهائها عاد إلى بلاد المغرب الإسلامي.

ج-رجوعه إلى المغرب:

استمرار الصراع السياسي داخل الدولة الزياني أدى بالمقري للمكوث مدة زمنية في بلاد المغرب مباشرة بعد رجوعه من المشرق حيث قال: **" فدخلت إلى المغرب فدخلت سجلماسة[*] ودرعة "**[3].

1- أزهار الرياض –المقري التلمسانى ، المصدر السابق ، ص: 74

2- المصدر نفسه ، ص: 75

*- سجلماسة مدينة تاريخية كانت تقع وسط واحة كبيرة جنوب الأطلس الكبير ، مقابلة لمدينة الريصاني في تافيلالت الحالية ،واليوم تعتبر المدينة موقعا أثريا يضم الآثار وتقع ضمن حدود المملكة المغربية الحالية.

3- أزهار الرياض –المقري التلمسانى ، المصدر السابق ، ص: 74

د–الأندلس:

لم تنحصر الرحلة عند **المقري** في رحلته البرية بل تجاوز ذلك في قطعه للبحر الأبيض المتوسط إلى مناطق عديد من بلاد الأندلس. " **ثم قطعت إلى الأندلس فدخلت الجبل واصطبونة ، ومربلة ، ومالقة ، وبلش ، والحامة وانتهت بي الرحلة إلى غرناطة** "[1].

وقد لاحظنا أثناء تعرضنا للحركة الأدبية في العصر الزّياني خلال القرنين السّابع والثّامن الهجريين أن أدباء هذه الحقبة قد اعتنوا بمظاهر الحضارة ، ووظفوا بعض ملامحها في نصوص شعرية وأخرى نثرية ، وهذا ما سنتعرض إليه بنوع من التفصيل في الفصل الثالث.

[1]– أزهار الرياض –المقري التلمساني ، المصدر السابق ، ص: 74



المظاهر الحضارية في الأدب الزياني

المبحث الأول: المظهر العمراني

المبحث الثاني: المظهر الاجتماعي

المبحث الثالث: المظهر الاقتصادي

المبحث الرابع: المظهر السياسي

المبحث الخامس: المظهر العلمي

المبحث السادس: المظهر الطبيعي

الفصل الثالث:

المظاهر الحضارية في الأدب الزّياني

لقد تعددت المظاهر الحضارية في عهد الدولة الزّيانية كونها من أبرز الحضارات التي وضعت بصماتها في التاريخ العربي الإسلامي ،وبالضبط في بلاد المغرب الإسلامي الذي تعاقبت عليه الحضارات(الرومانية ،الفينيقية ،القرطاجية ،والبزنطية) ،فكان لابد للإنسان العربي المسلم أن يبني هو أيضا لنفسه صرحا من التقدم ،والازدهار في كل المجالات التي تمس حياة الإنسان أو ما اصطلح عليه باسم الحضارة (عاصمتها تلمسان) ،الذي كان لها فضل التميز عن باقي الحضارات ،وعما جادت به الأمم الغابرة .

وقد كان للطبيعة والعمران والعلم والاقتصاد والثقافة ... وغيرها من المظاهر ،دورا كبيرا في تحريك عقول ومشاعر الأدباء ،فجاء أدبهم شعرا مرهفا مليئا بالمشاعر(حب ،عشق ،فرح ،وحزن ،وبكاء) ،ونثرا هادفا يطغى عليه غرض الوصف ، واصفين بذلك الأشياء وصفا دقيقا مفصلا يعانقه عنصر الخيال كاشفا الغطاء عن ما كانت تختزنه تلك المظاهر الحضارية من جمال واتقان لدرجة جعلت من الأديب لا يجد عبارات مناسبة لسكب مشاعره المتدفقة أو وصف جمال ما رآه .

المبحث الأول:

المظهـــر العمــــــــــــــراني

إنّ كثرة العمران ،وتفنن البنائيين في تشيده ،دليل قاطع على غاية الحضارة ، كما قال ابن خلدون في المقدمة : " إنَّ الحَضَارةَ غَايَةُ العُمْرانِ ونِهَايَة لعمره " [1]،فلكل حضارة طابع عمراني خاص بها يعكس صورة تقدمها وازدهارها الذي تزخر به .

وقد انطبق هذا المعيار على الحضارة العربية الإسلامية في بلاد المغرب بأنواعها الثلاثة الدينية، الحربية ،والمدنية، فأبدع الفنان المسلم في بنائها فحلاها بأشكال هندسية اقتبسها من الطبيعة، مستخدما في ذلك مواد البناء النفيسة من رخام وغيره.

وإذا عدنا إلى الأبنية التي شيدت في عهد الدولة الزيانية نلاحظ بصمات ملوكها مازالت صامدة إلى حد الآن تعبر عن فترات زمنية متتالية ،وللأسف أغلبها طمسته يد الاستعمار الفرنسي.

[1]– المقدمة – ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص: 47.



أولا/العمارة الدينية:

للدين النصيب الأوفر في العمارة الإسلامية ،فلم تكن حضارة بلاد المغرب الإسلامي بمنأى عن هذا الجانب لكون نصفها الثاني روحي عقائدي ،فاتخذت المساجد مكانا لتجمع المسلمين في كل موعد صلاة ،وما يجلب الأنظار ويسحر العقول ذلك التميز الذي شمل أروقتها ومنابرها وثرياتها وقناديلها (المصابيح)، فجاءت مختلفة تماما عن مساجد المشرق (مصر ودمشق).

وبهذا أصبحت العمارة الدينية دليلا ماديا برهن للأجيال عن مدى تمسك سكان بلاد المغرب بدينهم ،وعقيدتهم التي اعتبرت شرطا أساسيا في بناء صرح لحضارتهم.

1-المساجد والجوامع

اتخذ أهل كل ديانة منذ القديم دورا للعبادة لإقامة طقوسهم الدينية فيها ،فاتخذ المصريون القدامى واليهود المعابد ، وشيد النصارى الكنائس في اقطار المعمورة أما المسلمون فخصصوا المساجد أو الجوامع مكانا مناسبا لعبادة الله وفيه يؤدون الصلوات الخمس وفيه يواظبون على حفظ القرآن الكريم ، وذلك قبل ظهور الزوايا.

لم يكن المغرب الإسلامي بمنأى عن دول المشرق في بناء عدد كبير من المساجد وبمختلف الطوابع العمرانية ،ولنقل صورة تلك المساجد وبالتحديد في القرنين السابع والثامن هجريين نستعرض قول محمد بن مرزوق التلمساني(*) عن الجوامع والمساجد التي أنشأت في المنصورة (**) وعنها قال:

---

*- هو أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني الملقب بالخطيب ،ولد بتلمسان وبها نشأ وتلقى مبادئ العلوم ثم قام برحلات إلى بلاد المشرق احداهما لأداء فريضة الحج وأخرى علمية ،ثم عاد رجع إلى تلمسان وخلف عمه في الخطابة بجامع العباد .كان لابن مرزوق دور هام في السياسة ولم يكن حظه في الأدب أقل منها ،فله في فنون النثر وأغراض الشعر الشيء الكثير ،ومن تصانيفه القيمة :شرح العمدة .إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، المرجع السابق ، مج 1،ص: 275

**- هي المدينة التي بناها بنو مرين غرب تلمسان حال حصارهم الطويل لها ،وهي تبعد عنها بثلاث أميال إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، المرجع السابق ، مج 1 ، ص:277

" وأما ما أنشأه بمدينة تلمسان فمما يرجى من الله إعادة رسمه وتجديد آثاره فكان مما لم يعهد في سالف الأزمان ولا سبق شكله في قواعد البلدان ،فمن ذلك جامع القصبة المشتمل على المحاسن التي لم يجتمع مثلها في مثله من حسن وضعه وجمال شكله وترتيب رواقه واعتدال صحته وحسن ستاره ومعين مائه واتساع رحابه واحتفال ثرياته الفضية منها والصفرية وغرابة منبره"[1].

أخذنا الكاتب في جولة استطلاعية داخل معلم تاريخي وهو جامع المنصورة الذي تألق على جميع الجوامع في كامل المعمورة شكلا وهندسة وحسنا وابداعا ،فقام باستدراجنا إلى أروقته المنسجمة فيما بينها و المرتبة ترتيبا ،ثم انتقل بنا إلى صحنه الذي يتوسطه وبه الماء يجري غير منقطع ،ومنه إلى رحابه الواسع المتسع ،فتأخذك عيناك إلى أضواء ثرياته المتراقصة بين أحضان جدرانه تزينها بألوانها الفضية والصفرية ،والمفاجأة الأكبر تكمن في شكل منبره العجيب الذي زاد هذا الجامع تألقا على تألقه .فيأخذنا التفكير بعيدا إلى أن صانعه أراد أن يخرج عن المألوف بتصميمه بشكل مغاير ،ليَظْهَر بذلك ابداع الفنان المسلم في تلك الفترة من الزمن وعشقه اللامتناهي لكل جديد ،فتراه يطلق العنان لخياله لتصورات عدة فيسرع لتجسيدها في الواقع على شكل تحف تتماشى وثقافة شعبه من دين ومعتقدات متفاديا بشكل من الأشكال المساس بتلك المقدسات ،وبطريقة غير مباشرة يكون قد ساهم بقدر بسيط في ازدهار حضارة أمته(حضارة المغرب الإسلامي).

1- المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن – ابن مرزوق الخطيب–(تح: ماريا خيسو سبيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1401، الجزائر 1981)،ص: 402

ثانيا– العمارة الحربية:

يعتبر الأمن عنصرا أساسيا لتحقيق التقدم والازدهار في جميع مجالات الحياة فبغيابه لا معنى لحياة الإنسان ،فسهر هذا الأخير(الإنسان)للحفاظ عليه وبشتى الطرق ،خاصة إذا كان الإنسان يعيش داخل مجمعات سكانية تتسم بالتنظيم وحسن التخطيط مستقرة في مكان واحد لا تعرف حياة التنقل والترحال بحثا عن الكلأ– كما كان يفعل العرب في العصر الجاهلي – فاتخذ من عمارة الأسوار والأبواب والأبراج حاجزا صلبا أمام من تخول له نفسه الاعتداء على حدود دولته ،فكان شكل بنائها يعبر عن القوة ودقة التصميم كل واحدة من هذه الأنواع تأدي المهمة التي أنيطت لها .

1– الأسوار:

كانت تلمسان مدينة محصنة بسورين احدهما داخلي والآخر خارجي يحيطان بها من كل جانب .(الشكل 04)

قال أبو حمو موسى الزياني:

وَدَارُوا بِأسْوارِ المَدينَةِ كُلَهَـا كَدَورِ سِوارٍ فَوقَ أبْهَى المَعَاصِمِ[1]

وردت كلمة (**أسوار**) بصيغة الجمع، وذلك دليل على أن تلمسان اشتملت على أسوار عدة لم يذكر أبو حمو موسى عددها، وقد أحاطت بمدينته التي شبهها بالمعصم في الجمال والبهاء .

بقول يحي بن خلدون في البغية عن أبو حمو موسى : " **أنه شيد الأسوار وحفر الخنادق وملأ المطامير والصناديق** ..." [2].

[1]– بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد– يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص: 91

[2] –المرجع نفسه، ج1،ص: 129

فشساعة المساحة التي كانت بين الأسوار الخارجية والداخلية للمدينة وخصوية التربة، كلاهما عاملان طبيعيان ساعدا أهالي تلمسان في استغلالها لزرع أنواع مختلفة من الأشجار وتحويها إلى جنة تبهر الناظر فكانت تلمسان بذلك محاطة بسور أخضر(البساتين).في رحاب السورين الداخلي والخارجي.

ومن قرأ رحلة العبدري يجده هو الآخر تحدث عن أسوار تلمسان فقال أن :" **أسوارها أوثق الأسوار وأصحها...**"[1].

تميزت هذه الأسوار بالإحكام والصلابة، وقد لفت شكلها و مواد صناعتها أنظار من شاهدها عن قرب وتلمس جدرانها. وقد صممت خصيصا لترعب الأعداء من خلال شكل بنائها المتقن ،ولتظهر عظمة الدولة التي تتوسطها ،ورغم متانة هذه الأسوار وقوتها إلا أنها دُعِمت بأبراج مراقبة تعلوها ،وأبواب محكمة تسمح لهم بمراقبة الداخل والخارج من المدينة، والملاحظ في عهد الدولة الزيانية أنها كانت تغلق في الليل، وفي أيام الحصار .

2- الأبواب:

الأبواب في تصميمها هي جزء مهم من الأسوار ومهمتها توفير الأمن داخل المدينة ومراقبة تحركات السكان باستمرار وبشكل منتظم ,وإذا عدنا إلى بلاد المغرب الإسلامي وبالأخص الدولة الزيانية نجد عاصمتها تلمسان قد اشتملت على عدة أبواب توزعت على مختلق الجهات (الشرقية والغربية والجنوبية والشمالية) فمنها الثانوية، وجعلها أبو الفداء ثلاثة عشر بابا ، ورئيسية عددها يحي بن خلدون فقال :

" **ولها خمسة أبواب قبلة باب الجياد وشرقا باب العقبة وشمالا باب الحلوي وباب القرمديين وغربا باب كشوط** "[2]. (الشكل 03)

---

[1]- الرحلة المغربية- محمد العبدري البلنسي، (منشورات بونة للبحوث والدراسات 1428 هـ /2007 م، بونة – الجزائر) ص: 28

[2]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون ،ج1، المصدر السابق ،ص: 19

1-باب العقبة: يقع في شرق المدينة ، وهو الباب القديم الذي ظل قائما منذ تأسيس مدينة " أكادير" ، بني بأحجار من بقايا الرومان[1].

2-باب سيدي الحلوي: يقع هذا الباب في شمال المدينة، اتخذ اسماء عديدة منها: باب الزاوية نسبة إلى زاوية سيدي الحلوي، باب علي[2].

3-باب القرمادين: يقع باب القرمادين ،في الشمال الغربي من تلمسان، ويعتبر الحصن الدفاعي الأساسي، الذي يحمي مدخل المدينة من هذه الناحية التي بها المنية والملعب، ويبدو أنه كان يوجد بالقرب من الباب أفران لصناعة الفخار ،والآجر ،والقرميد ،ولهذا سمي الباب بباب القرمادين (الشكل2)[3].

4-باب كشوط: ومعناه باب الأكشاك (جمع كشك)، يقع في الجهة الجنوبية الغربية، من المدينة أصبح يعرف فيما بعد، باب فاس ، وكان يغمراسن قد أمر ببنائه وتحصينه بأبراج وأسوار عالية.[4] أما عن تاريخ بنائه فقد قال يحي ابن خلدون " **في سنة ثمان وستين أمر – يغمراسن –رحمه الله ببناء باب كشوط** "[5].

5-باب الجياد: يقع هذا الباب في الجهة الجنوبية من المدينة [6] ،وسمي كذلك لقربه من اسطبل السلطان الخاص بتربية الخيل والعناية بها [7].

1- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي –المرجع السابق ، ص: 112.

2- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه، ص: 113.

4- المرجع نفسه، ،الصفحة نفسها.

5- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي ابن خلدون ج1، المصدر السابق ، ص: 115.

6- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 113.

7- ينظر : باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان – ج2 ، المرجع السابق ، ص: 7.

يقول الثغري[*]– **الخفيف** –:

أيُّهَا الحَافِظون عَهدْ الوِداد   جَدِّدوا أنْسَنا ببابِ الجِيَادِ

وِصلُوهَا أصائِلا بلَيـــــالٍ   كَلآلٍ نُظِمنَ في الأجْيــادِ[1]

يدعو الثغري كل من أبدى حبه وإعجابه بمدينة الحضارة تلمسان لتجديد زيارته لها، لأنه كان كل من يقصد باب الجياد يقدم وعدا بأنه سيعود يوما ما لحبه_ معبرا عن ذلك بكلمة (وداد)_ وشدة تعلقه بذلك المكان وشعوره بأنه يؤنسه في وحدته كلما رأى بساتينه ، وقد نعت هؤلاء بحافظي الوعود.

ثم أردف كلامه قائلا :

عَرِج بِمُنْعرجَاتِ بَابِ جِيَادهَا   وَافْتح بَاب الرَجَاءِ المُقْفَلِ[2]

فسبيل كل من أراد الدخول من باب الرجاء الذي يعتبر بابا من أبواب السور الداخلي للمدينة أن يمر بمنعطفات عديدة بعد أن قصد باب الجياد من السور الخارجي ،وقد عبر عن تلك الطريق الملتوية والطويلة بصيغة الجمع لكلمة (منعرج/منعرجات).قاصدا من كلامه أن الطريق كانت غير مستقيمة لعل السبب في ذلك كثرة البساتين في المنطقة الفاصلة بين البابين.

وإذا عدنا إلى شعر **ابن خميس** في الوصف نجده هو الآخر قد خصص بيتا تحدث فيه عن هذا الباب قائلا:

وَسُحَّ على سَاحَاتِ بَابِ جِيَادِها   مُلْثّ يُصَافْي تُربَتَها وَيصَافِحُ[3]

---

[*]– محمد بن يوسف القيسي التلمساني ابو عبد الله: شاعر اديب كاتب من أهل تلمسان من اشهر شعرائها وبلغائها المقدمين لدى سلاطينها ، وصفه المازوني بالإمام العلامة الاديب الأريب الكاتب ،كان من شعراء بلاط السلطان ابي حمو موسى الثاني، ينظر معجم اعلام الجزائر – عادل نويهض ، المرجع السابق ، ص:92.

[1]– بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي ين خلدون، ج2 ،المصدر السابق، ص:560

[2] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3]– من أعلام تلمسان – – مقاربة تاريخية –فنية– محمد مرتاض ، المرجع السابق،ص:69

يدعو ابن خميس كل زائر أراد التجول بين أزقة تلمسان أن تكون وجهته الأولى باب الجياد لما سيراه حينئذ من مناظر خلابة تبهر ناظريه ،ويتمنى رؤيتها وهي الساحة المتربعة في مدخله زادتها جمالا صورة نزول زخات من المطر على تربتها ونتيجة لتمازجهما فقد انبعثت رائحة طيبة منهما ،فجسد الشاعر تلك الصورة في صورة صديقين تبادلا التحية عن طريق المصافحة فنجر عنها مشاعر المحبة ،وفي ذلك كله راحة لنفسية السائح .

وكانت هذه الأبواب الرئيسية الخمسة واسعة ، شيدت على جانبي كل واحد منها مراكز حراسة بمثابة أبراج صغيرة ، مربعة الشكل لمراقبة الضواحي والأماكن المجاورة والداخلين إلى المدينة والخارجين منها باستمرار، وأقيمت في جوفها حجرات يقيم فيها الموظفين والحراس ،والمكاسون[*] من الرجال والنساء ،وأنشئت بالقرب منها دور لمزارعي المداخل[1] .

وإلى جانب هذه الأبواب ذكر **الثغري** باب آخر عرف **بباب الحديد** ،وعنه قال:

وإذَا دَنَتْ شَمْسُ الأَصِيلِ لِغُرُوبِهَا   فَإلَى تِلمْسانَ الأَصيلة فَدْخُلْ

مِنْ بَابِ مَلْعَبِهَا لِبَابِ حَدِيدِهَـــا   مُتنزِها فِي كُلِ حَفلِ مُحَفَـــلِ [2]

كان سكان المناطق المجاورة لمدينة تلمسان إذا جاء وقت غروب الشمس قصدوا باب الحديد في السور الداخلي الذي كان يقابله باب الملعب في السور الخارجي للمدينة ،فقد كان ذلك وقت محدد لفتحهما مستقطبا العديد من الأهالي لحضور الاحتفالات التي كان ينظمها سلاطين بني زيان في المكان الفاصل بين البابين ،وما عرف من تلك الاحتفالات سباق للخيول العربية الأصيلة في ملعب الخيل ،ومنه سمي الباب باسمه لقربه منه.

[*]- المكاسون : من مكَس الشَّخصُ: أي جمع ضريبةَ مرور البضائع من الجمرك.

[1]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي ين خلدون، ج1، المصدر السابق ، ص: 14

[2]- المصدر نفسه، ص: 16

ويبدو أن الأبواب التي ليس لنا وصف لها ومكان محدد بوجودها ، هي عبارة عن ممرات أو فتحات في الاسوار العديدة التي تحتوي عليها مدينة تلمسان ، على شكل أبواب صغيرة تفتح عند الحاجة، وكانت الأبواب الكبيرة تغلق في الليل، وإذا تعرضت المدينة للأخطار[1].

3– الأبراج:

اهتم بنو زيان بتحصين مدينة تلمسان عن طريق ترصدهم لحركات أعدائهم بعدما حرصوا على بناء الأسوار الدفاعية أضافوا إليها عدة أبراج قوية وعالية للمراقبة، نذكر منها :

برج القشاقش: انشئ هذا البرج في جنوب المدينة أيضا في الموضع الجبلي المؤدي إلى هضبة لالاستي لمراقبة الجهة الجنوبية وحمايتها، وفي ذلك الوقت لحماية الطاحونة التي تزود أهل تلمسان بالد[2].

برج إمامة: وهو عبارة عن قصر كبير بني على شكل قلعة مرتفعة تقع في الشمال الغربي من مدينة تلمسان ، عرف سكانها محنا جمة ،لا سيما فترة هجومات الغزاة المناوئين على المدينة [3].

يقول **الثغري**: **وبُروجٍ** مُشَيَّدَاتِ المبَـانِي   بَادِيَاتُ السَنا كَشُهْبِ بِـوِدِادِي

رَقَ فِيهَا النَسِيمُ مِثلَ نَسِيبِي   وَصَفا النَّهُر مِثلَ صفر وِدَادِي [4]

عبر الثغري عن عظمة أبراج بنو زيان بوصفها بالشموخ والعلو، فجاءت صورته المجازية في كونها تكاد تلامس نجوم السماء ،و يلاحظ من فيها قرب ضوء البرق إليه ، إلى ان انتقل بنا لصورة حقيقية تكمن في عليل نسيمها وطيب هوائها .

وقال أيضا:

---

[1]- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي،ج1، المرجع السابق، -ص:113-114

[2]- المرجع نفسه ،ص: 112

[3]-. المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[4]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون - ج 2 ، المصدر السابق ، ص:560

قَدْ قَابَلَتْ زُهْرَ النُّجومِ بزَهْرِها **وبُروجَها** بِبُرُوجِهَا وقِبَابِهَا[1]

فقد كان لهذه الأبراج مهمة كبيرة تمثلت في تسهيل عملية المراقبة ،وتهيء بنو زيان لأي خطر خارجي.

4-الحصون :

الحصن هو المكان المناسب الذي كان يلجا إليه الملوك لتحصين أنفسهم عند اشتداد الازمات ،وتدهور الأحوال داخل دولتهم أو خارجها، فجاءت عمارتها مخصصة لمهمة واحدة وهي الحماية والاختباء من الأعداء ،وقد عرفت الحضارات السابقة بناء عدة معاقل في أماكن بعيدة في الجبال العالية التي يصعب الوصول إليها..

وحضارة بلاد المغرب العربي الإسلامي مثلها مثل تلك الحضارات السابقة شهد اضطرابات سياسية فيما بين دولها ترجمتها العداوة التي كانت قائمة بين الدولة الزيانية والمرينية من جهة والحفصية من جهة أخرى ومحاولة بنو زيان في استباب الأمن داخل دولتهم ،قابلها تحسبهم لأي خطر خارجي أو داخلي يهددهم ،وهذا سبب جعلهم يفكرون في مكان يحميهم ،ويفرون إليه بجلدهم للعود مرة أخرى إلى ديارهم وهم أقوياء.

وقد أشار إلى مثل تلك الحصون السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني في وصيته الموجهة لابنه داعيا إياه ببناء حصن ينجيه من الأعداء فقال:

"اعلم يا بني أنّه ينبغي لك أن تتحصن لنفسك معقلا ... تلجأ إليه عند الشدائد وتتحصن به من العدو والمعاند ، وصفة المعقل أن يكون حصنا منيعا لا يرام ،وركنا منيعا لا يضام ،وذروة لا تقرع ،وعقيلة لا تفترع ،وبكر لا تخطب ،وقلعة لا تطلب ،وقد اشتمل على الماء والاختزان ،والعدد والامكان ،تجعل فيها ذخائر أموالك ،وأثاثك وأمتعتك وأثقالك ،تسكن فيها أجنادك وحماتك وقوادك ،تحشنه بالرجال والرماة المترجلة والزعماء من الرجال المحصلة الذين لا

---

[1]- أزهار الرياض – المقري ، ج2، المصدر السابق، ص: 332

يروعهم الحمام ،ولا يخوفهم سل الحسام ...وليكن غرس هذا الحصن ما يكون به الانتفاع مثل الزيتون والتين وما قارب من هذه الأنواع ،وإن تأتى أن يكون ذلك الحصن على ساحل البحر ،فنعم الحصن والثغر، وإن قدرت أن يكون بحره تحت حكمك فهو أحسن لنظمك ،وليكن حصنك ذلك أحسن من جميع الحصون وأحصن ..." [1].

أراد السلطان أبو حمو موسى الزياني أن يقنعنا من خلال المواصفات التي قدمها للحصن ،أنَّ له دراية كبيرة بفن العمارة والتشييد فجاء تصوره لهذا الحصن على شكل مخطط مرسوم باحترافية انطلاقا من شموخه وعلو ارتفاعه الذي لا يخول لاحد تسلق جدرانه ،إلى حجراته التي تستطيع أن تستوعب كل من المأكل والمشرب والملبس والأثاث إلى الجيوش المدججة بمختلف الأسلحة ،المستعدة لأي خطر يحدّق بهم من كل جهة ،استعداد ماديا ونفسيا ،إلا أن حبه للابتكار والاختراع جعله يخصص للمعقل جانبا طبيعيا يتمثل في غرس مختلف الأشجار المثمرة التي تعود على أصحاب الحصن بالمنفعة فلا يضطرون للخروج للبساتين للحصول على الأكل فيتفطن لهم الاعداء.

ثالثا/العمارة المدنية:

الاستقرار السياسي له يد في تعمير المدن وتفرغ الحكام لتنظيمها من حيث بناء القصور والملاعب والمكتبات والقناطر...فبعضها كان موجها للخاصة من حكام وحاشية والبعض الآخر موجه لعامة الناس ويخدم الصالح العام من سكان المنطقة ويلبي احتياجاتهم اليومية ،سنذكر أهم ما تميزت به العمارة المدنية في العهد بنو زيان من خلال عرض نماذج من الأدب الزياني التي عكست صورة هذا النوع من العمارة فكان أشهرها:

1- القصور:

وَلعَ حكام بنو زيان ببناء القصور الأنيفة ،والظاهر أنها نافست قصور بني العباس فجاءت ذات تصميم معماري بديع ،لما احتوته من زخارف ابدع فيها الفنان المسلم وبساتين زاهية .يقول أبو حمو

[1]- واسطة السلوك- أبو حمو موسى الزياني ، المصدر السابق، ص : 88-89

موسى الثاني في رثاء والده المولى ابي يعقوب يوسف بعد وفاته عام 763هـ- 1362 م ذاكرا منجزاته العمرانية :

يَا مَسَعْدِي أَبْصَرْتُ مَا فَعَلَ النَوى بِكَرِيمِ قوَمٍ فِي التُرابِ صَرِيـــعِ

فِي طَيِ لَحْد بِالثَرى فَكأَنّـــــــهُ مَا كَانَ فِي عَزٍ وَفِي تَرْفِيـــعِ

و**القَصْر** أَمْسَى مَا جَلاَ مِنْ بَعْدِهِ وَمَنَازِلُ تَزْهَى بِكُلِ صَنِيـــعِ

و**مقَاصِرٌ** لَمْ يُبنَ قَطُ مِثالهــــَـا مِنْ قِبل لِلمَأْمُونِ* والمخْلُوعِ**[1]

نافست قصور بني زيان قصور خلفاء الدولة العباسية في المشرق كالخليفة المأمون من حيث الجمال والبهاء وروعة التصميم وما احتوته من مصانع .

ومن أشهر هذه القصور نذكر:

أ- قصر المشور:

هو عبارة عن قلعة جميلة محكمة البناء تحتوي على جميع التجهيزات الضرورية للعيش ، واليوم هي معلم تاريخي تركه الأجداد من بني عبد الواد. رغم طمس بعض آثاره من طرف الاستعمار.

وإذا عدنا إلى معنى المشور فيعني المكان الذي يعقد فيه أمير المسلمين السلطان اجتماعاته مع وزرائه وكتابه وضباطه لمناقشة شؤون الدولة ،والتشاور في أمور الرعية وقت السلم ووقت الحرب [2].

---

*- هو الخليفة السابع من خلفاء بني العباس واسمه عبد الله المأمون بن هارون الرشيد وهو أعظمهم ، اعتلى العرش في بغداد عام 198 هـ (814 م) وتوفي عام 218 هـ (833 م)، بغية الرواد - يحي بن خلدون ج2، ،المصدر السابق، ص: 230

**- المخلوع هو الخليفة العباسي جعفر بن المعتضد الملقب بالمقتدر بالله بويع مكانه عبد الله بن المعتز لكن هذا الأخير قتل يوم المبايعة فعاد المقتدر بالله إلى العرش .بغية الرواد – يحي بن خلدون ، ج 2، المصدر السابق،ص:230.

1- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - يحي بن خلدون ، ج2 ، المصدر السابق ، ص:230

2- تلمسان في العهد الزياني ، ج1. عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق، ص: 115

أما عن سبب بنائه فيعود إلى أن السلطان يغمراسن في بداية حكمه كان يقيم في القصر القديم [*]بتلمسان العليا (تاكرارت) إلى غاية بنائه لصومعة المسجد الجامع، فصارت المئذنة تطل على القصر ،وتشرف على صحنه، عندئذ اضطر السلطان أن يغير مقر اقامته ،حتى لا يترك مجالا للمؤذن وغيره ، من الاطلاع على مما يدور بداخل القصر السلطاني ، ولا يعرض حريمه لنظرات المتطفلين ، فقرر تشيد قصر جديد ، يليق بمقام الملوك، ويتطابق وتقاليد السلاطين المسلمين في ذلك الوقت، فاختار مكانا بجنوب المدينة وبنى فيه قصره ، وسماه المشور تميزا له عن القصر القديم [1].

نلتمس من هنا أن بنو زيان كانوا متمسكين بتعاليم الدين الإسلامي ومن الأشياء اللافتة للانتباه هو أن حكم السلاطين كان قائما على مبدأ الشورى [**]وهذا الامر دعا إليه الله عز وجل عباده في كتابه العزيز حيث قال: " ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾[2] فبالشورى يعم العدل بين الناس ولا تهضم الحقوق .

قال الثغري:

وتَأَنَ مِنْ بَعْدِ الدُّخُولِ هُنَيْنَةً وأعْدَلْ إِلَى قَصْرِ الإمَامِ الأَعْدَلِ[3]

فسلاطين بني زيان اتصفوا بصفات عدة ،ومن بينها سهرهم على تطبيق العدل بين الرعية، ليعم الاستقرار داخل دولتهم انطلاقا من قصر المشور رغم تعدد القبائل والأجناس .من بربر وعرب.

---

[*]–وهو القصر الموحدي القديم المجاور للمسجد الكبير ، الذي كان يعرف بدار الإشراق حيث يقيم العامل على تلمسان وكانت للقصر رحبة تعرف برحبة الفصر ، أنظر ابن الزيات النادلي : التشوف إلى رجال التصوف ،ص:369 –448.

[1]– تلمسان في العهد الزياني ، ج1. عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق، ص: 114

[**]– تعرف الشورى بأنها طلب الرأي ممن هو أهل له، أو هي استطلاع رأي الأمة أو من ينوب عنها في الأمور العامة المتعلقة بها، وعليه فقد اتخذ المسلمون الشورى أصلاً وقاعدة من أصول الحكم وقواعده، وعليها قام ترشيح العدول من المسلمين لمن يرونه أهلاً للقوّة والإمامة لتولِّي أمرهم، أنظر الشورى وأثرها في الديمقراطية عبد الحميد الأنصاري ،(دار الفكر العربي)، ص: 4

[2]– سورة الشورة (الآية 38).

[3]– بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 . ص: 16

ويبدو أن صرح المشور شيد ، في المكان الذي نصب فيه يوسف بن تاشفين المرابطي خيمته حينما حاصر مدينة "أكادير"، وقام بتخطيط القصر على شكل قلعة كما سلفنا مستطيل الشكل ، طول ضلعه 490 م، وعرضه 280 م، وبالتالي تكون مسحته الاجمالية نحو 137200 متر مربع[1].

ولم يبق القصر على حاله بل أضاف له السلطان أبو حمو موسى الأول(707 – 718 ه / 1307-1318 م) في سنة 717 هـ- 1317 م، معلمين معماريين آخرين هما قصر ومسجد خاص ، بالأمراء ورجال الدولة والأعيان ، يؤدون فيه صلاة الجمعة والصلوات الخمسة[2].

وقد كان يحيط بالمشور سور عالي ، يضم قصورا عديدة صغيرة إلى جانب قصر السلطان ، مبنية بأسلوب معماري فني بديع ومزينة بزخرفة رفيعة ،ويحتوي القصر على سقايات ونافورات وبساتين ، له بابان أحدهما يقع في الجنوب ويطل على البادية تجاه الجبل والثاني يقع في الشمال الغربي باتجاه وسط المدينة ويقيم بجواره رئيس الحرس وله ساحات وشوارع ودروب ومنازل أخرى بداخله للحاشية والكتاب والضباط والخدم ،وكان بالمشور مجموعة من المخازن والمطامير لخزن الحبوب والمؤن المختلفة[3].

والظاهر أن القصر السلطاني ، يتميز عن غيره من القصور والدور بشكله وسعته ومحتواه حيث كان مزين بالرخام والفسيفساء الملونة ، التي تكسو قاعته وجدرانه ،مبلط بالجبس الأنيق ،والسقوف الخشبية المدهونة ،والثريات النحاسية الفخمة ،التي تحمل قناديل الزيت والشموع ،وكانت أرض القصر السلطاني في معظمها مبلطة بالزليج الملون ،وتتخلل القصر أحواض من الزهور والأشجار المثمرة ،ونافورات المياه كما هو الشأن في القصور السلطانية بفاس وغرناطة وتونس ،فهو معلم من معالم العمرانية الزيانية الرائعة ، المتأثرة مما شك فيه بالهندسة المعمارية الأندلسية[4].

---

[1]- ينظر : تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي ، ج1، المرجع السابق ، ص:115.

[2]- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

[3]- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

[4]- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

يقول صاحب البغية: " **وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة والصروح الشائقة ، والبساتين الرائقة ، مما زخرفت عروشه ،ونوسبت أطواله وعروضه ،فأزرى بالخورنق وأخجل الرصافة وعبث بالسدير** " [1].

برع ابن خلدون في وصف هذه القصور عن طريق ذكره لمميزاتها من شساعة مساحاتها ، وروعة اتقان ما احتوته من المصانع وزخارفها التي مازالت متشبثة في بعض جدرانها وخاصة قصر المشور على سبيل المثال الكتابات الجدارية...وغيرها من الزخارف.

وقد استطاع أبو حمو موسى بعد وفاة عبد العزيز المريني من استرداد ملكه والبقاء على عرش أسلافه لحذاقته ونبوغه في السياسة ،وبعد رجوعه إلى تلمسان فإنه رمم ما خربه بنو زيان من سور المدينة ومشورها وما كان يحتوي عليه من دور ومتنزهات لطالما تأسف عليها حين مغادرتها ،وقد عبر عن ذلك في أبيات من نظمه نحتها على أحد جدرانه فقال : (الوافر)

بَنَاهَا جَدُنَا أَبُو المَعَالِــي وَكُنَا نَحْنُ بَعْضُ الوَارِثِينَا

لَقَدْ سَكَنَـــاهَا أَيَامـًــا طــِوَالاً وَلَيَالِي آمِنِينَـا

فَلَمَا أَنْ جَلَانَا الدَّهْرُ عَنْهَا تَرَكْنَـــاهَا لِقَومِ آخَرِينَـــا [2]

عاش أهل تلمسان في أمن وسلام في مدينة محصنة البناء مشيدة بإتقان، رغم الحصار الذي تعرضت له من طرف جارتها المرينية إلا أنها بقيت صامدة عدة شهور.

ب-دار الملك ،ودار السرور ،وأبو فهر: وقد قام ببناء هذه القصور الثلاث أبو تاشفين[3] ،تحدث عبد الرحمان بن خلدون عن جمالها فقال:

---

[1]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - يحي بن خلدون ، ج1 ، المصدر السابق ، ص: 10.

[2]- روضة النسرين في دولة بني مرين - أبي الوليد اسماعيل بن الأحمر ،(المطبعة الملكية ، الرباط)، ص: 56.

[3]- ينظر : أبو حمو موسى الزياني – عبد الحميد حاجيات ،المرجع السابق ، ص: 61.

" وكانت قصور الملك بتلمسان لا يعبر عن حسنها ،اختطها أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين واستدعيا الصناع والعملة من الأندلس، فبعث إليهما أبو الوليد بن الأحمر بمهارة البنائين استجادوا لهما القصور والمنازل والبساتين، مما أعيا عن الناس بعدهم أن يأتوا بمثله ... فأصبحت أعظم أمصار المغرب ،ونفثت بها أسواق العلوم والصنائع ،وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية "[1]،

فقد عجز لسان **عبد الرحمان بن خلدون** عن وصف هذه القصور مكتفيا بهذه العبارة نتيجة لدهشته أثناء رؤيته لها ،أما كلمة (حسن/ الهاء تعود على القصور) تعبير واضح على الجمال المؤدي إلى الانبهار، ودليل على أنه لم ير مثلها في حياته.

أما أخوه يحي فقد تحدث عن هذه القصور بإطناب فقال: " **ولع ببناء الدور وتجيير القصور ،وتشيد المصانع واغتراس المتنزهات مستظهرا على ذلك بالألف عديدة من فعلة أسرى الروم بين نجارين وزلاجين وزواقيين وغير ذلك مع صدقه رحمه الله بالاختراع وبصرة بالتشكيل والابداع ، فخلد آثارا لم تكن قبله لملك ولا عرف لها بمشارق الأرض ومغاربها نظير كدار الملك ودار السرور وابي فهر وسواها "**[2].

بلطت هذه القصور بالزليج وشيدت أبوابها بالألواح فاستعانوا في ذلك بالنجارين ،وأبدعوا في زخرفتها بأشكال مختلفة فاستعانوا بالزواقيين .

2-القصبة:

اشتملت تلمسان على **قصبة** بناها السلطان أبو حمو موسى الأول ، من أجل اسكان رهائنه ، وذلك لأنه كان يشترط من القبائل الخاضعة لسلطته أن تقدم له رهائن من أبناء أشياخها وبناتهم ، فلما

---

[1]- تاريخ ابن خلدون –ابن خلدون ، ج7، المصدر السابق ، ص: 297

[2]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – ج 1، المصدر السابق ، ص: 134

كثر عدد هم اضطر إلى اسكانهم في القصبة التي بناها ، وفي مكان يصعب تحديده ولعله كان يقع غربي المشوار ،في اتجاه حي المطمر[1].

يقول الباحث عبد العزيز فيلالي : " فقد كان يبالغ في أخذ الرهائن ،من القبائل التي تنضوي تحت نفوذه ، حتى يضمن طاعتهم وولاءهم وتتكون هذه الرهائن في الغالب من ابناء القبائل ،ومن إخوانهم ، يرسلونهم للإقامة بمدينة تلمسان وتحت رعاية السلطان ،فبنى لهم أبو حمو موسى قصبة يسكنونها، وسمح لهم ببناء المنازل والدور والتوسع في العمران ،وأذن لهم بالزواج وبناء المساجد "[2].

فمن خلال هذا القول يتراء لنا أن القصبة التي بناها ابو حمو كانت عبارة عن جزء مهم من مدينة تلمسان مجهزة بمرافق ضرورية للعيش.

أما عبد الرحمان ابن خلدون فقد جاء وصفه لهذه القصبة بقوله: " **وهي الغور الفسيحة الخطة ، تماثل بعض الأمصار العظيمة ، اتخذها للرهن ،وكان يبالغ في ذلك ، حتى كان يأخذ الرهن المتعددة من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهط ، وتجاوز ذلك إلى أهل الامصار والثغور من المشيخة والسوقة ،فملأ تلك القصبة بأبنائهم وإخوانهم ،وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء ،واختط لهم المساجد، فجمعوا بها لصلاة الجمعة ،ونفقت بها الأسواق والصنائع ،وكان حال هذه البنية من اغرب ما حكي في العصور عن سجن** "[3].

تميزت هذه القصبة بالعظمة وحسن التخطيط ،فكانت في شكلها مدينة وسط مدينة تلمسان بأسواقها ومساجدها .

---

[1]- ينظر، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره- عبد الحميد حاجيات – المرجع السابق ، ص: 59

[2]-- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي – المرجع السابق ، ص: 117

[3]- تاريخ ابن خلدون – ابن خلدون ،المصدر السابق ، ج7،،(ج7، تح: خليل شحادة ، دار الفكر 1421هـ/ 2000م ، بيروت – لبنان) ص: 215، ينظر تلمسان في العهد الزياني- ج1، المرجع السابق، ص: 114-115

3-المكتبات العامة:

المكتبة في عهد بني زيان كانت بمثابة الشجرة المثمرة ،ثمارها مختلف العلوم ،مكانها المدارس وبيت الله كونهما مقصد جميع الناس وعامتهم .ومن أمثلة ذلك الجامع الكبير بتلمسان الذي احتوى على مكتبتان عامتان حافلتان بالكتب النفيسة ، التي اعتبرت مصدرا ينهل منه طلاب العلم في أوقات فراغهم.

أ-المكتبة التي أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني:(عام 760 هـ/1359م

كانت هذه المكتبة على يمين محراب الجامع الكبير بالمكان الذي لاتزال به الخشبة ذات الكتابة المحفورة التي كانت مثبتة فوق بابها والنص المكتوب عليها هو:" **أمر بعمل هذه الخزانة المباركة السلطان أبو حمو بن الأمراء الراشدين أيد الله أمره وأعز نصره ونفعه بما وصل ونوى وجعله من أهل التقوى وكان الفراغ من عملها يوم الخميس ثالث عشر ذي القعدة عام سبعمائة وستين 760 هـ** "[1].

ب-المكتبة التي انشأها السلطان أبو زيان محمد الثاني (عام 796 هـ/1394 م)

كانت هذه المكتبة بالقسم الأمامي من الجامع الكبير ثم نقلت إلى المدرسة الدولية عام 1323 هـ/1905 م ،ولاتزال منها بقية إلى يومنا هذا بمكتبة ثانوية الحكيم بن زرجب ،وكانت بها عدة مخطوطات منها مخوطان نفيسان أولهما : " كتاب الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان " للحافظ التنسي ،وثانيهما "كتاب عجائب الأسفار " للحافظ الشيخ أبي رأس الناصري[2].

وقد وصف **الثغري** المكتبة الأولى قائلا:

---

[1]- ينظر : باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان- الحاج بن رمضان شاوش، ج1 – المرجع السابق ، ص: 89

[2]- المرجع نفسه ، ج2،ص:67.

لَئِنْ كَانَ بَحْرًا فِي العُلُومِ فَإنَّهُ فِيهِ بنان يديه أبْحـُــــرًا عَشْــــرًا

لَهُ بِكِتَابِ اللهِ أَعْنَى عِنَايــــَــــةً وَبالنِسْبَةِ الغَراءِ هُو المُغْرمُ المُغَـرَا

فَمَا هَمُهُ إلاَ كِتــَــابٌ وَسُنَـــةٌ بِنَسْخِهِمَا قَدْ أَحْرَزَ الفَخْرَ وَالأَجْرَا

فَنَسَخَ كِتابَ اللهِ جَلِ جَلاَلـُــهُ وَنَسَخَ البُخَارى ضَامِنًا لَهُم النَصْرَا[1]

أشاد الشاعر في رائيته هذه بأبو حمو موسى الثاني من حيث غزارة علمه، واتساع فكره فحبه للعلم والعلماء جعله يفكر في وضع هذه المكتبة ،فقد لعبت دورا مهما في حياة بني زيان فكانت مصدرا ينهلون منه العلم بتشعب مجالاته ثم ذكر أهم محتوياتها التي تمثلت في مصاحف لحفظ القرآن (نسخ كتاب الله جل جلاله)، إضافة إلى ذلك كتب السنة مثل صحيح البخاري(نسخ البخارى) وكتب دينية أخرى ... .

4- المتنزهات:

شملت مدينة تلمسان على مناطق للتنزه والترفيه عن النفس ،وخاصة التي تواجدت خارج أسوارها ،وهي عبارة عن أماكن يقصدها سكان المدينة ، للنزهة والراحة والاستجمام والتمتع بمناظر الطبيعة الخلابة وبهوائها المنعش ،بعيدا عن ضوضاء المدينة وازدحامها ،وتتمثل هذه المتنزهات في الحدائق العامة ،وفي المنيات والملاعب ،المحيطة بمدينة تلمسان وفي ضواحيها : مثل ساقية الرومي[*] ، ومنزه البركة العظيمة ، وملعب الخيل[2].

فعن ساقية الرومي قال ابن خميس:

لِسَاقِيةِ **الُرومِي** عِندِي مَزِيـَةُ وَإنْ رَغِمَتْ تِلكَ الرَوابِي الرَواشِحُ

---

[1]- تلمسان في العهد الزياني-633- 962هـ/1235 -1555م ، بسام كامل عبد الرزاق ،المرجع السابق ، ص: 241.

[*]- وتسمى اليوم بساقية النصراني.

[2]- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي –المرجع السابق، ج1، ص: 153.

بِكَّم لِي عَلَيهَا بِغدو وروحَــةِ تُسَــاعِدُنِي فِيهَا المِنَا والمَنَائِــجُ

فَطَرَفٌ عَلى تِلكَ البَسَاتِينَ سَارِحُ وَطَرَفٌ عَلى تِلكَ الميادِينِ جَامِحُ

تُحَارُ بِهَا الأَذْهَانُ وَهِي ثَواقِــبُ وتَهْفُوا بِها الأَحْلاَمُ وَهِي رَواجِحُ

ظِبَاءُ مَغَانِيهَا عُــواطٌ عَواطِــفُ وَطيرٌ مَجَانِيهَا شَوادٌ صَــوادِحُ[1]

احتلت هذه الساقية مكانة مرموقة في قلب الشاعر لكونها معلم تاريخي يعود للحقبة الرومانية ،فتعددت زيارته لها متأمل لما حولها من بساتين ومباني فاقتهما في الجمال، وزاد جمالها وجود حيوانات (ظباء وطيور وشواد).تصدر من أفواهها أصواتا كنغمات تطرب زوارها.

ومن الملاعب التي شيدت في عهد الدولة الزيانية **الملعب الكبير** الذي كانت تتسابق فيه الخيول ،في محافل مشهورة وفي ذلك يقول الشاعر **محمد القيسي الثغري**:

وإذا العَشِية شَمْسُها مَالت فَمِلْ نَحو المصلى مَيلةَ المتِمَهِــــــلِ

وَ**بِمَلعَبِ الخَيلِ** الفَسِيح مَجَالُهُ أَجَلَى النَواظِرَ فِي عِتاقِ المِحْفلِ

فَبِحَلَبَةِ الأَفْرَاسِ كُــلُ عَشِيــــةٍ لَعِبٌ بِذَاكَ المِلْعَبِ المسْتَسْهِــلِ

فَتَرَى المِجْلَى وَالمصلى خَلفَــهُ وَكِلاَهُمَا فِي حُريَــة لَا يأتلــــي

هَذا يَكِرُ وَذَا يَفِــرُ فَتَنْثَنِــــي عَطْفًا عَلى الثَانِي عنــان الأولِ

فِي كُلِ طَرَف كل طرف يستبي قَيدَ النَواظِرِ فِتْنَــةُ المُتأَمِــــلِ[2]

---

[1] - بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - يحي بن خلدون - ج 1، المصدر السابق ، ص:11-12

[2] - المصدر نفسه ، ص: 15.

أطلعنا الثغري في مستهل قصيدته على موقع ملعب الخيل الذي يتجلى في غرب مدينة تلمسان ،وبالتحديد في اتجاه غروب شمس الأصيل، ذاكرا اسمه الثاني الذي عرف به(المصلى) ،فعدد مواصفاته ومكوناته من الداخل فرآه متسع المساحة به مجلس للجمهور حكاما ورعايا ،ومن خلاله تتحرر أنظار هؤلاء لحلبته التي تتربع في وسطه ،وفيها يتسابق الفرسان متطين جيادهم .

وقد كان بضواحي مدينة تلمسان متنزهات أخرى مخصصة لاستراحة السلاطين والامراء وكبار القوم ،مثل القبة التي انشاها القائد هلال بالروض، على ضفة واد الصفصيف شرق المدينة ،واستراحة برج الكيس الذي بناه السلطان أبو الحسن المريني بالقرب من الملعب الكائن ما بين تلمسان والمنصورة[1].

قال الثغري :

قد قابلَتْ زُهْرَ النُّجومِ بزَهْرِها وبروجَها ببروجها وقِبابها[2]

اهتم سلاطين بنو زيان كل الاهتمام براحتهم الجسمانية والنفسية فخصصوا مكانا للنزهة والاستراحة على شكل قباب محكمة البناء ذات تصميم مناسب لتلك المهمة ،وكان أغلبها يتواجد بالقرب من الأودية أو محاطة بالبساتين الخضراء كثيرة الماء ، قد حفت رائحة أزهارها المكان .

5- القناطر والجسور:

لقد صاحب كثرة العمران في بلاد المغرب الإسلامي واتساع مساحته صعوبة طبيعة المنطقة من كثرة الوديان التي تميزت بشدة تدفق مياهها وغزارتها ،وكل ذلك أدى إلى صعوبة تنقل الأهالي بين أرجائها ،فكان الحل الأفضل لاختصار طرقها هو بناء جسور وقناطر فوق الأودية، وهذا ما تفطن إليه السلطان أبو الحسن المريني أثناء توليه الحكم فساهم في ربط مدينة تلمسان بالمدن والضواحي المجاورة

1- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص:154

2- أزهار الرياض – المقري ، ج2، المصدر السابق، ص: 332

لها ،انطلاقا من أبوابها المختلفة والمتواجدة في جميع الاتجاهات شرقا وغربا شمالا وجنوبا بمجموعة من القناطر والجسور ، وقد تحدث عن هذه الانجازات محمد بن مرزوق الخطيب التلمساني قائلا:

" أخبرني الفقيه الإمام نور الدين أبو الحسن على بن محمد بن فرحون اليعمري بالمدينة (شرفها الله) قال: ...أما القناطر فلا يخفى ما فيها ، فقد عمل فيها الأعمال العجيبة ،فقنطرة وادي ردات ، وقنطرة بني بسيل ،وقنطرة الوادي بداخل فاس ،وقنطرة الرصيف وقنطرة وادي سطفسيف بتلمسان وقنطرة باب الجياد (*) وسد سيرات وقنطرة ميناء (**): هذه كلها من إنشائه وفي حسناته ولا يحيط الوصف بها ولا يقدر قدر ما أنفق من الأموال الطائلة فيها(فنفعه الله بها)، وهذه الأمور هي التي يشترك في الانتفاع بها القوي والضعيف والبادي والحاضر وهذه الآثار المتعددة لم تعهد لملك قبله في سالف الازمان " [1].

لم يأت الكاتب بوصف لهذه القناطر ،فالظاهر هنا أن عنصر الدهشة قد سيطر على نصه فذهبت مكنوناته اللغوية وقدرته على الوصف التي رأيناها سابقا ،فبدأ يعدد أسماءها والدعاء لصاحبها بالخير لإنجاز العظيم الذي حققه لخدمة الصالح العام، وغياب الوصف مرده للأعمال العجيبة لتلك الجسور ومهارة صانعها في اظهار براعته، فلا ينفع الوصف في نقل صورتها لأنه سوف يقف عاجزا أمامها .وكأن الكاتب أراد أن يضفي نوعا من الفضول في القارئ لرؤية هذه التحفة التي لم يسبق لحاكم وأن قام بها رؤية حسية ومشاهدة عينية.

---

*- " السطفسيف " هو الصفصيف،و "باب الجياد" هو جسر " مشكانة " ولا يزال به اطلال تدل على الموقع الحقيقي لهذا الباب ينظر: إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، المرجع السابق ، مج 1،ص:276

**-اسم نهرين موجودين بولاية غليزان. إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، المرجع السابق ، مج 1،ص:276

1- المسند الصحيح الحسن – ابن مرزوق الخطيب ، المصدر السابق، ص: 418

المبحث الثاني:

المظهـــر الاجتمــــاعي

الإنسان اجتماعي بطبعه يميل بفطرته إلى العيش على شكل مجموعات يتأثر بها ويأثر فيها ، وهذا الاحتكاك ينتج عنه انسجاما كبيرا بينهم عن طريق قيامهم بأفعال مشتركة وتكون غالبا منتظمة، فيتشاركون في الأحزان والأفراح ،حتى جاء في أمثال العرب في العصر الجاهلي،" **إذا كنت في قوم فاحلب في إنائهم** " أي إذا نزلت عند قوم افعل كما يفعلون .وتلك الأفعال المشتركة تسمى مظاهرا اجتماعية تعكس مدى الرقي الذي وصلت إليه حضارة تلك المجموعات.

ولم تختلف مجتمعات بلاد المغرب الإسلامي عن سابقتها، حيث تمكنت من خلق مظاهر اجتماعية اختلفت من منطقة إلى أخرى ومن مجتمع لآخر، وكلها ساهمت في احياء روح الحضارة العربية الإسلامية من خلال الحياة الثقافية والدينية ،ومن أبرز تلك المجتمعات المجتمع الزياني.

لقد ورث المجتمع الزياني مجموعة من الطقوس والعادات والتقاليد ،وقد تعودوا على ممارستها في شكل مجموعات أو أفراد متمسكين بها كتمسك الشجرة بتربتها ،فهي أصل هويتهم ومفخر لحضارتهم، وقد وصلت إلى بني زيان عبر الأجيال فاحتضنها ملوكهم بصدر رحب موفرين لها الجو المناسب لإقامة شعائرها عن طريق بناء أضرحة خاصة بالأولياء الصالحين ،وهنا دعوة لزيارتها هذا من جهة ومن جهة أخرى تنظيم محكم لاحتفالات عدة داخل البلاط الزياني إما بمناسبة المولد النبوي الشريف أو لحدق أحد أبناء السلطان للقرآن الكريم ،فكانت كلها سببا في تماسك المجتمع الزياني رغم تشعب قبائله .

سنحاول في هذا المبحث التطرق إلى مجموعة من العادات والتقاليد التي كانت تقام أو تمارس في القرن السابع والثامن للهجرة عن طريق استحضارنا لتراث الأدبي لتلك الفترة محللين نصوصه الشعرية والنثرية.

أولا/ العادات والتقاليد:

حرص بنو زيان على الممارسة المنتظمة لمجموعة من العادات والتقاليد الموروثة أبا عن جد، فكانت بالنسبة لهم الدّم الذي يجري في عروقهم ، ذهابها وتلاشيها يعتبر موتا حتميا لهم ، رغم تنافي بعضها مع ما جاء به الدين الإسلامي ومن أبرزها:

أ/الاحتفالات:

الغاية من الاحتفالات التي كانت تقام في عهد الدولة الزيانية هو الحفاظ على الهوية إلى جانب ذلك بث روح التعايش وادخال السعادة في نفوس أفراد المجتمع الزياني ،بأنواعها الثلاثة الدينية والعسكرية والمدنية.

1-الإحتفالات الدينية:

أ- الاحتفال بالمولد النبوي الشريف:

فقد كان أول من تنبه إلى الاحتفال بالمولد النبوي في بلاد المغرب هم بنو العزفي أصحاب مدينة سبتة في أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وأبرزهم محمد بن أحمد اللحمي العزفي السبتي الذي دعا للاحتفال به ،وألف كتابا لهذا الغرض عنوانه: " الدّر المنظم في مولد النبي المعظم "[1].

أما بخصوص الدولة الزيانية فقد عرفت الاحتفال بهذه المناسبة في وقت متأخر عن جيرانها وذلك وفق ما تشير إليه معظم المصادر التي تجمع على أنه تاريخ شيوع الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف

---

[1]- ينظر : تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فلالي – ج1، المرجع السابق، ص: 275

في تلمسان ، بدأ مع تولي **أبي حمو موسى الثاني** مقاليد الحكم سنة 760 هـ/1359 م،[1] وهذا الأخير كان الحاضن الأول –من ملوك بني زيان –لهذا الاحتفال فهيأ له الجو المناسب في مشوره دار ملكه.

تحدث عن ليلة المولد النبوي ابن خلدون فقال:

" وأطلت ليلة الميلاد النبوي – على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم – فأقام لها بمشوره داره العلية، مدعى كريما وعرسا حافلة ،احتشدت لها الأمم ، وحشرت بها الأشراف والسوقة،،فما شئت من نمارق[*] مصفوفة وزرابي مبثوثة [**]"[2].

وُصِفت ليلة المولد النبوي بالعرس للحشد الكبير الذي لقيته من كل بقاع العالم تعبيرا منهم لنصرة الدين الإسلامي ورفضهم لأي تأثير صليبي خارجي ،فكان لهذا الحفل التميز عن باقي الحفلات في كونه أقيم في قصر الملك أبو حمو موسى الثاني داره العلية ،وأنه كان موجها لعامة الناس ومنهم الفقراء ،ولم يقتصر على أشراف الدولة .

أما التنسي فقد ذكر تفاصيل ما زين به قصر المشور إضافة إلى ما ذكره يحي بن خلدون من وسائد وزرابي فقال بالتفصيل الممل :" **وبسط موشاة بالذهب مغشاة ، وشمع كالأسطوانات ، وموائد كالهلالات، ومباخر منصوبة كالقباب، يخالها المبصر من تبر مذاب ،ويفاض على الجميع أنواع**

---

[1]-- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فلالي – ج1، المرجع السابق ، ص:276

[*]- النمارق: مفردها نمرق أو نمرق: الوسادة الصغيرة ، تستعمل للاتكاء عليها . ينظر: بغية الرواد- يحي بن خلدون،ج2، المرجع السابق ، ص:101

[**]-اقتبس يحي ابن خلدون هذه العبارة من القرآن الكريم في قوله تعالى: ((ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة)) سورة الغاشية ، الآيتان 15 -16.

[2]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - يحي بن خلدون،ج2، المرجع السابق ، ص:101.

الأطعمة، كأنها أزهار الربيع المنمنمة، تشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر، ويخالط حسن رياها الأرواح ويخامر، رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال ،وقد علت الجميع أبهة الوفار والإجلال "[1].

لقد رسم التنسي لوحة فنية رائعة لهذا الاحتفال ، فاستخدم الصور البيانية كالتشبيه (شمع كالأسطوانات، موائد كالهلالات ،كأنها أزهار الربيع...) ،قاصدا من كلامه اظهار عظمة ذلك اليوم، ومدى اهتمام أهالي تلمسان بالمظهر الخارجي ،وبالتأكيد دون نسيانهم للمظهر الداخلي ويكمن في حبهم الكبير لرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق نظمهم لأبيات شعرية تناولت مدحه، وربما كان سبب اظهار أبو حمو موسى لثراء دولته وترفها في هذا الاحتفال _ من زرابي فاخرة ، وموائد متقنة الصنع ،وأطعمة متنوعة بتنوع أشكالها والوانها _ مرده إلى ذلك التنافس الشديد الذي كان قائما بينه وبين جارتيه المرينية والحفصية فكان لدولة الزيانية الصدارة في هذا الاحتفال رغم تأخرها في تنظيمه.

ثم أردف التنسي كلامه قائلا: " **بعقب ذلك يحتفل المستمعون بأمداح المصطفى عليه السلام ،ومكفرات ترغب في الإقلاع عن الآثام، يخرجون فيها من فن إلى فن ،ومن أسلوب إلى أسلوب ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس ،وترتاح إلى سماعه القلوب "**[2].

عَجَّ قصر المشور بالشعراء الذين أظهروا براعتهم في قرض الشعر بإلقائهم قصائد مدحوا فيها خير الأنام محمد سميت بالمولديات ، خاتمين اياها بالإشادة بمَلِكِهم أبو حمو موسى الثاني وما حققه من انجازات وانتصارات.

وقد أوصى أبو حمو موسى الثاني ابنه أبا تاشفين الثاني باتباع آثاره في هذه المناسبة بقوله:

---

[1]- نفح الطيب – المقري ، ج6 ، المصدر السابق ، ص: 513

[2]- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

" يا بني عليك بإقامة شعائر الله عز وجل وابتهل إليه في مواسم الخير وتوسل واتبع آثارها في القيام بليلة مولد النبي عليه السلام ،واستعد لها بما استطيع من الانفاق العام ،واجعله سنة مؤكدة في كل عام تواسي في تلك الليلة الفقراء وتعطي الشعراء ،فإن ركبت فيك الغريزة الشعرية ،وتحليت بالحلية الأدبية زادت جمالا إلى جمالك وكمالا إلى كمالك فانظم المولديات ،واجر مع حلبة السابقين في الأدبيات، تحرز بذلك أفضل المزيات "[1].

أراد أبو حمو موسى من خلال وصيته هذه أن يجعل الاحتفال بالمولد النبوي عادة يرثها ابنه من بعده، وسنة مؤكدة يتبعها ، داعيا اياه بأن يحافظ عليها ويسهر على نجاحها بكل ما يملك من مال وجاه وغريزة شعرية فبهذه الأخيرة يكتمل ملكه ويزيده جمالا ورفعة .

فعمل أبو تاشفين بنصائح والده ونسج هذه العادة على نسج أبيه ،وزاد عليه احتفال آخر بليلة السابع للمولد ،في ذلك يقول التنسي: " **ولما كانت ليلة سابع المولد المذكور احتفل لها أعلى الله مقامه بمثل احتفاله لليلة المولد أو أعظم** "[2].

يتضح من هذا القول أن أبو تاشفين كان بارا بأبيه في هذا الجانب فاستجاب لأوامره ، مدركا بذلك بأن الدين الإسلامي هو أساس بناء حضارة دولته ، وتخليه عنه هو انذار لسقوطها .

وقد كانت ليلة السابع من المولد النبوي كسابقتها في استقطاب عدد كبير من الحضور ومن مختلف الفئات ،ومن بينهم فئة الشعراء الذين لم يأتوا إلا وهم حاملين أروع القصائد التي عرفت بالمولديات وما انطوت عليه من مدح النبي ومدح السلطان ،فبدون هذه الفئة لا معنى لهذا الاحتفال لما كانوا يضفوه من جو يعمه الفرح والسعادة نتيجة لشغف الناس بالشعر وحبهم له ،ومن هؤلاء الشعراء الثغري الذي لم يتوان في الحضور فكان شاهدا على هذه الليلة ،وليس هذا فحسب بل كان من بين المشاركين في صنع

---

[1]- واسطة السلوك- أبو حمو موسى الزياني ، المصدر السابق ، ص: 168

[2]- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان – مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان-للتنسي ، (تح، محمود آغا بوعياد ، موفم للنشر، الجزائر ، ط:2011)، ص:196

الفرحة التي تحدثنا عنها سابقا مساهما في نجاحها حيث ألقى قصيدة رائعة خصيصا لتلك المناسبة ،وهذه بعض أبياتها:- الطويل-

فَيَا مَلِكًا يَحْمِي الرَعِيَـة رعيـــــــه وَيَحْيِيهم بالبَذْلِ والعِيشَـةِ الرَغْـدِ

ويَكْفُلهُم بالعَدْلِ والفَضْلِ والنَـدَى ويَشْمُلُهُم بِالجُودِ والرِفْـقِ والرَفـدِ

لِيُهَنِكَ مَا جَدَدْتَ مِنْ عَهْدِ مَولِـدٌ وسَابِعُهُ أَكْـرَم بِذَلِكَ مِـنْ عَهْــدِ

جَمَـعْتَ جَمِيعَ الحُسْنِ فِي لَيْلَتِهِمَـا تُذَكِرنَـا كِلْتَاهُمَـا جَنَـةَ الخُلـْـدِ

هُو المَولدُ السَامِي وسَـابِعُهُ الرِضَــى فَمَا لَهُمَا فِي مَظْهَرِ الفَخْرِ مِنْ حَدِ[1]

أشاد الشاعر في داليته هذه بفضل السلطان أبو تاشفين في إقامة ليلتي المولد وسابعه ،فوصف الأولى بالسمو والثانية بالرضى ،فبهما كان بنو زيان يفتخرون ويعتزون عن باقي دول العالم الإسلامي ،لما جمعت فيهما من محاسن سواء الجانب المادي من ملبس ومأكل أو الجانب الفكري والذي تمثل في القاء الشعر.

ب- الاحتفال بحفظ القرآن الكريم وختمه:

كان الخليفة أبو حمو موسى الزياني يقيم حفلا بهيجا لأبنائه كلما حفظوا سورا من القرآن الكريم، أو ختموه تشجيعا لهم بهذا المكسب .

ولم يخل هذا الحفل من الشعراء وما جادت به قرائحهم من قصائد شعرية لهذه المناسبة ، فكان أبرزهم محمد القيسي الذي هنأ ابو حمو موسى بمناسبة حدق الأمير ابي زيان (*) لسورة البقرة فقال

---

[1]-تاريخ بني زيان ملوك تلمسان –مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان –محمد عبد الله التنسي ، المصدر السابق، ص: 201.

*- هو ثالث أبناء أبو حمو موسى الزياني.، وقد حدق سورة البقرة في شهر رجب من عام 776 هـ /1375 م.ينظر : إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر– محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان ، المرجع السابق ، ص: 306.

(الطويل) :

وإنَّ أبَا زِيانَ زيــنٌ لذَاتــــــــــهِ ... زَكَا مِنْه نَجْل حِينَ طَابَ لَهُ نَجْـــــرُ

وقَدْ حَدقَ القُرآنَ حَدقَ مُجَــوِّدٍ ... فَأشْرقَ مِنهُ القَلبَ وانْشَرحَ الصَدْرُ

وَهَشَّتْ لَه الجَوزاَء تَخْـدُم حَفْلَه ... وَقَد شَد عَنْ عَقْد النِّطَاقُ لَهَا خِصْرُ

وَيَتْلُو كِتَابَ اللهِ واللــهُ حَافِــظُ ... لِتالِي كِتابَ اللهِ مَا حفـظَ الذِكـــْـرُ

فَيَا مَالِكَ فَاضَتْ أشِعَةُ نــــُـورِهِ ... فَأشْرقَتْ مِنْهَا للْعُلاَ أنْجُـمُ زَهـــْـرُ

لِيُهَنئُكَ أبْناءٌ بنَيت بِهَدْيهـــِـــــمْ ... مِنَ الدّينِ أزْكَانا يَهْــدِيهَا الكفـــرُ

بِهِ تَزْدَهي الأَعْلاَمُ والبِيضُ والقَنـَا ... كَمَا ازْدَهَتْ الأَقْلاَمُ واللُـوحُ والحِبْرُ

فَمَا مِنْهُم إلاَ أمِيرٌ مُؤَيــــــــــدٌ ... وَمـَا مِنهُم إلاَ رَضِيّمَا جـدٌ بِرُّ[1]

نقل لنا **القيسي** مشاعر الفرحة والبهجة والسرور التي عمت البلاط الزياني بمناسبة حفظ أبناء السلطان أبو حمو موسى للقرآن الكريم ،وليس هذا فحسب بل اتقانهم لأحكام التجويد ،ولم يقتصر الاحتفال على الخاصة بل شمل عامة الناس ،إلى أن ختم قصيدته بمدح الأمير أبو حمو موسى لحرصه الشديد للحفاظ على الدين الاسلامي انطلاقا من أبنائه ليشمل رعاياه عن طريق غرس مبادئه في نفوسهم ، وهذا ما جعلة مفخرة للجميع .وقد تواصلت الأمداح بتواصل انجازاته في عصره.

2- الاحتفالات العسكرية والمدنية:

أ-العروض العسكرية:

[1]- ينظر : إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر- محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان ، المرجع نفسه، ص: 307.

كان أمراء بني زيان يحتفلون باستعراض الجيش في كثير من المناسبات ،ويتفقدون عدته وقدرته القتالية بملعب المدينة، ففي سنة 767 هـ/ 1366 م ،احتفل أبو حمو موسى الثاني باستعراض ضخم لجيشه حضره سكان مدينة تلمسان ،إلى جانب سلطانهم ، في حفل بهيج ،وقد وصفه يحي بن خلدون وصفا دقيقا ، بقوله :

" صدرت الأوامر العلية للقبيل الأعز وكافة القواد بحشد العساكر ،إلى الحضرة الكريمة ، لتعرض بين خليفة الله ... وفي أوائل شهر شوال من نفس السنة، اجتمعت المحلات كافة بالبسيط الأفيح ، من ظاهر الحضرة " [1]

استطاع سلاطين بنو زيان ،وبالأخص أبو حمو موسى الزياني أن يدخلوا البهجة ،والسرور في قلوب سكان دولتهم عن طريق إصدارهم لأوامر تتضمن إشعارات بتنظيم استعراضات عسكرية ضخمة تظهر مدى قوة الجيش المرابط حامي الديار الساهر على مقاومة الأعداد، والمميز في هذا الحفل حضور السلطان مع حاشيته وترصده بنفسه لحركات جيشه القتالية المنتظمة بزي خاص ،وأسلحة مختلفة : رماح ، سيوف ... .

وقد أراد هذا السلطان أن يوصل هذه العادة لابنه بعد وفاته من خلال وصيته الذي جاء فيها قائلا:

" يا بني وينبغي لك أن تتخذ أياما في السنة وتلك من السير الحسنة ،فتتفقد فيها أحوال جيشك وقوادك وأجيادك ،وعددك واعدادك فتميزهم تميزا تعرف منه أحوالهم وتختبر قطائعهم ،وأموالهم وتضبط عددهم وتعرف عددهم ،فتحسن لمن يستحق الاحسان وعلى هذا يكون عملك في سائر أعوامك ،ويرجى لك سعود أيامك ودوام سلطانك إن شاء الله "[2].

1- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فلالي – ج1، المرجع السابق، ص: 286

2- واسطة السلوك – ابو حمو موسى ، المصدر السابق ، ص: 86.

كان لهذه الاستعراضات العسكرية جانب ترفيهي ،وجانب آخر سياسي يعنى بمراقبة الجيش من قادة وجنود ،وما يحتاجه من معدات قتالية ،فالدولة التي يكون لها جيش قوي يقل أعداؤها ويعيش أبناؤها في سلام، ورغم ذلك فقد حرص بنو زيان على المداومة لحشد جيوشهم في مكان واحد وبين يدي السلطان من كل سنة احتفاء منه بقوة جيشه من جهة ،وليكون لهذا الأخير معرفة شامله لأحوال جيشه – باعتباره أحد أركان دولته – المادية والمعنوية ،ومطلعا على ما يحتاجه من جهة أخرى.

ب-**سباق الخيل:**

تعددت وسائل الترفيه والتسلية عبر العالم الإسلامي فكان أبرزها **سباق الخيل** فعني سكان تلمسان في عهد الدولة الزيانية الخاصة منهم والعامة بتربية وترويض عدد كبير من الخيول ،وتجهيزها بكل ما يحتاجه الفارس أثناء الاحتفال الذي كان يقام بظاهر المدينة بملعب الخيل ،ونجاح هذا الاحتفال وحسن تنظيمه وحب أهالي تلمسان للفرجة والمرح جعلهم يساعوا لحضور مثل هذه المناسبات وبعدد أكبر مما يتصوره العقل لما لها من صلة وطيدة بالجانب الديني فقد حثنا عمر بن الخطاب على تعليم ابنائنا ثلاث رياضات ومنها ركوب الخيل ،فجاء في السند أخبرنا أبو حاتم محمد بن يعقوب أنبأ الحسين بن إدريس ثنا سويد بن نصر أنبأ عبد الله بن المبارك عن أسامة بن زيد حدثني مكحول الدمشقي : أن عمر بن الخطاب كتب إلى أهل الشام : " **أن علموا ابناءكم السباحة والرماية والفروسية** "[1].

تحدث **الثغري** عن هذا السباق فقال:

مَقَرُ العُلاَ ومَرقَى الأمَانِـــي وحَجَرُ القَنا ومَجْرى الجِيَـــــادِ[2]

وقال أيضا:

[1]- فضائل الرمي في سبيل الله تعالى- أبو يعقوب إسحاق بن أبي إسحاق القراب الحافظ . (ط1 ، 1409هـ / 1989 م مكتبة المنار ، الأردن – الزرقاء) . ص:56.

[2]- نفح الطيب – المقري ، (تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي ، بيروت)، ص: 328

فَبِحَلَبَةِ الأَفْراس كُلُ عَشِيــــةٍ	لَعِبٌ بِذَاكَ **المَلْعَبِ** المسْتَسْهِــلِ
فَتَرَى المِجْلَى وَالمصلى خَلفَـهُ	وَكِلاَهُمَا فِي جريـــه لَا يأتلـــــــي
هَذا يَكِــرُ وَذَا يَفِرُ فَتَنْثَنِــــــي	عَطْفًا عَلى الثَانِي عِنَـــانَ الأَوَلِ
فِي كُلِ طَرَفٍ كل طرف يستبي	قَيدَ النَواظِـرِ فِتْنَــةُ الُمتأَمِــــــلِ
وَرَدَ كَأَنَّ أدِيمَهُ شَفَقُ الدُّجـَــــا	أَو أَشْهَبَ كَشِهابِ رَجْـمَ مُرسِلِ
أو أحْمَرَ فَإِنِّي الأَدِيم كَعَسْجَـدِ	أو أَشْقَرَ يُزهِي بِعُــرفٍ أشْعَــلِ
أو أَدْهَـــمَ كَليـْلِ الأغـِــــرَةِ	كَالصُبحِ بُورِكَ مِنْ أَغَرِ مُحَجَــلِ
جَمعَ المحَاسِنَ فِي بديــعِ شياته	مهمـــى تَرُفُ العيْـــنُ فِيهِ تسْهـلِ
عُقبان خَيل فَوقَها فُرسَــانَهَــا	كَالأَسُدِ تنفضُ انفَاضَ الأجَدلِ [1]

وقف الثغري في هذه الأبيات واصفا ما كان يجري كل مساء في ملعب الخيل ذاكرا جزئياته، فلاحظ ذلك التنافس بين الخيول للوصول إلى خط النهاية بغية كسب السباق والفوز فيه ، فراقب مجرياته من بدايتها إلى نهايتها ،معبرا بذلك عن إعجابه بكل لقطة شاهدها في ذلك السباق والتي مازالت متأصلة في ذاكرته ،مسيطرة على مشاعره وربما هذا ما يفسر الاقبال الكبير لأهالي تلمسان لمثل هذه السباقات بغية التمتع بمنظر جري الخيول.

ب/ التبرك بالمقابر والأضرحة:

[1] – بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون ج1، المصدر السابق، ص: 15.

في معظم الأحوال كانت تقع المقابر الإسلامية خارج أسوار المدينة ،وعندما يتسع عمرانها وينتشر تصبح المقابر داخل أسوارها ،وقد عرف أهل تلمسان بحرصهم الشديد على زيارة مقابر وأضرحة الشيوخ المتصوفة كما كانوا يعتقدون بأن بركة الشيخ تحرص مدينتهم وتحميها من الغزاة [1].

ومن بين الأضرحة المشهورة ضريح **أبو مدين شعيب** بالعباد.

عنه قال الثغري:

وَلتِغْدُ **لِلْعُبَادِ** مِنهَا غُـــــدْوة — تُصْبحُ هُمُومُ النَفْسِ عَنْكِ بِمَعْزَلِ

وَضِريحُ تَاجُ العَارِفِينَ **شُعَيْبُهَا** — زُرْه هُنَاكَ فَحبَذا ذَاكَ الـــوَلِي

فَمَزَارُه لِلدِينِ والدُنيَـا مَعـًـا — تمْحي ذُنُوبكَ أو كُروبكَ تَنْجَلِي[2]

كان العُبَادُ مكانا يلجأ إليه كل مهموم ذاقت به نفسه ،إما من أهل تلمسان أو من خارجها متبرك بضريحها أبو مدين شعيب الذي لقبه الثغري بتاج العارفين، وقد أكد أن بزيارته تذهب هموم الإنسان لأنه يعتبر من أولياء الله الصالحين الذين تفقهوا في الدين وكان لهم خبرة في الحياة.

يقول التلاليسي:

و**عُبَادُكَ** مَا القلْبُ نَاسٍ ذِمامَـــهُ — بِهِ رَوضَةٌ للخَيرِ قَدْ جُعلتْ حَلاَ

بِهَاشَيخُنَا المِشْهُورُ فِي الأَرضِ ذِكـرُه — **أَبُو مَديَن** أَهْلاً بِهِ دَائِمًا أهـْلاَ.[3]

كان الناس يحجون إلى ضريح هذا الولي المشهور، وقد اكتسح اسمه العالم باسم أبو مدين لآخذ بركته متغنين بقصائده .

---

[1]- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص:17-18

[2]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون ،المصدر السابق، ص:14

[3]- المصدر نفسه، ص: 17 -18

يقول ابن خميس:

عَلَى **قَرْيَةِ العُبَادِ** مِني تَحِيَــةٌ	كَمَا فَاحَ مِن مِسْكُ اللَطِيمَة[*] فَائِحُ
وَجَادَ الثَرَى تَاجُ المِعَارِفِ دِيمَةُ	تَغُضُ بِهَا تِلكَ الرُبَـــى والأَبَاطِحُ
إلَيكَ **شُعَيبُ بْنُ الحسيـــن**	نَوَازِعُ لَكِـنَ الجُسُـــومُ نَـــوازِحُ[1]

بعث ابن خميس إلى الفقيه الإمام أبو مدين شعيب بن الحسين تحية طيبة كرائحة المسك ، رافعا يداه بالدّعاء لقبره معبرا بذلك عن حبه لأولي الكرامة والصالحين ،مؤكدا على أن أهل تلمسان يتسابقون لزيارة ضريحه ،ولم يمنعهم شيء إلا الموت.

ثانيا: اللباس

يعتبر اللباس من الضروريات التي لا يستطيع الإنسان الاستغناء عنها كالمسكن والمأكل ،فهو الذي يعبر عن ثقافة الشعوب كون الإنسان يعيش ضمن مجموعات وكل مجموعة لها عاداتها وتقاليدها الخاصة بها ، وقد عرف اللباس تغيرا واضحا من حيث تصاميمه وزخارفه من عصر لآخر ومن منطقة لأخر ،وبعدما كان الناس يصنعونه في منازلهم لتلبية طلباتهم الخاصة ،أصبحت صناعته فيما بعد حرفة لها مكان خاص بها وصناع يحيكونه بإتقان ، متخذين من صناعته حرفة يقتاتون منها فأصبحت منتوجاتهم تباع في الأسواق الداخلية للدولة التي يعيشون فيها أو في الأسواق الخارجية (الدول المجاورة أو الاجنبية)، وهذا بالضبط ما كان شائعا لدى المجتمع الزياني.

يقول يحي ابن خلدون عن أهل تلمسان بأنهم : " **ناس أخيار ألو حياء ووقار ووفاء بالعهد ودين واقتصاد في المعاش واللباس والسكن على هدي السلف وحوك الصوف يتفانون في عمل**

[*]– وعاء المسك..

[1] – بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون ، المصدر السابق، ص: 12

أثواب الرقاق فتلقى الكساء والبرنوس عندهم من ثماني أواقي ،والأحرام من خمس بذلك عرفوا في القديم والحادث " [1].

بساطة الحياة عند أهل تلمسان كانت سببا في بساطة اللباس عندهم ، فمن مادة الصوف صنعوا أثوابا مختلفة تتماشى وجميع فصول السنة يرتديها كلا الجنسين ومناسبة لكل الأعمار فمثلا البرنوس نجده للكبار وللصغار.

وقد خصص ملوك بني زيان لباس خاص بجيوشهم بعد تقسيمهم إلى أربعة أقسام ولكل قسم مهام مكلف بها .

تحدث أبو حمو موسى الزياني عن القسم الرابع من أقسام الجيش وهم مماليك الملك فقال :

" يكون لهم ترتيب في اللباس ، يمتازون بذلك على سائر الناس يتزينون بالأقنية الحسان المختلفة الالوان وبأيديهم الحراب عليها صفار الرايات من أنواع الحرير مختلفات لأنهم مما يزيدون في بهاء الملك وجماله وضخامته وكماله ،وهم مما يتزين بهم الملوك والأمراء والاشراف والكبراء..." [2].

اللباس الذي يرتديه هؤلاء والرايات التي يحملونها في أيديهم ،والمصنوعة من مادة الحرير كلها بدافع إظهار مكانة الأشخاص الذين هم بصدد مرافقتهم ،وكأنهم الحلي التي تزين الملوك أينما حلوا وارتحلوا.

وقد قال أبو حمو موسى في إحدى قصائده:

وَنَحْن ذُو التِيجَانِ مِن آلِ هَاشِم لَعْمركَ مَا **التِيجَانِ** غَيرَ **العَمَائِمِ** [3]

[1] – بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص: 32

[2] – واسطة السلوك في سياسة الملوك – أبو حمو موسى الزياني – المصدر السابق – ص: 81

[3] – بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج2، ص: 212

ذكر الشاعر نسبه إلى آل البيت (بنو هاشم) أي رهط النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، الذين عرفوا بارتدائهم للعمامة التي يقابلها عند غيرهم من غير العرب بالتاج ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث له : " **العمائم تيجان العرب** " [1]،وقد احتفظ بنو زيان -كونهم مزيجا من البربر والعرب - بتقاليدهم فكان ملوكهم يضعونها لرمزيتها فهي تعبر عن السلطة والسيادة والمكانة العالية للشخص الذي يرتديها ،فتميزت بفخامة الثوب الذي تصنع منه ،إلى جانب ذلك اختلافها من حيث الشكل عن باقي العمائم التي يضعها الرعية ،فكانت كالتاج المرصع باللآلئ .

ثالثا: الأكـــــــل

يعتبر الأكل أيضا من ضروريات حياة الإنسان إلى جانب اللباس، فأبدع هذا الأخير في صناعة أطعمة لذيذة وبمكونات بسيطة ،ومن المأكولات التي كانت تحضر في عهد الدولة الزيانية نذكر:

1-المشهدة :

سرد لنا يحي ابن خلدون في البغية قصة أبطالها سيدي الحلوي و الإمام أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف بن محمد بن الدهان الأوسي المعروف بابن المرأة ، فجاء نصها كالأتي :

" أتيت من مرسية زائرا عمة لي بتلمسان فما سرني شيء كوجودها حية وتطوفت يوما بتلمسان فرأيت هذا الشيخ يبيع طبق عود في يده حلواء للصبيان الصغار فتفرست فيه مخائل القوم فاتبعته فاذا من يمر به من الصبيان ينفرون له فيدور فيشطح وربما أنشد مقطعات منفقات الألفاظ في مغنى المحبة فلم أشك أنه من الصالحين ثم أخذ في ثمن شيء من حلوائه كسرة خبز سميد فتصدق بها على يتيم ذي اطمار بعد علمه بحاجته فقلت في نفسي هذا ولي مورعن مقامه يبيع الحلواء وكان ذلك برمضان ، فلما

---

[1]- مسند الشهاب – القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي ، (ج1 ، تح، حمدي عبد المجيد السلفي ،ط1، 1405 هـ /1985 م)، ص:75

جاء الفطر ابتعت سميدا وعسلا وقلت لعمتي إصنعي لي **مشهدة** يفطرها عندي رجل من الصالحين ففعلت، والتمسته في الناس بعد صلاة العيد فلم أجده فحوقلت وقلت في نفسي اللهم بحقه فاجمع بيني وبينه في هذه الساعة فإذا هو عن يميني فانضم إلي وقال صنعت عمتك **المشهدة** فقلت نعم فقال قم بنا إلى ناحية نأكل هذه **المشهدة** الحاضرة وحينئذ نمشي إلى دار عمتك فقمت معه إلى خارج المصلى فأخرج من تحته صحفة مغطاة بمنديل نظيف وكشطه فإذا هو فيه **مشهدة** لم ير مثلها احكام طبخ وجودة صنعة وكثرة آدام فأكلنا وتوجهنا إلى دار عمتي فأحضرت عمتي **مشهدتها** فلم تشبه الأولى بشيء فأكلنا منها شيئا "[1].

فالحلوء التي تناولها الإمام أبو اسحاق مع الشيخ سيدي الحلوي هي من الحلويات التي كان يصنعها سكان تلمسان بمناسبة حلول عيد الفطر المبارك ، وقد تفنن الأهالي في صنعها رغم بساطة مكوناتها(السميد والعسل) ،وهذا ما أدهش الامام أبو اسحاق عند تناوله لمشهدة سيدي الحلوي فاستغرب للجودة صنعها ورأى فرقا بينها وبين مشهدة عمته، والغريب أنه لم يذكر من صنع المشهدة التي كانت بحوزة الحلوي.

2- طعام الميلاد:

بمناسبة احتفال أهالي تلمسان بمولد خير الانام وأزكى السلام محمد صلى الله عليه وسلم خصصوا لمولده من كل عام – في عهد أبو حمو موسى الثاني – أشهى الأطباق ،ومن هذه الأطباق طعام الميلاد الذي تحدث عنه يحي بن خلدون قائلا:

" وجيء آخر الليل بالخرس الشهي الملاذ الحافل الملامح "[2]

---

[1]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون ، ج1 ، المصدر السابق ، ص: 66- 67 .

[2]- المصدر نفسه ، ص: 123

يكشف لنا هذا القول على جانب مهم من المجتمع الزياني المحافظ على عاداته وتقاليده معززا ذلك بفرحته بمولد محمد صلى الله عليه وسلم ،عن طريق تحضيره لطبق خاص بهذه المناسبة وهو الخرس . والمتمثل في طبق البسيسة(*) التي كانت تصنع بسميد الشعير المحمص والزيت والماء حيث كانت تقدم للنفساء والأشخاص الذين يأتون لتهنئة بالمولود الجديد وذلك حسب بعض المصادر.

* - تسمى كذلك تقنتة، أنظر : الحاجم حمدبن رمضان، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان،(ج2 ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، 1995)،ص: 375.

المبحث الثالث:

المظهـــــر الاقتصــــادي

لعلّ نجاعة أي حضارة تكمن في نجاعة اقتصادها واستمرار عجلته في الدوران ،وإذا عدنا أدراجنا إلى الوراء وبالضبط إلى زمن حكم بني زيان – متصفحين تاريخ حضارته –لوجدناه حافلا بالنجاح، وما حققته الدولة الزيانية من ازدهار وتقدم في الجانب الاقتصادي كان سببه الرئيسي بناء المصانع والأسواق، وما شهدته من نشاط اقتصادي واسع النطاق من جهة ،ومن جهة اخرى وفرة المياه التي كان لها يد في كثرة المحاصيل الزراعية بشتى أنوعها.نذكر منها أصناف الحبوب من قمح وشعير وذرة، والخضر التي تمثلت في الفول الجلبان واللوبياء ،أما الأشجار المثمرة فشملت الزيتون ،النرنج ،الليمون ،التين ،اللوز، الرمان ، الأجاص والكرز أو ما يعرف بحب الملوك قال لسان الدين بن الخطيب : " **ألا أنها بسبب حب الملوك مطمعة للملوك** "[1].

أولا– الأسواق:

تعتبر الأسواق من المرافق الضرورية والحيوية التي تتم فيها جميع التعاملات التجارية عن طريق تبادل السلع بين التجار إما داخل الدولة أو خارجها ، يرتاد إليه الناس من مختلف الفئات والأعمار ،ولم تخل الدولة الزيانية من هذا المرفق الحيوي فكان أشهرها:

[1]– باقة السوسان –الحاج محمد بن رمضان شاوش ، المرجع السابق ، ج1، ص: 38

1- القيصرية :

وهي عبارة عن سوق واسعة الأطراف[1] تتكون من مجموعة من البنايات بها دكاكين ومحلات تجارية ،وورشات صناعية مخازن وفي بعض الاحيان مساكن فوق الحوانيت وبها فنادق يقصدها التجار الأجانب [2].

وقد اعتبرت القيصرية[*] من أهم أسواق الدولة الزيانية لاحتوائها على السلع الآتية من أروبا إلى موانئ الدولة الزيانية كوهران والمرسى الكبير وهنين ومزغران وتنس ، تنقل منها إلى تلمسان حيث يزداد الإقبال عليها من قبل أهلها لارتفاع مستوى سكان تلمسان العاصمة، وعلى الخصوص في العصر الذهبي، فيروى عن أبي حمو موسى أنه قال في شأن تهافت الناس على البضائع الأوروبية :" بأنها تغير من طبائع الناس وتدفع الأغنياء نحو الرشوة "[3].

عن هذا السوق قال ابن خميس:

تَرَكْتُكَ سُوقَ البَز[**] لاَ عَنْ تَهَاوُنٍ وكَيفَ ؟ وَظَبْيِي سَائِحٌ فِيكِ غَيْر سَارِحُ[4]

فحنين ابن خميس إلى سوق البزّ دال على محبته لهذا المكان ، فربما ترك فيه أصدقاء له كان يحادثهم كلما سمحت له فرصة التجول بين أزقته لاقتناء ثياب له.

ثانيا – دار الصناعة:

---

[1]- تلمسان عبر العصور – محمد الطمار – المرجع السابق ، ص: 130

[2]- ينظر : تلمسان في العهد الزياني ، عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص: 135

[*]- القيصرية : تعني سوق السلطان او القيصر. ينظر: تلمسان في العهد الزياني ، عبد العزيز فيلالي ،ج1، المرجع السابق ، ص:157.

[3]- ينظر: تاريخ الدولة الزيانية – مختار حساني – المرجع السابق ، ص: 50-51

[**]- وهو سوق كانت تباع فيه الثياب

[4]-- نفح الطيب – المقري- المصدر السابق، ص:133

حققت الدولة الزيانية اكتفاء ذاتيا من حيث الصناعة الحربية فكانت منتوجاتهم محلية الصنع تتميز بالجودة العالية والاحكام في الصنع ، والفضل في ذلك يرجع إلى العناية التي خصصها السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني لهذا الجانب خاصة فئة الصناع فجاء مشروعه تشييد دار للصناعة سنة 766 هـ /1365 م، ذات الفائدة الحربية وهي دار استقطب لها الصناع على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وديانتهم وصناعاتهم فكان العمل فيها نشيطا ، قائما على قدم وساق ،ونظرا لأهمية هذا المصنع وانتاجه الحربي الاستراتيجي الهام فقد كان أبو حمو الثاني يتفقد صناعته مرتين في كل يوم [1].

وقد وصف يحي ابن خلدون هذه الدار فقال:

" إن دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم ،وتباين لغاتهم وأديانهم فمن دراق ورماح ودراع ،ولجام ووشاء ،وسراج وخباء ونجار وحداد وصائغ ودباج وغير ذلك فتصطك لأصواتهم وألاتهم الأسماع ، ،وتجار في أحكام صنائعهم الأذهان وتقف دون بحرهم الهائل الأبصار ،ثم تعرض قومتهم أصيلان كل يوم مصنوعاتهم فيه بين يدي الخليفة (أي السلطان) أيده الله ... وينصف العاملين من أرزاقهم عدلا هكذا أبدا " [2].

يقال الحاجة وليدة الاختراع ،فلولا حاجة بنو زيان لدروع والرماح والسروج ...وهلم جر من اللوازم الحربية لما لجأوا إلى بناء مكان جامع لأنواع مختلفة من الصناعات ، والسعادة التي تحدث عنها يحي بن خلدون تكمن فيما رآه من تعاون وانسجام بين عمالها (دار الصنعة)، رغم اختلافهم في مشاربهم ولغاتهم فهدفهم الأسمى واحد ،وهو اتقان الصنعة لتعلن في الأخير على شكل منتوجات قابلة للعرض في الاسواق ،أو لتزويد الجيش الزياني بما يحتاجه من عُدة تحسبا لأي طارئ قد يحدث في الأيام المقبلة ،ولأهمية هذا المشروع سهر أبو حمو موسى على نجاحه ببث النشاط فيه عن طريق تسديده لأجورهم عمالها بالتساوي دون تمييز أو تماطل منه .

[1]- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي ج1 ، المرجع السابق ، ص: 221

[2]- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.



ولعل حب هذا السلطان للصناعة الحربية جعله يخصص وقتا معينا لزيارة دار الصناعة ،متخذها ذرعا لصمود دولته أمام اعدائه واخافتهم، فكلما كانت هناك عُدّة حربية قوية كلما قلت أطماع الأعداء للسيطرة عليها وفي هذا قال:

" يا بني وينبغي لك أن تتخذ في أيام الجمعة يوما تتخلى فيه عن الناس ،ولا تمضي فيه حكما تنفرد فيه بالنظر في مجابيك وأموالك ،وتتفقد أموالك في ديار الصناعات من الأشغال والحاجات مثل النظر في العدد الحربية التي تظهر بها القوة بالكلية "[1].

وقد انتهج السلطان أبو حمو موسى الزياني في تعامله مع طبقة التجار ،والصناعات والحرف – باعتبارهم قوة اقتصادية وجزء مهم ساهم في تقدم الحضارة الزيانية – سياسة خاصة به، وقد فصَّل الحديث فيها على شكل وصية لابنه أبو تاشفين فقال:

" والوجوه والفضلاء الضابطين لجموعهم ، الرابطين تابعهم بمتبوعهم ، مثل أهل التجارات وأهل الحرف والصناعات ،فتنزل كل جماعة منزلتها ،وترتبها في طبقتها ، ولتكن عوائدك جارية بالفضل عليهم وأياديك منبسطة إليهم ، فربما تدعوك الضرورة إلى الانتقاع بهم في الشدايد، فيقفون معك الموقف المرضي في المصادر والموارد، ولذلك لحسن مدافعتك عنهم ،وتوثقك بالإحسان منهم ،ولتكن معاملتك لهم بما يليق من اكرامهم ،وحفظهم واحترامهم "[2].

ثالثا– ثروة المياه:

[1]- واسطة السلوك في سياسو الملوك– أبو حمو موسى الزياني ، المصدر السابق، ص: 86

[2]- المصدر نفسه ، ص: 87



الماء هو أساس حياة الكائنات ، والإنسان يحتاج إليه باستمرار إما لشرب او الاستحمام أو لسّقي ،قال الله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُومِنُونَ**﴾[1]، ولتقريبه من مكان اقامته فكر في بناء شبكة لتوزيعه بانتظام ،وهذا ما وجد داخل المدن الزيانية ، وساعد تزويد أهل تلمسان بالمياه انحدار الأنهار من أعالي الجبال ، وكثرة الينابيع والعيون التي تقع خارج أسوار المدينة[2] ، وصف يحي ابن خلدون مائها فقال :

" **عذبة الماء كريمة المنبت** "[3]

المقصود من هذا القول أنّ تلمسان تميزت بوجود مساحات خضراء تخللتها أشجار الفواكه ومختلف المحاصيل الزراعية التي كانت تعود على الدولة الزيانية بالدخل الوفير، وذلك كله يعود بالدرجة الأولى إلى كثرة المياه وعذوبتها، وإلى تربتها الخصبة بالدرجة الثانية .مما يجعلها أكثر عطاء من حيث الإنتاج ولذة من حيث طعم المنتوج.

وقد أشار إلى ذلك الشاعر **التلاليسي** في أبيات له فقال:

سَقَى اللَهُ مِن صَوبِ الحَيا هَاطِلاً وبَلاَ (*) رُبوعَ تِلمسَــانَ التِي قَدْرهَا اسْتَعْلَى

رُبوعٌ بِهَا الشَبَـــــابُ مُصَاحِبِـــــي جَررتُ إلَى اللَذاَتِ فِي دَارهَا الذِيلاَ

كَم نلْتُ فِيهَـــا مِن أمـــانِ قَصِيـــةٍ وَكَمْ مَنَحَ الدَهرُ الضَنِينُ* بِهَا النِيلاَ

---

[1]- سورة الأنبياء (الآية : 30)

[2]- تلمسان في العهد الزيان – عبد العزيز فيلالي- المرجع السابق ، ص: 149

[3]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي ابن خلدون – المصدر السابق – ص: 9

*- المطر الشديد .

إلى أن قال:

لَهَا بَهْجَةٌ تُزْرِي عَلى كُل بلَـــــدَةٍ   بِتاجِ عَلاهَا كالعَـــرُوسِ إذَا تَجلـَـى

فَيا جَنةَ الدُنيَا التِي رَاقَ حُسنَهــا   فَحَازَتْ عَلَى كُلِ البِلادِ بِه الفُضْلَى [1]

جعل الله سبحانه وتعالى ربوع تلمسان تنعم بالاخضرار ،فسقى تربتها بالمطر الشديد الذي ينزل بغزارة فامتلأت الوديان ،وتفجرت العيون فأصبحت جنة دنيوية لحسنها وجمالها فاحتلت بذلك مرتبة عالية بين حواضر المغرب العربي خاصة والعا لم عامة.

وقد أفرد الشاعر محمد بن مرزوق الخطيب التلمساني بيتين من الشعر تحدث فيهما عن تلمسان فقال: (الكامل)

بَلَد الجَدَاولِ مَا أَمَرَّ نَوَاهــَـا   كلف الفُؤادُ بِحُبِهَا وَهَواهــَا

يَا عَاذِلِي كُنْ عَاذِرِي فِي حُبِهــا   يَكْفِيكَ مِنْهَا مَاؤُهَا وهَوَاهــَا[2]

إنّ كَثْرَت مياهِ تلمسان تجلت في اختلاف منابعها ومجاريها ،وهذا ما حرك مشاعر شعراء الدولة الزيانية ،فسارعوا في وصفها بأوصاف يرق لها القلب وتدمع لها العين شوقا لرؤيتها كلما طال بعد أجسادهم عنها رغم تعلق قلوبهم بها متمنين العودة لأحضانها ولمس مياهها ونهلهم منها لتذوق عذوبتها ورؤية صفائها ،فالماء هو الحياة ،حياة الإنسان وحياة قلب الإنسان العاشق لخريره وهو ينساب في الجداول ، منظرا لطالما تغنى به الشعراء وافتخروا به كون بلدهم من يحتويه ،ولا مانع لهم لتقرب منه والانتفاع به إلا الفراق والبعد ،وافتخروا به كونه كان مصدرا لحياة حضارتهم وبقائها.

---

*- المنيف

1- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون ، مج 1، ص: 17 – 18

2- إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر – محمد رمضان شاوش والغوثي بن حمدان ،المرجع السابق ، ص: 278،

قال **محمد بن يوسف القيسي الثغري** في قصيدة له بعنوان **كل حسن على تلمسان وقف** : (الخفيف)

وأَنبَرَى كُل **جَدْولٍ** كحُسَـــامٍ عَارِي الغِمْدِ سُندُسِي النِجَــادِي

وظلال الغصون تكتب فيــــه أحرفــــا سطـرت بغير مداد[1]

عبر **الثغري** عن صفاء مياه تلمسان بصورة جميلة أثناء مروره من بين الجداول كالسيف الامع حين اخراجه من غمده ،وانعكاس صورة أغصان الأشجار التي في جوانبه كأنها أحرف كتبت على صفحة بيضاء وبدون حبر.

وفي قصيدة أخرى قال :

تُسَلِيكَ دَوحَاتِها[*] وتِلاعِها نَغْم البَلابلِ واطْرادِ **الجَدْولِ**[2]

صَاحَبَ جريان الماء في وعائه (الجداول) نغمات كان يصدرها طائر البلبل يلاحق مسيرته باتجاه الاشجار العظيمة لسقيها بدون توقف ،يواصل سيره غير أبه بطول الطريق.

وكانت شبكة المياه هذه محكمة القنوات داخل المدينة وخارجها تبنى من الطوب ، مغطاة تحت الأرض ولا سيما الجزء الذي يكون خارج المدينة ، وهو الأنبوب الرئيسي الذي يصب في الأحواض ، التي تستعمل في سقي البساتين وفي الصهاريج التي تزود سكان المدينة ، عن طريق قنوات تصل الدور والمنازل والقصور ،والحمامات والفنادق والمساجد والمدارس والزوايا والساحات العامة والأسواق [3].

1- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون –المصدر السابق، ج2، ص: 561

*- الشجرة العظيمة المتشبعة ذات الفروع الممتدة من شجر مّا والجمع : دَوْحٌ

2- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون – المصدر السابق، ج1: ص:88

3- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي ، ج2، المرجع السابق ، ص: 149

قال صاحب البغية :" **وتنصب إليها من عل جبلها أنهار من ماء غير ماسن ، تتخلد به أيدي المذانب والأسراب المكفورة خلالها ثم ترساه بالمساجد والمدارس والسقايات والقصور وعليه الدور والحمامات فيفعم الصهاريج ويفهق الماضي ويسقي بساتينها خارجها ومغارس الشجر ومنابت الحب فهي التي سحرت الألباب** "[1].

الصهريج الذي يتحدث عنه يحي ابن خلدون هو الصهريج الكبير، ويسمى أيضا بالحوض العظيم "grand bassin" (الشكل 03) الذي يرجع حفره إلى عهد أبي تاشفين ، وتبلغ مسافته (مائتا متر) طولا ومائة متر عرضا ،وثلاثة أمتار عمقا، والظاهر أنه كان معدا للفرجة وكذلك للري البساتين الواقعة شمال المدينة ،وكان الماء يأتيه من المرتفعات التي تطل على تلمسان من الجنوب، [2] ويذكر أنه كان يستعمل للسباق بين الزوارق والقوارب في أيام الأعياد والاحتفالات الملكية وللسقي في الأيام العادية[3] .

فقد كان هذا الصرح يؤدي مهمتين في آن واحد ،الترفيه عن النفس من جهة ،وسقي البساتين من جهة أخرى .

وقد وجدت عدة سقايات في ازقة المدينة وفي دروها ،و عيون خارج أسوارها .

وهذا ما لاحظه حسن الوزان أثناء رحلته بين أرجاء تلمسان واصفا ما شاهده قائلا:" **في المدينة عدة سقايات، ولكن العيون توجد خارج المدينة ،بحيث إن العدو يمكنه أن بقطع الماء عنها بدون صعوبة** "[4].ومن أشهر عيونها نذكر :

عين ونزونة : التي تقع خارج باب الجياد من الجهة الجنوبية

---

1 – بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون – المصدر السابق، ص: 10

2– أبو حمو موسى الزياني – حياته وأثاره – المرجع السابق ، ص: 62.

3– تلمسان عبر العصور – محمد الطمار – المرجع السابق ، ص: 129.

4– وصف افريقيا – حسن الوزان ، (ج1 تج،: محمد حجي ومحمد الأخضر ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي)، ص: 20

عين الكسور: بالمنية خارج باب القرمادين ،في الجهة الشمالية الغربية لمدينة تلمسان[1].

عين **أم يحي**: كان ماء هذه العين يجري بالقصر الملكي القديم بتلمسان[2].

قال عنها التلاليسي :

وكَم لَيلةٍ بتنَا بِصفْصِيفِها الذِي تسَامَى علَى الأنْهَار إذَا عَـــدمَ المِثَلاَ

ومِنهُ ومنْ **عَينِ أُم يَحْي** شَربنَا لأنَهُما فِي الطِيبِ كالنِيلِ بَل أَحـــلَى [3]

شبه الشاعر مياه هذه العين ــ أم يحي ــ بمياه نهر النيل الموجود في بلاد مصر مَهْدُ الحضارة الفرعونية في العذوبة بل فاقته في الحلاوة، وكأنّه نهل من هذا النهر فلولا ذلك لما جاء بهذه المقارنة.

وكانت مدينة تلمسان تزود من عين أخرى تعرف بـ " الفوارة " عبر قنوات تحت الأرض تبعد عن المدينة بنحو ثلاثين فرسخا [4].

قال القيسي :

وأقْصُدْ بيـــومٍ ثَالثٍ **فَـــــوَارةٍ** وبِعذبِ مَنـــــهَلهَا المبَــــارَكِ

تَجرِي فِي دُرِ لجُينٍ سَائِـــــــــلٌ أحْلىَ وأعْذبُ مِن رَحيقٍ سَلْسَلِ

1- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي – ج1 ، المرجع السابق ، ص: 150.

2- ينظر :إرشاد الجائر إلى آثار أدباء الجزائر – محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان ، المرجع السابق ، ص: 293.

3- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي ابن خلدون – المصدر السابق ، ص: 17.

4- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي – ج1، المرجع السابق ، ص: 151.

وأشْرِقَ علَى الشَرفِ الذِي بإزَائِهَا لتَرَى تِلمسَانَ العَليَةِ مِن كـــــل[1]

كان أهالي تلمسان يقصدون هذه العين (فوارة) للارتواء من مائها العذب المبارك الصافي كالفضة عند جريانه بين السواقي ،ومن خلالها ترى تلمسان كالعروس في أبهى حُلة.

رابعا/الإنتاج الزراعي:

اتَّسم اقتصاد المغرب العربي الاسلامي بالاكتفاء الذاتي وخاصة في مجال الانتاج الزراعي ،فكان للخضر والفواكه حضورها المكثف داخل الأسواق ،ومصدرها أراضي الدولة الزيانية لثروة الماء وخصوبة التربة والاستغلال الجيد لتلك الثروة من طرف الأهالي ومسؤولي الدولة ،والمهمة الأكبر كانت على عاتق المحتسب الذي كان يقوم بضبط الأسعار في الأسواق ومراقبتها ،وقد أشار يحي بن خلدون إلى بعض المنتوجات الزراعية التي كانت تثمرها أرض تلمسان فقال:

" ويوجد بخارجها ... الحدائق الغالب بما تشتهيه الأنفس وتلد الأعين من فواكه الرمان والزيتون والتين ...،وتنصب إليها من أعلى جبالها أنهار من ماء غير آسن، ويسقي بساتينها خارجها ومغارس الشجر ،ومنابت الحب "[2].

يؤكد الكاتب أن أهالي تلمسان استغلوا الأراضي المحيطة بأسوار مدينتهم لزراعة كل ما لذَّ وطاب ،غير متكلين على المدن المجاورة في هذا الجانب ، كون تلك المنتوجات كانت تعود على خزينة الدولة بالدخل الوفير في ايام السلم ،أما أيام الحصار فيرتفع سعرها لتواجد أغلب بساتينهم خارج المدينة فيصعب الذهاب إليها والعمل بها.

---

[1]- باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان – الحاج محمد بن رمضان شاوش – ج 1، المرجع السابق ، ص31، وبغية الرواد ، ص: 15.

[2]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون، ج1، المصدر السابق ، ص:11

المبحث الرابع:

المظهـــر السياســـي

تميزت الحياة السياسية في عهد الدولة الزيانية بحسن التنظيم والتسيير ،والسيطرة على الأوضاع الداخلية والخارجية –رغم تعرضها لمضايقات من طرف جارتيها المرينية والحفصية بين الحين والآخر وتعرضها للحصار لعدة شهور –انطلاقا من الحاكم باعتباره العقل المفكر والآمر والناهي وصولا إلى الرعية باعتبارهم المنفذين لتلك الأوامر ،والنتيجة التي حققتها الدولة الزيانية نجاعة سياستها أحسن مما حققته الدول المجاورة ،وقد ظهر ذلك جليا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد ،والمصدر المؤكد لما ذكرناه وصية السلطان أبو حمو موسى الزياني لابنه أبو تاشفين فقد تضمنت بين طياتها مجموعة من الخطط سهر طول فترة حكمه على تطبيقها بغية تنظيمه لدولته ، متمنيا لابنه أن يسير على خطاه بعد وفاته .

أولا: **نظام الحكم:**

كان نظام الحكم في عهد الدولة الزيانية ملكي وراثي تعاقبت عليه عدة ملوك كل واحد منهم ترك بصمته في مختلف المجالات ،وأشهر هؤلاء الملوك أبو حمو موسى الزياني تحدث عنه التلاليسي مادحا إياه:

ولاَ عَجَب إنْ كُنتِ فِي الحُسْنِ هَاكَذ ومُوسَى الامَامُ المرتَضَى فِيكِ قَدْ حَـلَى

مُطَاعٌ الشُجَاعُ فِي الوِغَادِ ومَهَـابَة حُسَامٌ عَلَى البَاغِينَ فِي الأَرْضِ قَدْ سَلاَ

كَرِيمٌ حَليـمٌ حَاتِمِـيٌ نَوالُــهُ سَعيدٌ حَمِيدٌ يَصْدقُ القَـوْلَ والفِعـلاَ

هو المِلكُ الأَرقَى هُو المِلكُ الرِضَـى هُو المِلكُ الأَسْنَى هُو المَـلِكُ الأَعْـلَى

وَمِنْ هَذِه الأَوصَافِ فيهِ تَجَمَعَتْ حَقِيقا عَلَى كُلِ المَعَالِي قَدْ اسْتَــولَى [1]

حملت شخصية أبو حمو موسى عدة صفات جعلته الحاكم الزياني الوحيد الذي سما في ملكه ،فمن الشجاعة والصرامة في اتخاذ القرارات إلى الجود والحلم مع رعيته إلى الصدق في القول والفعل ، فبهذه الأوصاف نافس ملوك المغرب الإسلامي برمتهم ،فكان الملك المطاع الساهر على خدمة دولته ،والحريص على بقائها زهره فواحة في بستان أخضر تحيط به الأشواك من كل جانب.

ثانيا: خطط الدولة

ككل دولة إسلامية وضع حكام بنو زيان لدولتهم خططا لتنظيم شؤونها ، كالنظر في المظالم لفك النزاعات ،ونظام الحسبة لقمع الغش، و نظام الشرطة لسّهر على توفير الهدوء والأمن والاستقرار لرعاياها ،وحتى لا يطغى على المجتمع الظلم والفساد ومختلف الآفات الاجتماعية التي قد تؤدي بالدولة إلى الهاوية.

ا- **خطة المظالم:**

يعتبر النظر في المظالم هيئة قضائية عالية تشبه محكمة الاستئناف في أيامنا ولذلك كانت سلطة صاحب المظالم أعلى بكثير من سلطة القاضي [2]، عرفها ابن خلدون في المقدمة فقال: " هي وظيفة ممزوجة من سطوة سلطانية ونصفة القضاء ،وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة ،تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدين ،وإليها النظر في البينات والتقرير ، واعتماد الإمارات والقرائن ،وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق ، وحمل الخصم على الصلح ،واستحلاف الشهود ،وذلك أوسع من نظر القاضي "[3]

[1]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ص:18

[2]- تاريخ الحضارة الإسلامية – بشير رمضان التليسي ،وجمال هشام الذويب ،(المدار الإسلامي ، ط2) ، ص:131

[3]- المقدمة – عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ص: 222

أما بالنسبة لشروط من تُوجَبُ عليه تولي النظر في المظالم فقد ذكرها الماوردي في قوله: " ... أن يكون جليل القدر، ناقد الأمر عظيم الهيبة ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع ،لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة وثبت القضاة ، فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين ،وأن يكون بجلالة القدر نافد الأمر في الجهتين "[1].

وفيما يتعلق بتاريخ ظهور هذه الخطة يكمن في أنه لم يكن في زمن الخلفاء الراشدون مجلسا لها لأنهم كانوا حديثي الإسلام ،ووازعهم الديني لم يخول لهم ذلك فكان سطانا يسيطر على نفوسهم ،ولكن الخليفة الوحيد الذي اضطر للنظر في المظالم هو علي بن أبي طالب ،ولكنه لم يعين لذلك يوما معينا ولا زمنا محددا ،بل كان ينظر في شكاية من يأتيه من المتظلمين ،ويعمل على إنصافه [2] .

ومع تغير أحوال المجتمع الإسلامي تغيرت طباع الناس على ما كانت عليه في صدر الإسلام ،واتساع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية في عهد بني أمية زاد من كثرة المظالم والاستهتار بحقوق الناس، فتراكمت الشكايات مما دفع خلفاء تلك الفترة بتخصيص يوم معين للنظر في مظالم الرعايا ،وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان الذي كان يستعين بقاضيه إدريس الأزدي فيما أشكل عليه ، فكان ابن إدريس هو المباشر وعبد الملك هو الآمر، وقد أفرد يوما يتصفح قصص المتظلمين[3] .

وبعد اهمال بعض خلفاء بني أمية لهذه القاعدة أعاد خلفاء الدولة العباسية لها الحياة ،وكان المهدي أول من جلس للمظالم ،ثم اتبعه من جاء بعده من الخلفاء ،وكانوا كثيرا ما يستندون هذا المنصب إلى أحد وزرائهم أو قضائهم ،كما فعل المأمون بقاضيه يحي بن أكثم ، والمعتصم بقاضيه أحمد بن أبي داؤد[4].

---

[1]- الأحكام السلطانية والولايات الدينية – الماوردي ، (تح ، أحمد مبارك البغدادي ،ط1. 1409- 1989م ، مكتبة دار ابن فتيبة ،الكويت) ، ص: 102

[2]- تاريخ الحضارة الإسلامية – بشير رمضان التليسي ، وجمال هشام الذويب ،المرجع السابق، ص: 132

[3]- المرجع نفسه ، ص: 133

[4]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ومن النصوص النثرية التي تؤكد بوجود هذه الخطة وصية أبو حمو موسى الزياني لابنه أبو تاشفين يأمره بتطبيقها قائلا:

" **وبعد فراغك من الصلاة (صلاة الجمعة) تجلس بمجلسك للشكايات تأخذ في القضاء الحاجات والفصل بين الخصماء ،والانتقام من الظلمة الغشماء فتقمع الظالم وتفهر وتحمي المظلوم وتنصره وتحضر الفقهاء في مجلسك حين الفصل بين الناس لإزالة ما يقع في الأحكام من الالتماس ،وهذا المجلس في اليوم المذكور مخصص للرعية والجمهور فيه تتقعد الضعفاء والمساكين والأرامل والأيتام والمحتاجين ،وأن تنظر في أهل سجوناتك** " [1].

عكف أبو حمو موسى الثاني على قمع الظالم ونصرة المظلوم ،فخصص يوما في الأسبوع عقب صلاة الجمعة، وحَضَّر في مجلسه الفقهاء لاستشارتهم في المسائل الشرعية بغية اصدار أحكام عادلة بين الرعية .

ب- **خطة الشرطة:**

1-**لغة:**عرفها صاحب لسان العرب بأنها من أشْرَطَ فلان نفسه لكذا وكذا ،أعلمها له وأعدَّها ،ومنه سمي الشُرَطْ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها الوَاحِدُ شُرْطِيٌّ

قال ابن الأحمر:

فأشْرَطَ نفسَهُ حرصًا عليها وكان بنفسِه حجتاً ضنيناً.

والشُرْطَةُ في السلطان من العلامة والإعداد، ورجل شُرْطِيٌّ وشُرَطِيٌّ منسوب إلى الشُرطَة والجمع شُرَطٌ ، سمو بذلك لأنهم أعدوا لذلك وأعلموا أنفسهم بعلامات [2].

---

[1]- واسطة السلوك في سياسة الملوك- أبو حمو موسى الزياني ، المصدر السابق ، ص: 84 – 85.

[2]- لسان العرب – المصدر السابق ، فصل الشين مادة شرط، ص:742

يقول صاحب القاموس (هم أول كتيبة تشهد الحرب ،وتتهيأ للموت ،وطائفة من أعوان الولاة مفرد شُرْطِيٌّ)[1].

أما في **الاصطلاح** يوجد مفهومين هما:

المفهوم الأول: " الشرطة هي الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة والوالي في استباب الأمن ،وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين ،وما إلى ذلك من الأعمال التي تكفل أمن الجمهور وطمأنينته" [2]

المفهوم الثالث:" هي الهيئة النظامية المكلفة بحفظ الأمن والنظام ،وتنفيذ اوامر الدولة وأنظمتها [3] .

هناك علاقة وطيدة بين المفهومين فكلاهما يؤكدان أن دور رجال الشرطة –باعتبارهم هيئة نظامية– السهر على توفير جو خالي من الفوضى وألا أمن انطلاقا من تنفيذهم لمجموعة من الأوامر الصادرة عن السلطة العليا .

تحدث أبو حمو موسى الزياني عن هذه الخطة في وصيته قائلا :

" ثم دخل صاحب شرطتك وحكام بلد حضرتك ليخبرك بما يريد في ليلتك لا يخفي عليك شيء من أحوال رعيتك وبلدك مع ضبط مملكتك فتسأله عن القليل والكثير والجليل من الأمر والحقير لئلا يتوصل أهل العناية للرعية مضرة ولا أذية ولا يقع من حكام جور في بلد ولا ظلم لأحد فإنه إذا علم الحاكم أوغيره من أهل العنايات وأعل الدعاوي والجنايات بأن الملك لا

1- قاموس المحيط ، المصدر السابق ، فصل الشين مادة شرط.ص:853

2- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي –حسن ابراهيم حسن ،(ج1، دار الجيل ،بيروت)، ص:376

3- ينظر : ولاية الشرطة في الاسلام – (رسالة دكتوراه نمر بن محمد الحميداني، دار عالم الكتب ، الرياض ، ط2)، 1994، ص: 19، الشرطة في الاسلام – يحي المعلمي ، (شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، جدة ، ط2، 1402 هـ)، ص:3

يغيب عنه شيء من أحوال بلده فيمتنع كل منهم من استطالة يده فيقف الناس عند حدودهم " [1].

لردع أهل الجرائم والتقليل من عمليات الإجرام داخل المجتمع الزياني، كان جهاز الشرطة أفضل وسيلة اتخذها السلطان أبو حمو موسى فسهر على تطبيقها بواسطة صاحب شرطته الذي كان يطلعه بكل صغيرة أو كبيرة عن رعاياه ،مما جعل مهمته أصعب هو نقل الحقيقة وعدم السكوت عنها ،فهو بمثابة العين التي يبصر بها الحاكم.

[1]- واسطة السلوك في سياسة الملوك– أبو حمو موسى الزياني – المصدر السابق، ص: 84

المبحث الخامس:

المظهـــــــر العلمـــــي

سارع ملوك بني زيان منذ وضع اللبنة الأولى لدولتهم في استقطاب العديد من العلماء لحاضرتهم تلمسان والوافدين من بلاد المشرق والأندلس ، إضافة إلى ذلك إعدادهم لجيل محب للعلم والعلماء ،فاتخذوا كل الإجراءات المناسبة لتوفير الجو المناسب من بناء المدارس ،وفتح المكتبات سواء في المساجد أوغيرها من المرافق ، متيقنين من ضرورة تشجيع البحث العلمي ماديا و ومعنويا ،فانعكس ذلك ايجابا على الدولة الزيانية فشهدت نهوضا كبيرا لم تشهده بلدان المغرب الإسلامي من قبل، فجاء وصف بعض الباحثين لهذه النهضة بنعوت شتى منها " **النشاط العلمي** " و" **الحركة الفكرية** " وغيرها من الأوصاف العامة التي تبين الكمية والفعلية [1]، فجاء شعارهم على أساس قول الله ﷻ:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿9﴾﴾[2].

[1]- تلمسان في العهد الزياني ، عبد العزيز فيلالي، ج 2، المرجع السابق ، ص: 317

[2]-سورة الزمر، (الآية : 9)

أولا/ إكرام أهل العلم:

حظيت تلمسان بعلماء من خيرة أبنائها أو من خارج أسوارها حملوا لواء حضارتها فاحتلوا مرتبة عليا داخل المجتمع التلمساني ، فامتلأت المدارس والمساجد بأمثالهم بعدما امتدت جلساتهم في بلاط ملوك بني زيان الذين لم يتهاونوا في استقبالهم بحفاوة ،وقلب رحب فأكرموهم وأمدوا لهم يد العون للمزيد من البذل والعطاء خدمة للعلم والعلماء فأسسوا دورا للعلم تحملوا أسمائهم مثل مدرسة لبنا الامام إضافة إلى ذلك فقد اقاموا جلسات خاصة بهم ،للمناظرة وتبادل الأفكار ،وخير دليل على ما كان يجري داخل البلاط الزياني قول التنسي عن أبي تاشفين وكيفية تعامله مع العلماء :

" فقد كان له بالعلم وأهله احتفال وكانوا منه بمحل تهمم واهتبال ،وفد عليه بتلمسان الفقيه العالم المتفنن ابو موسى عمران المشذالي(*)،أعرف أهل عصره بمذهب مالك فأكرم نزله وأدام المبرة به والحفاية بجانبه وولاء التدريس بمدرسته الجديدة ،ولما ورد الفقيه العالم أبو العباس أحمد بن عمران البجائي على تلمسان تاجرا دخل المدرسة القديمة ، فحضر مجلس ابي زيد بن الامام ،فألقاهم يتكلمون في قول ابن الحاجب في الأصول في حد العلم إنه صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض فنادى :

" يا سيدي هذا الحد غير مانع إذ ينقض بالفضل والخاصة ، فقال له الشيخ أبو زيد: " من هذا الذي انبأ مقاله عن مقامه ؟ " فقال : " محبكم أحمد بن عمران "

فقال : " أول ما تشتغل بضيافتك وحينئذ يقع الجواب "

*- الفقيه الحافظ أبو موسى عمران المشدالي من كبار الفقهاء وخيار العلماء والصلحاء من زواوة بجاية ،لم يكن في معاصريه أحد مثله علما بمذهب مالك ، وحفظا لأقوال أصحابه و عرفانا بنوازل الاحكام وصوابا بالفتيا، توفي في حدود خمس واربعين وسبعمائة ينظر: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ص: 72.

فانزل منزل الكرامة، فأخبره عن مقدمه فاخبره أنه جاء تاجرا فعرف به أبو زيد أمير المسلمين أبا تاشفين ، فرفع عنه كلفة مغرمة ومغرم من جاء معه، وكان مائتي دينار ،وأعطاه زيادة على ذلك مائتي دينار ذهبية ،وجاء به أبو زيد إلى أخيه أبى موسى مسلما عليه فقال له:

- **" سمعنا أنك أوردت على أخينا سؤالا فأورده علينا "**

فلما قرره بين يديه قال له:

- **" يا فقيه غنما قال ابن الحاجب : صفة توجب تمييزا والخاصة إنّما توجب تميزا لا تمييزا "**[1].

جاء هذا القول ليوضح لنا طبيعة العلاقة التي كانت تربط خلفاء الدولة الزيانية بفئة العلماء من مشاعر الحب والرعاية في مقابلها عطاء وانتاج وإبداع ،كل ذلك نتج عنه إشعاع حضاري من تلمسان ليعلو جميع حواضر المغرب الإسلامي (فاس والقيروان) ويمتد إلى حواضر المشرق (بغداد).

وفي هذا السياق قال ابن خلدون متحدثا عن تلمسان وعلمائها :

" فأصبحت أعظم أمصار المغرب ،ورحل إليها الناس من القاصية ،ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع ،فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الاعلام ، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية والله وارث الأرض ومن عليها " [2]

تعظيم ابن خلدون لتلمسان على جميع بلدان المغرب يدل على أنه شاهد فيها أمورا لم يعهدها في سابقاتها من الدول التي زارها ،وأبرز ما لفت أنظاره اهتمام الخاصة والعامة بالعلم وأهله مخصصين لهم مدارس تحمل أسمائهم ومكتبات تحتوي على كتبهم ،ومجالس للمناظرات والمحاورات داخل البلاط الزياني

---

[1]- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرر والعقبان في شرف بني زيان – التنسي ، المصدر السابق ، ص:141-142

[2]-تاريخ ابن خلدون (العبر)- ابن خلدون ، ج7 ، المصدر السابق ، ص:105.

،واقامة أعياد دينية فيها يفتح الملك المنافسة بين الأدباء لإظهار قدرتهم في قرض الشعر. وكل ذلك جعل الوافدين إليها يستقرون بين أحضانها إلى أن توفيهم المنية فيدفنون في ترابها ويسقى قبرهم من مائها فيعتبرون من خيرة ابنائها الذين لم تنجبهم تلمسان ورغم ذلك فقد أحبوها وتشبثوا بها ومدحوها في إنتاجاتهم الأدبية عرفانا لما قدمته لهم من خير سبق ذكره .

ومن جهة أخرى أكد التنسي حرص حكام بنو زيان على استدعاء العلماء بطلب منهم إلى حاضرتهم تلمسان متحدثا عن يغمراسن (633-681 هـ) قائلا : " **إنه كان له في أهل العلم رغبة عالية يبحث عنهم أينما كانوا يستقدمهم إلى بلده ،ويقابلهم بما هم أهله** " [1].

بعد أن أشاد التنسي بشخصية يغمراسن فصل في الحديث عن ميزة أبهرته وعكست صورة المؤلوف عن الملوك السابقين في كونه لم ينتظر وفود أهل العلم على دولته التي أسسها بل بادر بنفسه في استدعاء أشهرهم وأعرفهم بأمور العلم حبا منه للعلم وأهله وتشوقه لرؤية دولته تشع فيها أنوار الحضارة من كل جهة .

وممن استقدمهم يغمراسن إلى حاضرته تلمسان قال التنسي أيضا " ;**ومن أعلم من كان في زمانه أبو اسحاق ابراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي ،كانت الفتاوى تأتيه من افريقية وتلمسان إلى تنس ، فكان أمير المسلمين يغمراسن يكاتبه كثيرا ،ويرغبه في سكنى تلمسان ،ويمتنع إلى أن نشأت فتنة مغراوة، فورد مرة على تلمسان ،فكان يجتمع إليه فقهاؤها ،ويأخذون عنه العلم فبلغ خبره أمير المسلمين ،فركب بنفسه وجاء إليه ،واجتمع معه بالجامع الأعظم، ومعه فقهاء تلمسان وقال له: " ماجئتك إلا راغبا منك أن تنتقل إلى بلدنا تنشر فيها العلم وعليها جميع ما تحتاج** "

[1]- تاريخ بني زيان –مقتطف من نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان – التنسي ، المصدر السابق ، ص: 126

...فقال لهم : إن رجعت تسببت في انتقالي " فقال له أمير المسلمين : " نحن لا ندعك ترجع ولكن نرسل إلى أهلك من ينقلهم إلينا " [1].

حب يغمراسن للعلماء ترجمه لنا التنسي حينما سرد لنا طريقة ذهاب هذا الحاكم إلى فقيه معروف في المغرب العربي ، حين سماعه بقدومه عند فقهاء تلمسان ذاكرا لنا أسلوبه الرائع في اقناعه بالبقاء في حاضرته ، وتقديم له ما يحتاجه حتى ولو استلزم الأمر احضار عائلته بالكامل ، وحتى لا يضطر هذا الفقيه للعودة إلى بلده بحجة رؤية أهله ، وهنا تظهر حنكة يغمراسن في التعامل مع الأمور بكل سلاسة وعقلانية. واضعا كل التسهيلات التي بدورها تمثل تحفيزا لأمثال هؤلاء العلماء للسير إلى الأمام والغوص في بحر العلم والبحث في مكنوناته.

[1]- تاريخ بني زيان –مقتطف من نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان – التنسي ، المصدر السابق ،ص: 126- 127

ثانيا-الاختراعات والابتكارات العلمية:

العلم يفتح أبوابا عدة منها باب الابتكار والاختراع والتطوير لتلبية حاجيات الانسان في حياته اليومية ومن أهم ما أجاد به العقل الزياني نذكر:

أ- خزانة المنجانة:

ذكر بعض المؤرخين بما في ذلك يحي بن خلدون بوجود ساعة ذاتية التشغيل استخدمت فيها تقنيات متقدمة جدا ،صممت هذه الماكنة في عهد السلطان أبو عنان (حكم1348 – 1358م) ،واستخدمت فيما بعد من طرف السلطان أبو حمو الثاني (1359 -1387م) لإحياء المولد النبوي عام 1359م في قصر السلطان بمشور تلمسان،[1] وقد صنعها أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الفحام'[2].

وصفها يحي بن خلدون في البغية فقال: " **وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة ، قائمة المصنع ، تجاهه بعلاها أيكة تحمل طائرا ، فرخاه ، تحت جناحيه ، ويخاتله فيهما أرقم (*) خارج من كوة بجذر الأيكة صعدا وبصدرها أبواب موجفة(**)، عدد ساعات الليال الزمانية ، يصاقب(***)كطرفيها بابان موجفان ، أطول من الأولى وأعرض ،فوق جميعها – ودوين راس الخزانة – قمر أكمل ، يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك ، ويسامت – أول كل ساعة – بابها المرتج، فينقض – من البابين الكبيرين – عقابان(****) في كل واحد منهما صنجة صفر(*****) ، يلقيها إلى طست من الصفر مجوف ، بوسطة ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة ،**

---

[1]- جوانب من تقنيات التوقيت وأدوات الرصد في المغرب الإسلامي ، علي محمد رضا ، ص: 32.

[2]- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي،ج1، المرجع السابق،ص:282

*- الأرقم: أخبث الحيات ، والأرقم الحية المرقطة بالسواد والبياض

**- أوجف الباب :أغلقه ، أوجف الشيء : حركه صيره يضطرب

***--يصاقب هنا : يقارب

****- الغقاب : طائر من قفصيلة الجوارح ،له مخالب قوية ومنقار أعقف ، يشبه النسر

*****- تسمى الصنج جمعها صنوج : وهي صفيحة مدورة من النحاس الأصفر ،أما الصفر : فالمقصود به هنا هو النحاس الأصفر.

فيرن ،وينهش الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ،فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة ،وتبرز منه جارية محترمة كأظرف ما أنت راء ،بيمناها أذبارة[*] فيها اسم ساعتها منظوما ،ويسراها موضوعة على فيها ،كالمبايعة بالخلافة لأمير المؤمنين أيده الله، حيل أحكمت يد الهندسة وضعها ..." [1].

نستشف من خلال هذا الوصف أن الدولة الزيانية عرفت تقدما كبيرا في مجال الصناعات الميكانيكية ،وما أنتجه العقل التلمساني من اختراعات عظيمة دليل واضح على دور العلماء ،وسهرهم على خدمة البشرية بتلبية احتياجاتهم اليومية .

ب- الشجرة العجيبة :

فقد كان أبو تاشفين شديد الاهتمام بجمال قصوره ،فحلى أحدها بشجرة من الفضة وصفها التنسي في نظم الدر والعقيان فقال:

" وكانت عنده شجرة من فضة ،على أغصانها جميع أصناف الطيور الناطقة ،وأعلاها صقر، فإذا استعمل المنفاخ في أصل الشجرة، وبلغ الريح مواضع الطيور صوتت بمنطقها المعلوم لمشابهها ،فإذا وصل الريح موضع الصقر صوت فانقطع صوت تلك الطيور كلها " [2]

العجيب في هذه الشجرة ليس في كونها مصنوعة من فضة بل لان بها مجسمات لطيور تصدر من افواهها أصواتا مشابهة تماما لأصواتها الحقيقية بمجرد النفخ في قاع الشجرة ،وهنا تكمن دقة صنعها ،وهذا بالذات يثبت لنا مدى التقدم العلمي الذي وصلت إليه الحضارة الزيانية، وبالخصوص أثناء فترة حكم أبا تاشقين ،ويقال أنه كان يأخذها معه لملعب الخبل لحضور الاستعراضات العسكرية التي كان يشرف على اقامتها متباهيا بهندستها وجمالها أمام الحضور.

---

[*]- يقصد بكلمة أذبارة هنا : لوحة أو قطعة ما بها كتابة.

[1]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون ، ج2، المصدر السابق: 103 – 104

[2]- تاريخ بني زيان مقتطف من نظم الدر والعقيان – التنسي ، المصدر السابق، ص:141

ويعتبر عهد أبي تاشفين الأول عصر ازدهار العمران بتلمسان وبلوغه أوج عظمته ورونقه ، وكان هذا الأمير يميل إلى اللهو واللذات ، واغتنام نعيم الدُّنيا ومسراتها ، وكان يمتاز عن أسلافه بذوق فني وتفهم لجمال الأشكال والصور[1].

ولتأكيد هذه الفكرة نستحضر قول يحي بن خلدون وهو يتحدث عن أبي تاشفين ودوره في الابداع العلمي :

" مع صدقه بالاختراع، وبصره بالتشكيل والابتداع فخلد آثارا لم تكن قبله لملك ولا عرف لها بمشارق الأرض ومغاربها نظير " [2].

---

[1] - أبو حمو موسى الزياني – عبد الحميد حاجيات ، المرجع السابق ، ص: 60

[2] - بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون ، ج1، المصدر السابق ، ص: 134

المبحث السادس:

المظهـــر الطبيعـــي

نعني بالمظهر الطبيعي تلك الطبيعة العذراء التي لم تصنعها يد الإنسان، مشكلة بذلك مجموعة من المتنزهات ،أو كانت مصدرا لسقي المحاصيل الزراعية أو للشرب، والطبيعة هي الحاضنة الوحيدة للعمران والاقتصاد والمجتمع ،فلا حضارة بلا طبيعة فهي الجاذبة لسُّياح من كل حدب وصوب قاصدين اياها بغية التمتع بمناظرها الساحرة من جبال وشلالات ، وحتى عليل هوائها ومنذ أقدم الأزمنة والإنسان يحاول الحفاظ على طبيعة دولته لأنها جزء لا يتجزأ من حضارة ذلك الشعب فعلى سبيل المثال الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ من المدينة المنورة ،لما تحتويه من واحات ومساحات خضراء ذات مناظر خلابة مركزا لحضارته ،فكذلك الحضارة الزيانية كان لها ذلك المكسب ونقصد به المظهر الطبيعي والمتمثل في جبل لالا ستي ،وشلالات الوريط ، وكهف الضحاك، وواد الصفصيف ، التي أبدعت فيها يد الخالق سبحانه وتعالى ،فكانت المتنفس الوحيد لقاصدي حاضرة العلم والعلماء تلمسان وخاصة فئة الأدباء معبرين في انتاجاتهم الأدبية عن اشتياقهم الكبير لزيارتها بكل حرقة وحزن ورهف شديد للعودة إليها ، معززين بذلك شموخ حضارتها بتلك الأماكن ، فجاء وصفهم صادق الإحساس نابع من الوجدان ، غير قادرين على كتمان ذلك الجمال.

ولتأكيد ما قلناه نستحضر بعض ما جادت به قرائح شعراء تلك الفترة عن طبيعة حضارة المغرب الإسلامي ،وسر جمالها بذكرهم لأسماء أشهر مظاهر طبيعتها .

أولا نسلط الضوء على جنات الوريط وشلالاتها الساحرة[1]، قال الشاعر التلمساني ابن خميس (الطويل):

[1]- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي –المرجع السابق ، ص: 153.

وَإنْ أَنسَى لاَ أَنسَى **الوَرِيطَ** وَوقْفَة   أنـَافِخ فِيهَـا رَوضـَة وأفـَـاوحُ

مُطِلاً علَى ذَلكَ الغَديرُ وقَدْ بَدَتْ   لإنسَانِ عَينِي مِنْ صفَاهُ صَفائـِحُ

لَئنْ كُنتُ مَلآنًا بِدَمْعِي طَافِحًـا   فَغَنِي سَكْـرانَ بِحُبِـكَ طَافِـح

قَراحٌ أتَى يَنْصَبُ مِنْ رَأسِ شَاهِـقِ   بِمِثلِ حَـلاَهُ تَسْتَحِثُ القَرائِـحُ

أرَقُ مِنَ الشَوقِ الذِي أنَا كَاتِـمُ   وأصْفَى مِنَ الدَّمْعِ الذي أنَا سَافِحُ [1]

نلتمس بين ثنايا هذه الأبيات أن **الثغري** تعود على زيارة هذا المكان بغية التمتع بطبيعته الجميلة بداية من انسياب مائه من عل إلى صفائه ورقة جريانه ،وكل هذه المناظر كانت تلامس أحاسيسه المرهفة فيشكو لها همومه.

أما عن **كدية العشاق**[*] فقد قال التلاليسي :

وَ**كُدْيَةُ عُشَاقِ** لَهَا الحُسْنُ يَنْتَهِي   يَعُودُ المسِنُ الشَيخُ مِنَ حُسْنِهَا طِفْلاً [2]

جعل الشاعر مظهر هذا المكان يسحر ناظري زائريه ، فالجمال عنده قد اكتمل ،فجاء في عجز البيت بمثال حي ليؤكد صدق ما قاله ،وكأنها تجربته الحقيقية التي خاضها بنفسه مع طبيعة هذا المكان ،واصفا الشعور الذي انتابه وهو بين أحضانه.

أما محمد القيسي (الكامل) قال:

---

[1]- من أعلام تلمسان – مقاربة تاريخية –فنية- محمد مرتاض ، المرجع السابق ، ص:68

[*]- اسم ربوة من الأرض واقعة جنوب الحرطون بين القلعة العليا والعباد، ينظر : إرشاد الحائر إلى أدباء الجزائر ، المرجع السابق ، ص: 293.

[2]- من أعلام تلمسان – مقاربة تاريخية –فنية- محمد مرتاض ، المرجع السابق ، ص:17

وَبِرَبْوَةِ **العُشَاقِ** سَلْوَةِ عَاشِـقٍ قَتلَتْـــهُ ألحَاظُ الغَزَالِ الأَكْحَـــلِ[1]

وكأن عشق الناس لهذا المكان جعلهم يطلقون عليه ذلك الاسم وما احتواه من مظاهر طبيعية خلابة كانت مصدر لتسلية نفوسهم الجياشة بالعواطف والمحبة لكل جميل ،وعاشقة له.

وعن **غدير الجوزاء** قال التلاليسي:

نِعْمَ **غديرُ الجَوزَةِ** السَالِبِ الحَجَا نَعِمتُ بِهِ طِفْلاً وهَمَمْتُ بِه كَهْلاً [2]

جاء التلاليسي في مستهل بيته بفعل جامد (نِعْمَ) لإنشاء المدح ،مادحا بذلك غدير الجوزة، بأنه سالب للعقول ،فذكر قصته معه، حيث كان مقصده للعب بمياهه العذبة ، وهو صغير ،وملجأه الوحيد الذي يبوح له بأحزانه وهمومه ،وهو شيخ كبير. فجمعت بينه وبين هذا المكان علاقة حب وهيام طيلة مراحل عمره.

و عن **وادي الصفصيف قال** :

وَكَم لَيْلةٍ بِتنَا بِ**صفْصِيفِ**ها الذِي تَسَامَى عَلى الأَنْهَارِ إذْ عَدَمَ المِثْلَا[3]

كان واد الصفصيف عبارة عن نقطة للاستراحة ونسيان عناء السفر، سواء أكان ذلك الشخص قاصدا زيارة تلمسان أو يود مغادرتها.

أما الثغري فقد وصفه وصفا دقيقا فقال:

واعْمَد إلَى **الصَفْصِيف** يَومًا ثَانيًـا وَبِهِ تَسل وعَنهُ دَابا فسئـــل

وَادٍ تَرَاهُ مِن الأَزَاهـــر حَاليًـــا أَحْسَن بِه عُطَلاً وَغَيرَ مُعَطَلِ

1- من أعلام تلمسان – مقاربة تاريخية –فنية- محمد مرتاض ، المرجع السابق ،ص:14

2- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ص: 17

3- المصدر نفسه ،الصفحة نفسها.

يَنْسَابُ كَالأَيمِ انْسِيابـًا دَائِمـًا أَو كَالحُسَامِ جَلاَهُ كَفُ الصَقيـلِ

فَزُلاَلُـهُ فِي فَمٍ قَـدْ حـَلاَ وَجَمَالُهُ فِي كُلِ عَينٍ قَدْ حَـلَى [1]

فدعوة الشاعر واضحة في البيت الأول لكل من أراد أن يتسلى برؤية واد الصفصيف، وهو يتحلى بأنواع الأزهار ،فالأحسن له أن يختار هذا المكان لقضاء أيام عطلته فسيسُر لرؤية مائه ،وهو في وعائه يتدفق كانسياب الثعبان في مشيته ،ونعومة ملمسه يشبه السيف المصقول ،ومذاقه عذب ، وصفاؤه جمال تعشق العين رؤيته.

إضافة إلى ذلك **منزه كهف الضحاك** الذي يعد من أعظم الأماكن وأحسن المنزهات، التي يضرب بها المثل، في المناظر الخلابة، حتى قيل فيه شعرا، يقع خارج أسوار المدينة، وكان خاصا بالطبقة الحاكمة وأعيان المدينة وشيوخها [2].وعنه قال الشاعر محمد بن يوسف القيسي الثغري :

وبِكَهْفِهَا الضَحَاكِ قِفْ مُتنزِهًا تَسْرحْ جُفُونُكَ فِي الجَمَالِ الأَجْمَلِ

وتمشى في جناتها ورياضهـا واجنح إلى ذلك الجناح المخضل[3].

وقال عنه أيضا:

ضَحِكَ النُورُ فِي رُبَاهَا وَأَرْبَى **كَهفُ** **ضَحَاكِهَا** عَلَى كُلِ نَـادِ[4]

---

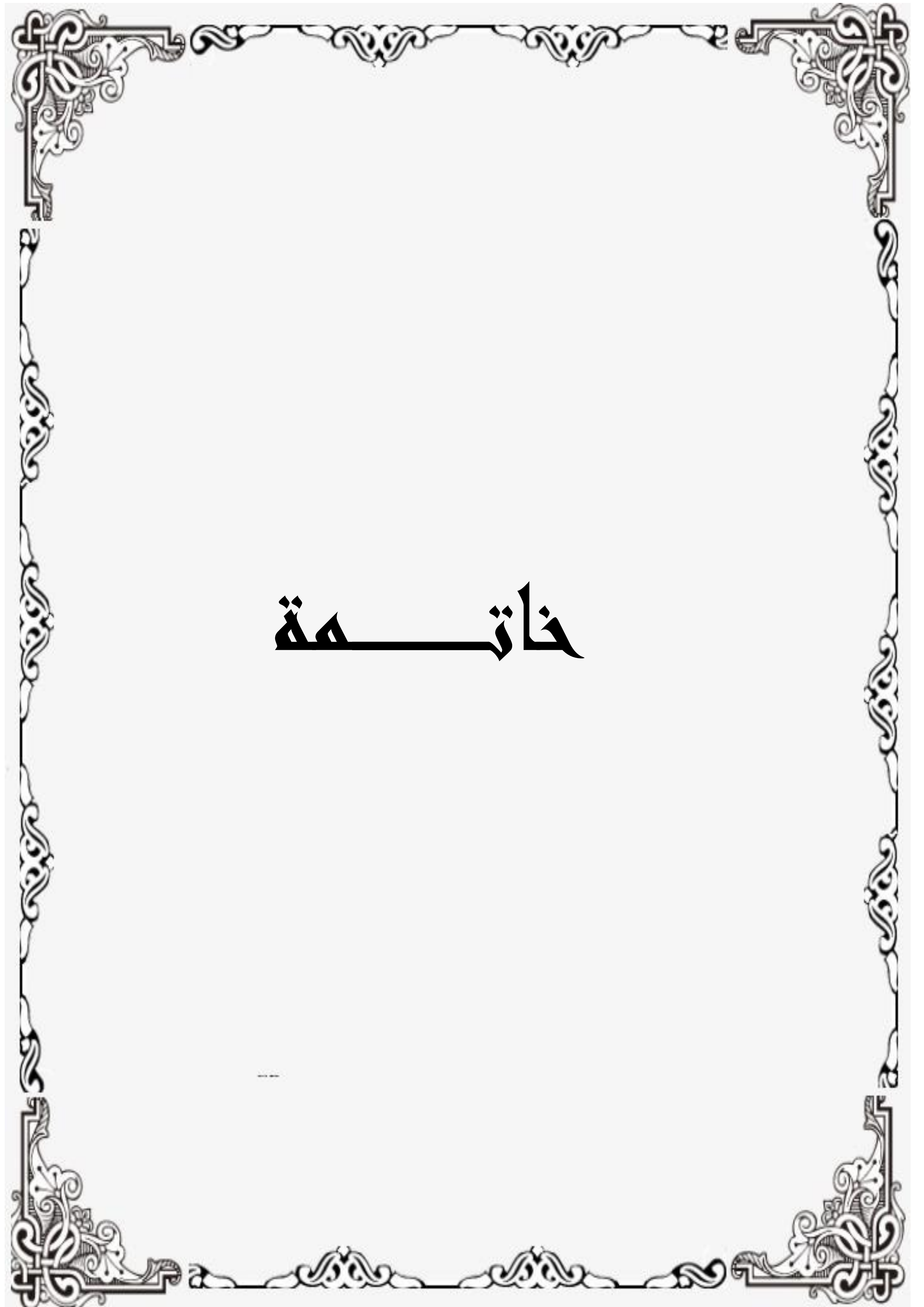
[1]- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ص:15

[2]- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي ، ج1، المرجع السابق، ص: 154

[3] – بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد – يحي بن خلدون ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص: 14

4- المصدر السابق ، ج2، ص: 562

تضمنت هذه الأبيات أيضا دعوة صريحة من القيسي لزائر تلمسان أن تكون وجهته ،ومقصده لمدة طويلة من الزمن لهذا الكهف ،الذي أبدع فيه الخالق لدرجه أن عين الإنسان تأخذه بخيالها بعيدا لجمال ما فيه ، وبهذا كله فاق على كل المجالس التي كان يقصدها الناس بغية التسلية والترفيه عن النفس.



خاتـــــمة

خاتمة:

فقد حفل المغرب الإسلامي بمجموعة كبيرة من الأدباء عاش أغلبهم بين أحضان الدولة الزيانية ، فحملوا لواء حضارتها وساهموا في تنشيطها ، ونظم شعراؤها قصائد في مختلف أغراض الشعر ،والبارز في هذا العصر اشتهار كتابها ببراعة كتاباتهم وخاصة في مجال كتابة الرسائل التي كان لها يد في تعزيز أواصل العلاقة بين الدول والأصدقاء فجاءت في شكلها على نوعين ديوانية وإخوانية ، ومن النتائج التي خرجت بها من خلال هذا البحث ما يلي:

1-أسهم الأدب الزياني في ازدهار حضارة المغرب الإسلامي بظهور شعر المولديات.ودوره في استمرار الزيانيين في الاحتفال بالمولد النبوي حفاظا منهم على عقيدتهم ،وتصديهم للمد الصليبي .

2-لقد كان للشعر حضوره المكثف في المناسبات والاحتفالات التي كانت تقام من طرف حكام الدولة الزيانية ،وقد ساهم في وجوده تشجيع الحكام الزيانين لهذا النوع من الأدب وشغفهم الكبير لنظمه وخاصة السلطان أبو حمو موسى الزياني .

3- إنّ الحالة السياسية للدولة الزيانية وأطماع الجارتين المرينيةوالحفصية في السيطرة عليها ،كلها عوامل كانت سببا في خلق التنافس بين هذه الدول الثلاث في مجال الأدب والعلم ،فسهر بنو زيان على استقطاب الأدباء والعلماء من شتى أقطاب العالم وخصصوا لهم مراكز تمثلت في المكتبات والمدارس (المدرسة التشفينية ، مدرسة ابنا الامام...).

4-طبيعة تلمسان الخلابة كان لها دور كبير في تحريك مشاعر الأدباء فسكبوا كل ذلك في انتاجهم الأدبي وكان على رأسهم ابن خميس التلمساني .

5-تأثر الادب الزياني بنوعيه النثري والشعري بحضارة المغرب الإسلامي ،وخاصة الحضارة الزيانية فظهر ذلك التأثر جليا من خلال تناوله لمختلف المظاهر الحضارية (العمران ، الاقتصاد ، الثقافة ، العلم ...).

6-من الأغراض الشعرية الثي لقيت رواجا في عهد الدولة الزيانية الوصف والمدح ، فالوصف ظهر جليا في وصفهم لمظاهر الطبيعة التي عرفت بها تلمسان حاضرة المغرب الإسلامي وجوهرته ،أما المدح فتمثل في استحضار الشعراء لصفات الممدوح وقد تجلى في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم والسلاطين الدولة الزيانية.

7- أولى حكام الدولة الزيانية عناية كبيرة بالجوانب الفكرية وخاصة مجال الأدب فكانوا الأولى في احتضانه داخل البلاط الزياني وخير نموذج على ذلك أبو حمو موسى الزياني وإبداعاته الشعرية والنثرية ،فالأولى طغى عليها وصف المعارك والافتخار بالانتصارات التي حققها والثانية تمثلت في سياسته الرشيدة أثناء فترة حكمه ولخصها في كتابه واسطة السلوك سياسة الملوك الذي اعتبر من أروع الوصايا التي عرفها المغرب الإسلامي في تلك الفترة من الزمن .

8-كان للوصف النصيب الأوفر في النثر منه في الشعر الذي اقتصر على ذكر السطحيات كاقتصار الشعراء على تعداد أسماء أبواب تلمسان -كونه مظهر عمراني – واصفين ما حولها من مظاهر الطبيعة غاضين النظر عن وصف شكلها ومواد صناعتها والزخارف البادية عليها ، ولكنه أثبت وجوده في نص الخطاب النثري لسهولة نظمه واسترسال صاحبه في ذكر جزئيات الموصوف بدون تقيده بوزن وقافية .كوصف يحي ابن خلدون والتنسي لليلة المولد النبوي – كونه مظهر اجتماعي – وصفا يجعل النفس تلذ لرؤية الموصوف عن كثب.

9-شكلت المظاهر الحضارية كتلة واحدة متلاحمة ،فالتبرك بالأضرحة جاء نتيجة لبناء بني زيان لها تميزا لأصحابها عن غيرهم من الموتى ،وبشكلها الملفت للأنظار ،وهنا اجتماع للمظهر العمراني بالمظهر الاجتماعي.

10- تنوعت المظاهر الحضارية في الإنتاج الأدبي بنوعيه الشعري والنثري ،فكان المظهر الطبيعي الأكثر المظاهر جذبا وتحريكا لقرائح الشعراء افتتانا منهم بطبيعة الدولة الزيانية تلمسان ،التي تجلت في مياهها الكثيرة ورياضها الخضراء وكهوفها المتعددة.

11- انطوت القصيدة الواحدة في الأدب الزياني على مظهرين حضاريين فأكثر، كتحدث الشاعر الثغري عن ملعب الخيل كمظهر عمراني، وعن سباق الخيل كمظهر اجتماعي يقصد منه الترفيه عن النفس.

ومن خلال عرضنا لكل هذه النتائج نترك المجال مفتوحا للبحث في جوانب أخرى لها حق التنقيب في مكنوناتها ،وهذا ما تصبو إليه هذه الدراسة .

تم بحمد الله

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم برواية ورش**

قائمة المصادر والمراجع

أولا- المصادر:

1-الأحكام السلطانية والولايات الدينية – أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي (تح : أحمد مبارك البغدادي ، ط1، 1409هـ/1989 م).

2-أساس البلاغة – أبي القاسم جار الله نحمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (تح: مريد نعيم وشوقي المعري ،ط1998.1م، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، لبنان).

3-أزهار الرياض في أخبار عياض– شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ج2، المعهد الخليفي للأبحاث المغربية ، بيت المغرب ، دط).

4-الأنيس المطرب بروض الفرطاس – ابن أبي زرع الفاسي ، (دار المنصور ، الرباط ، 1972).

5-بغية الرواد في ذكر الملوك بني عبد الواد – يحي بن خلدون(ج 1 ، بيرفونطانا الشرقية ، الجزائر) و(ج2، تح : بوزيان الدراجي ، دار الأمل للدراسات).

6-تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) – عبد الرحمن ابن خلدون (ج2 – بيت الأفكار الدولية) و(ج7، تح: خليل شحادة، دار الفكر 1421هـ/ 2000م ، بيروت – لبنان)

7-تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان – محمد بن عبد الله التنسي (تح : محمود بوعياد – المؤسسة الوطنسة للكتاب / الجزائر ، 1405 هـ /1985 م).

8-المقدمة – عبد الرحمن بن خلدون،(تح : هيثم جمعة هلال ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1428 – 2007).

9- المعجب في تلحيص أخبار المغرب – عبد الواحد المراكشي(تح: سعيد العرباوي د ط).

10- ديوان عنترة بن شداد – عنترة بن شداد العبسي (مطبعة الآداب ، بيروت ، 1898 م) ،

11- صبح الأعشى في صناعة الإنشا- أبو العباس القلقشندي (ج8 ، دار الكتب السلكانية ، القاهرة ، 1915 م).

12- صبح الأعشى في صناعة الإنشا- القلقشندي (ج 7 و14، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، 1919م).

13- الصحاح – إسماعيل بن حماد الجوهري (دار المعرفة ، بيروت ،لبنان ، ط3، 2008م/1429هـ).

14- واسطة السلوك في سياسة الملوك – أبو حمو موسى الزياني، (المطبعة الدولية التونسية بحاضرتها المحمدية سنة 1279 هـ).

15- الرحلة المغربية – محمد العبدري البلنسي (منشورات بونة للبحوث والدراسات 1428 هـ /2007م ،بونة الجزائر).

16- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرق – عبد الرحمن بن خلدون ، (تح : بن تاويت ، الطنجي ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، 2007 م).

17- الجامع لأحكام القرآن – محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح القرطبي (ج11 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1360 هـ /1941 م).

18- الحيوان - مرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الجاحظ (تح: عبد السلم هارون ،ج1،ط2، 1952 م).

19- ديوان الصبابة – شهاب الديم أحمد أبي حجلة المغربي (تح: الشعراني طه ، ط: دي القعدة ، 1339 هـ).

20- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية – ابن أابي زرع الفاسي (د، ط).

21- روضة النسرين في دولة بني مرين – أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر (المطبعة الملكية ، الرباط).

22- زهر البستان – مؤلف مجهول (تح: بوزيان الدراجي ،ج2، مؤسسة بوزياني ، الجزائر 2013).

23- العمدة في صناعة الشعر ونقده – ابن رشيق القيرواني ،(ج 1، تح : د/ النبوي عبد الواحد شعلان مركز تحقيقات تكاميوتري علوم اسلامي).

24- قاموس المحيط – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي(احياء التراث العربي، لبنان ، بيروت ، ط2، 2003 م).

25- مسند الشهاب- القاضي أبي عبد الله نحند بن سلامة القضاعي، (تح: حمدي عبد المجيد السلفي، ج1، ط1، 1405 هـ/1985 م).

26-المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن – ابن مرزوق الخطيب، (تح: ماريا خيسوس بيغيرا ،الشركة الوطنية للمشر والتوزيع ، الجزائر 1401 هـ /1981 م).

27- لسان العرب – محمد بن مكرم بن علي ابن منظور (مج1، دار الكتب العلمية).و(مج2، دار الفكر للطباعة والنشر ، ط1،، 1428هـ/1992 م، بيروت ، لبنان). و(مج11، دار صادر، بيروت لبنان ،ط1، 1994 م).

28- نفح الطيب – أحمد بن محمد المقري التلمساني (ج5، تح: أجان عباس ، دار صادر بيروت 1968 م 1388 هـ).

29-وصف افريقيا – حسن بن محمد الوزان، (ج1، تح : محمد حجي ومحمد الأخضر / ط2، دار المغرب الإسلامي).

ثانيا – المراجع:

1- أبو حمو موسى الزياني – عبد الحميد حاجيات (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،1394 هـ/2013 م).

2- الأدب الجاهلي– غازي طليمات وعرفان الأشقر (ط1، 1412 هـ/992 م دار الإرشاد،حمص)

3- أدب الرحلة في التراث العربي – فؤاد قنديل ،مكتبة الدار العربية للكتاب ، ط2، 1423 هـ/2002 م.الفاهرة)

4-أدب الرحل في المغرب والأندلس – علي إبراهيم كردي ، (الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق 2013 م).

5-أدب الرحلات الأندلسية والمغربية – نوال عبد الرحمان شوابكة ، دار المامون ، عمان ، ط1 ، 1429/ 2008).

6- أدب الرحلة عند العرب – حسين محمود حسين ، دار الأندلس لبنان ، ط3،1429- 2008 م).

7- أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس – سامية جباري (د،ط)

8- أدب الرسائل في صدر الاسلام – جابر قميحة (دار الفكر العربي ، ط1)

9- أدب الرسائل في المغرب العربي – طه توات (ج1، ديوان المطبوعات الجامعية ،ط2، 2010م).

10-الأدب وفنونه – محمد مندور (النهضة مصر ، ط5، 2008 م).

11- إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر – محمد بن رمضان شاوش الغوثي بن حمدان (مج1، ط1، 1422هـ/2011م، هـ، داود بريكسي ، الكيفان ، تلمسان)

12- الإسلام والحضارة العربية – محمد محمد حسين (دار الفرقان).

13- اطلس الحضارة الإسلامية – اسماعيل راجي الفاروقي (ط1998 ، مكتبة العبيكان).

14- الامام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني- محمد بن الهادي أبو الأجفان(دار العربية للكتاب 1988 م).

15- باقة السوسان في التعريف بحاضة تلمسان – الحاج محمد بن رمضان شاوش (ديوان المطبوعات الجامعية ج1 و2).

16- تاريخ الأدب العربي– عصر الدول والامارات ،طه حسين(ط1، دار المعارف).

17- تاريخ الأدب العربي – ابراهيم الكيلاني (ج1، دار التونسية للنشر ، تونس).

18- تاريخ الحضارة الاسلامية – بشير رمضان التليسي وجمال هشام الذويب (المدار الإسلامي ، ط2).

19- تاريخ الدولة الزيانية – محمد مختار حساني (ج 1،دار الحضارة ، ط1، 2007 م).

20- تاريخ الحضارة الإسلامية – بشير رمضان التليسي وجمال هشام الذويب (المدار الإسلامي ، ط2).

21- تاريخ آداب اللغة العربية – جرجي زيدان ، (مر: شوقي ضيف ، ج1، دار الهلال)

22- تاريخ الأدب الجزائري – محمد طمار (ديوان المطبوعات الجامعية ط: 2006)

23- تاريخ الأدب العربي – أحمد حسين الزيات (دار النهضة ، مصر ، الفحالة ، القاهرة).

24- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – حسن ابراهيم حسن (ج1، دار الجيل ، بيروت).

25- تاريخ الحضارة العربية الإسلامية – بشير رمضان التليسي وجمال هشام الذوبي(دار المدار الإسلامي ، ط2)

26- التاريخ السياسي لدولة المغرب الإسلامي – لخضر سيفرج (ج1، الأمل للدراسات).

27- الترسل الأدبي بالمغرب – النص والخطاب – آمنة الدهري (ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية).

28- تلمسان عبر العصور – محمد بن عمرو الطمار(المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984 م).

29- تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي ، (ج1، موفم للنشر ، الجزائر 2002).

الجامع في تاريخ الأدب العربي – حنا الفاخوري (دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط2، 1986 م).

30- الحضارة –حسين مؤنس (عالم المعرفة ، ط 1978 م).

31- الحضارة العربية الإسلامية – الوحدة ، التنوع ، الاتصال ، التأثير – طه خضر عبيد(دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان).

32- الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي – محمد مرتاض (ج1، دار الأوطان د ط).

33- دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي – عبد الواحد ذنون ، طه، المدار الإسلامي ، ط1، 2004 م).

34- الرحلات – شوقي ضيف (دار المعارف ، القاهرة ، ط4).

35-الرحل في الأدب العربي حتى نهاية ق 4 هـ- ناصر عبد الرزاق المنوافي ، (ط1. ،1995م).

36- السلطة الحفصية- محمد العروسي المطوى،(دار الغربي الإسلامي ، بيروت ، لبنان1986 م-1406 هـ)

37- شرح ديوان عنترة بن شداد- الخطيب النبريزي (دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان 2012)،

38- الشعر الجاهلي – نشأته ،فنونه ، صفاته – فؤاد ابرام الستاني، (المطبعة الكاثوليكية بيروت. 1927).

39- الشرطة في الإسلام – يحي المعلمي(الشركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة ،ط1402،2 هـ)

40- الشورى وأثرها في الديمقراطية – عبد الحميد الأنصاري(دار الفكر العربي د ط)

41- فضائل الرمي في سبيل الله تعالى – أبو يعقوب إسحاق بن أبي إسحاق القراب الحافظ (ط1، 1409 هـ/1989 م، مكتبة المدار ، الزرقاء، الأردن).

42- فن الأدب – توفيق الحكيم (مكتبة مصر ، د ط).

43-في تاريخ الأدب – مفاهيم ومناهج – حسين الواد (المؤسسة العربية للنشر والتوزيع ، بيروت، ط2، 1993 م).

44- في الأدب الجاهلي – طه حسين (دار المعارف ، مصر ، ط2 و10)

45- في الأدب واللغة –أحمد هيكل (الأعمال الفكرية . د ط)

46-في الأدب وفنونه – علي بوملحم (المطبعة المصرية للطباعة والنشر)

47- في رحاب الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى – محمد مؤنس عوض (ط1، دار العالم العربي ، مدينة نصر، القاهرة).

48- المدارس والأنواع الأدبية- سامي هشام (منشورات المكتبة المصرية، بيروت 1979 م).

49- ماذا قدم المسلمون للعالم – راغب السرجاني (ج1، مؤسسة اقرأ ، ط2).

50- المدارس والأنواع الأدبية – سامي هاشم (منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت).

51- مدخل إلى الحضارة الإسلامية – عماد الدين (دار العربية للعلوم، ط1، 2005م /1426 هـ، لبنان).

52- مراحل تطور النثر العربي في نماذجه - علي شلق، (دار العلم للملايين 1992).

53- المستشرقون – نجيب العقيقي (ط3، 1964 ،دار المعارف ، مصر).

54- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر – عادل نويهض ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة ،بيروت لبنان، ط2، 1400 هـ/1980 م).

55- المغرب عبر التاريخ – إبراهيم حركات (ج2، دار الرشاد الحديثة ، ط2، 1984 م، دار البيضاء ، المغرب).

56- موسوعة تاريخ العرب – عبد عون الروضات (دار الأهلية ، عمان ج1، ط2، 2007 م).

57- موسوعة تاريخ المغرب العربي – عبد الفتاح مقلد الغنيمي (ج5، ط1، 1994، مكتبة مدبولي ، القاهرة).

58- موسوعة المستشرقين – عبد الرحمان بدوي (دار العلم للملايين).

59- موسوعة المستشرقين – عبد الرحمن بدوي (دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط3، 1993 م).

60- من أعلام تلمسان – مقاربة تاريخية – فنية - محمد مرتاض (دار الغرب للنشر والتوزيع ، وهران ،2004 م).

61- المنجد في الأدب والنصوص – محمد علي سعد (دار العلم والايمان ،2006 م).

62- من روائع حضارتنا – مصطفى السباعي (دار السلام للطباعة والتوزيع والترجمة ، ط1، 1998 /1418 هـ ، القاهرة ، مصر).

ثالثا- الرسائل الجامعية:

1 - أبو عبد الله المقري ورحلته العلمية بين تلمسان وحواضر المغرب الإسلامي فافة بوش - (رسالة ماجستر ، جامعة نلمسان 1432 هـ / 2011 م).

2- آثار البرامكة وبني سهل والصوليين على النثر الفني – الرسالة العلمية أحمد سعيد أحمد الزهراني - (رسالة ماجستر في الأدب ،كلية اللغة العربية جماعة أم القرى ، السعودية).

3- تلمسان في العهد الزياني 962/233 هـ –كامل عبد الرزاق شقدان (رسالة ماجسنير جامعة فلسطين 2002 م).

4- شعر المولديات في العهد الزياني – أحمد موساوي (رسالة دكتوراه جامعة تلمسان كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية 1424 هـ /2003 م).

5- فن الرحلة في المغرب العربي القديم – إسماعيل زردومي (رسالة دكتوراه دولة جامعة باتنة ،1424-2004 م).

6- فن الرسائل في العصر المملوكي دراسة احليلية رشا فخري النحال - (رسالة ماجستر في الأدب والنقد ،الجامعة الإسلامية ،غزة 2013-2014 م).

7- ولاية الشرطة في الإسلام – نمر بن محمد الحميداني(رسالة دكتوراه ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ط2).

رابعا- المراجع المترجمة:

1-حضارة العرب – جوستاف لويون (تج: عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي).

2-شروط النهضة – مالك بن نبي (تج: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ،دار الفكر ، دمشق ، سوريا).

3- شمس العرب تسطع على الغرب – زغريد هونكة (تج: فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل ، بيروت ، ط8، 1993 م).

4- فلسفة الحضارة –ألبرت شفايتزر (تج : عبد الرحمن بدوي ، المؤسسة المصرية العامة ، د ط)

5- قصة الحضارة – ول وايريل دورانت (تج : زكي مجيب محمود، مج1،ج3 ، دار الجيل ، بيروت ،1988م)

6- ميلاد مجتمع – مالك بن نبي (تج: عبد الصبور شاهين ، ج1، دار الفكر ،دمشق ، سوريا).

7- نظرية الأدب – رونيه ويليك وأوستن وارين(تج: محي الدين صبحي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط2، 1987م ، بيروت ، لبنان).

خامسا- المراجع الأجنبية:

1-Primitive culture- F.B.Taylor(sixth edition.june.1920.LONDON)

سادسا-المجلات:

1- مجلة اللغة والأدب والحضارة (واقع وآفاق)- نبيل الخطيب (ط1، 2013 م/1434 م)، دار النهضة، بيروت، لبنان)

2- مجلة حراء (العدد 45، نوفمبر 2014 م، دار النيل ، مصر).



ملاحـــق

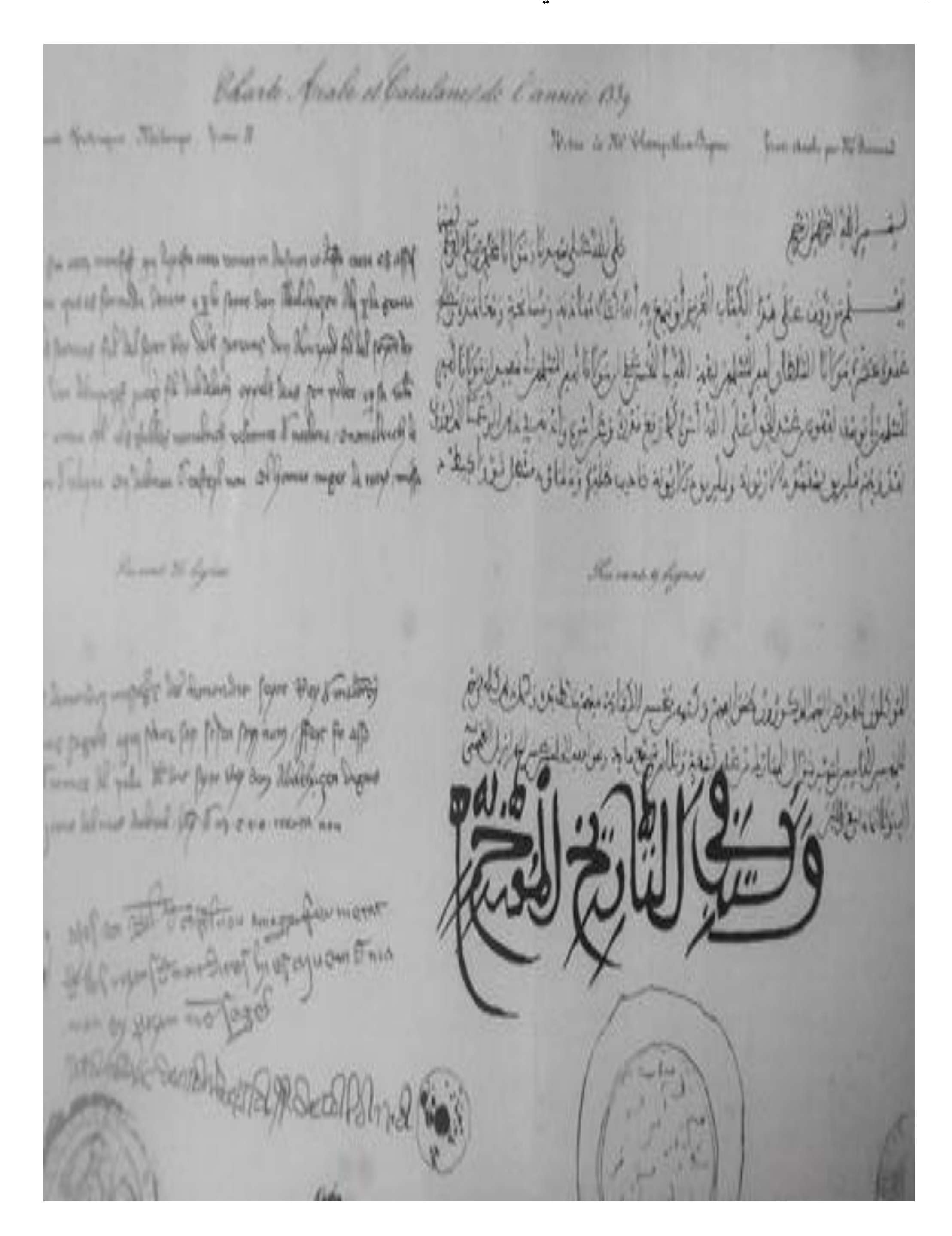
1-رسالة السلطان أبو الحسن المريني إلى الملك ميورقة

2- باب القرمادين

3- خريطة لمدينة تلمسان في العهد الزياني (الأبواب – الصهريج الأعظم)

4- أسوار وأبراج مدينة تلمسان في القرن الرابع عشر

(الشكل 1) رسالة السلطان أبو الحسن المريني إلى ملك ميورقة



المرجع : السفارات في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (ق 13- 14 م) – أمال سالم عطية (رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة مصطفى اسطنبولي معسكر، 2015 م/1436م)

لشكل 2) باب القرمادين

– 50 –

صفته : أبيض اللون ، معتدل القامة .

وكان نهبة لسيوف بنى مرين كأبيه يغمراسن ، تحرك اليه السلطان أبو يعقوب بن السلطان يعقوب بن عبد الحق من فاس الى تلمسان عام 695 وآب الى فاس، ثم تحرك اليه ايضا فى عام 796 فنازله بتلمسان وهو عام القباب، ثم تحرك أيضا عام 697 فنازله بتلمسان وتسمى بحركة الدار الحمراء ثم تحرك اليه أيضا فنازله بتلمسان عام 698 وشرع فى بناء المدينة التى أحدث بظاهر تلمسان سماها تلمسان الجديدة ، وأقام عليها محاصرا لها الى أن مات بعد أن ضيق على أهلها بالحصر سبعة اعوام حتى أكلوا الجيف والحشرات وجميع الحيوانات من الفيران والعقارب والحيات والضفادع وغير ذلك ، حتى أكل بعضهم بعضا ، وكانوا يغوطون ويجعلون غائطهم فى الشمس حتى يعود يابسا فيطبخونه ويأكلونه ، وهو فى كل ذلك يشدد عليهم الحصر ويقول لأواصلنه عليهم حتى أقتلهم جوعا ، ثم مات الامير عثمان هذا فى ذلك الحصر ، وبويع ابنه محمد فى الحصر وسيوف مرين تصفع فى قفيهم .

ذكر امارة ابنه الأمير محمد بن عثمان بن يغمراسن [1]

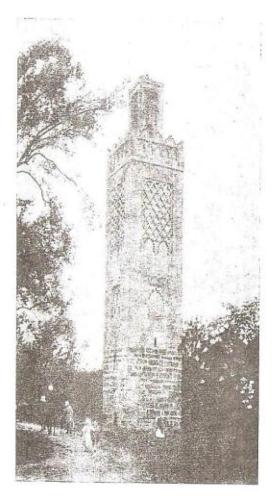
بويع بتلمسان وهى محصورة من قبل السلطان أبى يعقوب المرينى فى (2) ذى القعدة سنة 693 ، ومات وهو فى حصر السلطان ابى يعقوب المرينى فى (3) شوال عام 697 وله 41 سنة وكانت دولته أربعة أعوام .

صفته : درى اللون فى عينيه نكتة بياض .

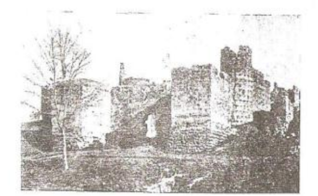
(1) يكنى أبا زيان ، مولده عام 659

(2) يوم الأحد 1 ذى القعدة عام 703 لا عام 697

(3) صبيحة الاحد 21 شوال عام 707 لا عام 697 وعمره 48 سنة ، وملكه 4 سنين الا سبعة ايام .



تلمسان ـ صومعة مسجد [illegible]

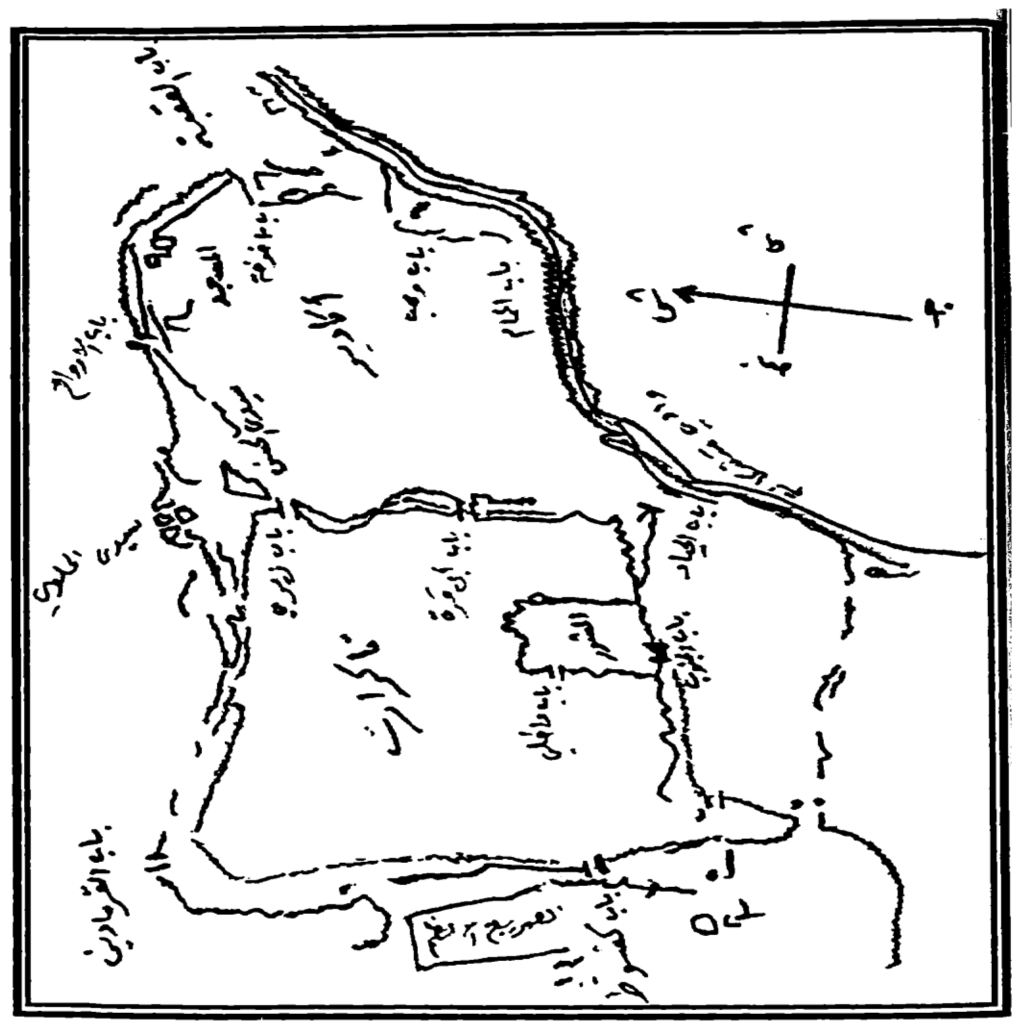


تلمسان ـ أطلال باب القرمادين الشهير

ص . 50

المرجع : انظر روضة النسرين –ابن الأحمر ، المرجع السابق ، ص:50

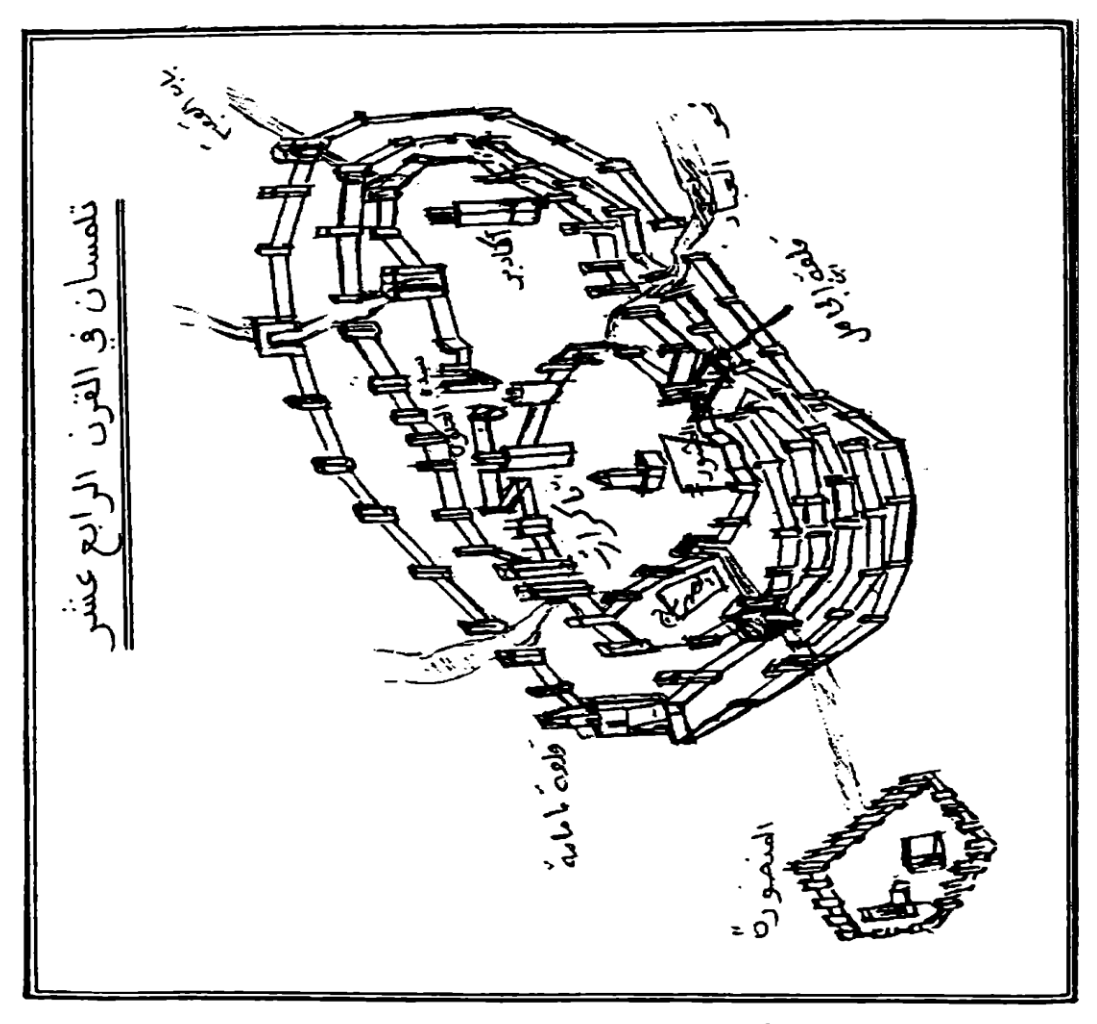
(الشــــكل3)



خريطة لمدينة تلمسان في العهد الزياني

المرجع: تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص:227

(للشكل04) المرجع : تلمسان في العهد الزياني – عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص:229



هذه الأسوار العديدة المحيطة بمدينة تلمسان، جعلت من سكانها يصمدون للحصار نحو تسع سنوات، فقد كان التلمسانيون لا ينامون في الليل ولا في النهار لحراساتها والدفاع عنها.



فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات









ملخص الأطروحة:

تعدّ حضارة المغرب الإسلامي من أرقى الحضارات التي شهدها العالم الإسلامي برمته، وقد ساعد في سطوعها دول تنافست فيما بينها ، واحتلت الحضارة الزيانية الصدارة في ذلك الجو المليء بالحماس وحب المعرفة وتقدم الفكر وتطلعه إلى آفاق بعيدة . وقد اعتبر أدب بني زيان أساسا للازدهار والرقي ، الحامل بين طياته أبرز مظاهر الحضارة الزيانية.

انطلاقا من كل ذلك تحاول هذه الدّراسة الكشف عن مدى مواكبة الأدب الزياني لحضارة المغرب الإسلامي وتحديد معالمها.

الكلمات المفتاحية : أثر ،أدب ، حضارة ، مظاهر ، الزيانية، المغرب الإسلامي

Résumé :

La civilisation du Maghreb Islamique est considéré parmi les plus impressionnante civilisations Islamique a cause de la concurrence des payes voisins, la civilisation Zyanide été florissante durant l'apparition d'un atmosphère pleine d'enthousiasme, d'amour de la connaissance et de progrès intellectuelle poussé par des ambitions et des objectifs à long termes. La littérature de Bani Zienne était considérée comme étant référence de la prospérité et du progrès, portant entre autres les aspects les plus importants de la civilisation Zyanide.

À partir de cette étude on a tenté d'identifier à quel point la littérature Zayani du Maghreb Islamique été compatible avec la littérature Zyanide dans le Maghreb Islamique et exposer ses caractéristiques.

Mots-clés: L'effet, littérature, civilisation, manifestations, Zyanide, Maghreb islamique

summary:

The Islamic Maghreb civilization is considered among the most impressive civilizations that took place in the Islamic world because of the competition its neighboring countries, the Zyanide civilization was flourished during an atmosphere full of enthusiasm, love of knowledge and intellectual progress driven by ambitions and long-term goals. The literature of Bani Zienne was considered as a reference of prosperity and progress, taking in the other hand the most important aspects of the Zyanide civilization.

From this study, we tried to identify the extent of Zayanid literature in compatibility within the Islamic Maghreb and expose its characteristics

Keywords: The effect, literature, civilization, manifestations, Zyanide, Islamic Maghreb